مكتبة

نوبل للآداب
2008

جان ماري غوسْتاف لوكْلِيزيُو

ألما

رواية

ترجمة
معَن السّهوي
ماري إليَاس



سار

ألما

ألما - رواية

تأليف: جان ماري غوستاف لوكليزيو

ترجمها عن الفرنسية: معن السهوي - ماري إلياس

ALMA

Jean-Marie Gustave Le Clézio

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 3 - 91 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

جان ماري غوستاف لوكليزيو

ألما

رواية

ترجمها عن الفرنسية:

معن السهوي - ماري إلياس

منذ وقتٍ طويل، يا عزيزي
منذ وقتٍ طويل
سنشرب النخب بكلّ محبة
نخب الأيام الماضية!

روبرت بيرنز (1786)

بمنزلة التمهيد - الأسماء

هل تشكّل عائلةً، أم شعباً؟ هل هي حقيقيّة؟ لقد انحفرت في ذهني منذ الطفولة، وهي تطير وتحوم حولي كفراشاتٍ مجنونة. أسماء عرفتُ بعضها منذ أن بدأت أفهم اللغة، لأنها ذُكرت عشوائياً خلال الأحاديث من قبل أبي وعمّاتي، وكذلك من قبل أمّي على الرغم من أنها كانت غريبة عن كلّ هذا. وبعضها الآخر وجدته خلال قراءاتي، على الصفحات الداخلية لمجلّة «موريسيان سيرنيان» التي كانت تصل إلى أبي أسبوعياً، وكان يكدّسها على الرفّ بجانب كتب الاقتصاد ومجموعة الموسوعة البريطانية. أسماء أخرى اختلستها من على أغلفة الرسائل أو من خلف الصور. مصدر الأسماء هو ذلك الكتاب الصغير ذو الغلاف الجلدي، المعاصر لـ«أكسل توماس فيلسن» والذي كان يتوضّع على الرفّ العلوي للمكتبة، وقد قرأته في طفولتي كما لو كان دليل هاتف من القرن الماضي:

تقويم جزيرة موريشيوس

والدليل الكولونيالي

لعام 1814(*)

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

كان هذا الكتاب يحتوي، إضافةً إلى مواعيد المدّ والجزر وقائمة الأعاصير، على إحصاء لسكّان الجزيرة، الذين يشبهون إلى حدٍّ كبير ركّاب سفينة من صخر، فهم جميعهم أتوا عبر البحر يوماً، على إحدى السفن التي أرخت مرساتها في وسط المحيط الهندي الذي تمتزج فيه التيارات القادمة من القطب الجنوبي والتيارات المستمرة من جنوب المحيط الأطلسي قبالة إفريقيا، والمياه الدافئة من جنوب شرق آسيا مع الأمواج الطويلة القادمة من الساحل الغربي لأستراليا. هنا، على هذه الجزيرة، اختلطت الأزمنة والدماء والحيوات والأساطير والمغامرات الأكثر شهرةً والأحداث المنسية والبحّارة والجنود وأبناء العائلات، وأيضاً الفلاحون والعمال والخدم والذين لا يملكون أرضاً. كلّ هذه الأسماء الوليدة، والحيّة، والمندثرة، والمتبدّلة دوماً، التي حملتها الأجيال، جيلاً بعد جيل، والتي غطّت، كزبدٍ أخضر، هذه الصخرةَ التي يطفو نصفها خارج الماء، وتنزلق نحو نهايةٍ محتومة لا يمكن توقّعها.

إنها الأسماء التي أودّ ذكرها ولو لمرّةٍ واحدة، أناديها للذكرى، ثم أنساها:

مهندسو العمارة: دولابار، كاستامبيد، ساردو. الفنانون: الآنسة أليزا بينارد، الآنسة مالفينا، كونستان، هودوار، فلوري. المحاميان: ديبيني، فيدهرب. المعماريان: مارشال، هيتيميه. تجّار الأحصنة: بيكر، براون، جولو، مانكان، ساليس. ماسحا الأراضي: هوار، هالو. الحلوانيّون: بود، بيريشون، كوبر، دومولان. التجّار: فيرير، فلورنس، فونتيموان، جيلان، غود شيل، كوريج، لاشوفيلاي، لافارج، لوبونهوم، ليشيل، ليجال، لونوار، مابي، مايارد، مارشي، بيرين، بينيوجي، ريفيير، روستان، سوفيلد، تاسدوبوا، فيجورو، ياردان. الكتّاب: بيغا، بينيش، بولاي، بوتون، شارو،

كومب، كورسون، دوميانيه، دروان، دوبري، جيكل، غولامي، جيرسي، نيل، كوش، لوكليزيو، ماران، مارتوا، باسكييه، بينلونغ، كيريل، ساليس، سوزييه، سافار، تزوكيز، تياك، فيريو، زاموديو. الخيّاطات: الأرملة برود، أنيت ميزونتورن، مورو، نوغارا، سانتامان. الدلّالون: شاستو، ماريني، مونجوست. الحمّالون: بروتوناش، لافوش، لاغوارديت. الزيّاتون: بارب، لابوتير، باتيه. السمكريون: بارو، دوبوا، لوجور. الساعاتيون: ألين، شيديل، إسنوف. الموسيقيون: الآنسة لوليفر (بيانو)، بيريشون (كمان)، ويديت (فلوت)، زناديو (غيتار). القابلة الأرملة فاليه. مسؤولا الصحة: بلانشيت، بيرنار. تجّار الجملة: أنتيليم، كوريه، فروبفيل، لوساج، بيتو، سيبالد، ويهي، ويرنيتز.

وكلّ الأسماء الأخرى التي تعود إلى السكّان الأحرار: الحرفيين والمستخدمين، لويس كوبيدون، ألوا جانفيه، زيفير فرانسوا، جول بويريت، جان باتيست سن سوسي، محمد علي، عبدول عظيم، ماماد باتوتا، قدور، بدور خان، زومون لاصقر، زيلابدين، قاسم مورماماد، زمال أوتيمي، أسيب رفيق، مادار صغير، معتصم سورتموتو، شافارايا مالاقا.

والآخرون، أولئك الذين لا يملكون سوى اسمٍ دون نسبة، يعملون بصفتهم خدماً وطبّاخين وغسّالات ومنظِّفات ملابس داخلية ومرضعات وعاملي حدائق، البائعين والمشترين الذين لم يتركوا أثراً في الأرشيف سوى يوم ميلادهم ويوم وفاتهم، في قيد العبيد الذي خطّته الريشة اللامتردّدة لمسؤول سجلّ العبيد، المدعو السيد ت. برادشو المحترم.

ماري جوزيف، عُمّدت في الثاني من الشهر التاسع من العام السادس للجمهورية. جوستين، توفيت في تاريخ 12 كانون الأول 1786. رفا، 8 أيار 1787. روبن، 2 أيار 1825 أو تلك التي تخيّلت حياتها القصيرة، ماري

كاريسي، ذات الستة عشر ربيعاً وأمّ لطفل. وصلت إلى بور لويس عام 1860 على ظهر سفينة «دافنيه» التي يقودها الربّان سوليفان، القادمة من «تيموتو» في بلاد «غالا» (ساحل الموزامبيق). توفيت بعد وصولها بشهرٍ واحد بمرض الجدري دون أن تحظى بأيّ تشييع سوى حفرة في الأرض غُطِّيت بالجير الحيّ.

تظهر الأسماء وتختفي، تبني فوقي قبّة صوتية، تقول لي شيئاً وتناديني. لديّ الرغبة في التعرّف عليها واحداً تلو الآخر، لكنّ حفنةً قليلة منها تصلني، بعض المقاطع اللفظية التافهة التي انتُزعت من صفحات كتاب قديم أو من على أحجار المقابر. إنها الغبار الكوني الذي يغطّي جسدي وينتثر في شعري، ما من ريحٍ تستطيع أن تنزعها عني. ما يهمّني في المقام الأول، من كلّ هذه الأسماء، من كلّ هذه الحيوات المنسية، هم الرجال والنساء الذين اختطفتهم سفنٌ من الجانب الآخر للمحيط ورمتهم على الشواطئ، أو تركتهم على أدراج الأرصفة البحرية الزلقة، ليصبحوا فريسةً لحروق الشمس ولضربات السياط. لم أولد في هذا البلد ولم أترعرع فيه، لا أعرف عنه شيئاً تقريباً، لكنني مع ذلك أشعر بثقل تاريخه، بقوة حياته، نوعاً من العبء الذي أحمله على ظهري حيثما ذهبت. اسمي جيريمي فيلسن، وقد ابتدأت رحلتي حتى قبل أن أفكّر فيها.

اسمي دودو

دودو. كطائر الدودو. ها ها ها. أسمعهم! هذا ما يقولونه دائماً. أبي، أمي لماذا لا تقولان شيئاً. لا تقولان شيئاً أبداً. لا تكترثان للأمر. لا تعيرانه أيّ اهتمام، لا تعبأان به. يعتبرونهم سيّئين، غيورين. إن شتمتهم فستكون كمن يبصق على نفسه. اتركهم، تجاهَلهم، امحُهم. من السهل القيام بذلك، ما عليك سوى أن تغلق عينيك وفمك وسيتلاشون في الظلام. إنهم بقعٌ لا تحتاج إلى أن تفركها، ستتلاشى من دون ماء. أَغلِق جفنيك، أغلِقهما بإحكام واسند قبضتيك عليهما واضغط حتى تندفع كرة العين إلى الداخل وترى ومضات. هذا الموقف يعجبني. أحبّ أرتيميسيا، المرضعة العجوز شبه العمياء، لا ترى سوى ومضات. هذا ما قالته لي. ماذا ترين «نينين»؟ ماذا ترين بعينيك الزرقاوين اللتين يُرضّع بهما وجهك الأسود؟ ومضات يا ولدي(*)، أرى ومضات، لا شيء آخر. أرضعتني «أرتيميسيا» من حليبها، لكن ثديَيها قد ترهّلا الآن وتدلّيا على بطنها الكبير. كانت تلبس قميصاً رماديّاً لكنّ وجهها أسود وأملس. أحبُّ دائماً أن أمرِّر أصابعي على وجنتيها. «يا أسودي الصغير، يا صغيري!»(**). تقول هذا بلطف، وأغلق

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

عينيّ على مهل كي أرى ما تراه. لا أرى شيئاً سوى السواد وبعضاً من لونٍ أحمرٍ على الأطراف وظِلّ أوراق عباد الشمس المتراقصة في ضوء الشمس. ليس لديها أحدٌ سواي. ابنتها هونورين وأولاد وبنات أخواتها لا يأتون لرؤيتها. يخجلون بها لأنها كانت مرضعة عائلة لاروس وفيلسن. يقولون عنها عبدة لأن لون بشرتها كالقطران، أسود أسود، لكنّي أحبُّها. بشرة يديها سميكة وناعمة، منهكة وزهرية اللون وليس فيها تجاعيد: لا تحوي خطّ حياة أو خطّ قلب، كلّ تلك الخطوط التي ترتسم على كفوف الفتيات الصغيرات. توفِّيت الأمّ لاروس، لكن أرتيميسيا ما زالت على قيد الحياة. لن تموتي، أليس كذلك أرتيميسيا؟ «كلّ الناس فانون، دودو!». «لكن ليس أنت أرتيميسيا، لا يمكنك أن تموتي!»(*). أحبّها جداً عندما تضحك، فأسنانها كاملة وبيضاء جداً حتى وإن كانت تدخن سجائر كريهة الرائحة، لأنها تمضغ دوماً عِرقاً من السوس. إنها بدينة ولديها صعوبة في الحركة. رجلاها منتفختان وفي قدميها شقوق لم تلتئم يلتصق بها الذباب.

أحبُّ كثيراً أن ألمس ثدييها الكهلين اللذين أعطياني الحليب حين كنت على وشك الموت لأن ثديَي أمّي كانا جافَّين. ألمس ثدييها وأقول: «هذا لي، والآخر أيضاً». يثير ذلك ضحكها. تضربني على يدي وتنهرني، لكن ذلك يبهجها. تعرف أرتيميسيا كلّ الأحجيات وخصوصاً البذيئة منها، تلك التي لا تقال للأطفال، مثل تلك التي تقول: «بطن يلامس بطناً ويشغل قسماً من الفم، ما يكون؟ طفل يرضع من أمه»(**)؛ أو تلك التي تقول: «ما هو الشيء الأصغر من مؤخرة القملة؟ زبانة ذكرها»(***). جرّاء ذلك، لم تكن ابنتها هونورين تأتي دائماً لرؤيتها. هونورين خمسينية

(*) باللغة الكريولية في النص.
(**) باللغة الكريولية في النص.
(***) باللغة الكريولية في النص.

(Pentecôtiste)[*]، تكره جلّ عائلة فيلسن وتتمنى أن يذهبوا إلى الجحيم. كلّهم الآن متوفّون، الأم لاروس، الأب والعجوز أرتيميسيا. لم يعد هناك أحدٌ غيري؛ لكنني لست من عائلة فيلسن ولا من كوب دو روس. أنا دودو. هذا كلّ شيء. لذلك تستقبلني هونورين عندها، وترضى أن أنام على فرشةٍ ممدودة على الأرض بالقرب من الباب بصفتي مشرَّداً دون منزل.

أمشي كلّ يوم، وطوال اليوم. أمشي مطوّلاً لدرجة أن حذائي انثقب. عندما تصبح الثقوب كبيرة جداً ولا يعود بمقدوري أن أغلقها بقطع من الورق المقوّى، أقوم بالبحث عن حذاء آخر. أعرف أين أجد منها. أصعد عالياً نحو «ترو أو سير»، نحو حديقة الحياة النباتية التابعة للكنيسة السويدينبورجية. أستطيع أن أجد حذاء جديداً هناك. لا أحتاج أن أبحث في القمامة. أسأل المرضعات من على عتبة الباب، وهنّ يسألن ربّات البيوت ويعُدن مع زوج أحذية ملفوف بورق الجرائد. أحتفظ بورق الجريدة، فأنا أحبّ أن أقرأ الأخبار حتى لو لم تكن حديثة، الحذاء هو الآخر ليس جديداً. أجلس في الشارع في ظل شجرة كبيرة. لا أقرأ بشكل جيد لأن الأسطر تتداخل بعضها ببعض. أقرأ أسماء العلَم فقط، فأنا أحبُّ قراءة الأسماء مراعياً تسلسلها الأبجدي:

شانغ سينغ ماري لويز

شوالا شاهيك

شيرو زينة

شيلجي مادفي

شيوغ يون أليسون

شوشجو بيبي شازيا

(*) حركة تجديد ضمن الطائفة المسيحية البروتستانتية. أُطلق عليها هذا الاسم لإيمانها بحلول الروح القدس على تلاميذ المسيح في اليوم الخمسين لقيامته.

تريلوك مانو زوهان

يي تونج واه جيريمي

تعطيني المرضعات الحذاء ويقُلنَ كلاماً لطيفاً. ينادينني باسمي: دودو، وليس فيلسن كوب دو روس أبداً. يمزحن معي قليلاً أحياناً بالادّعاء أنهن مغرمات بي وبأني صديقهن الحميم. يضحكن مُظهراتٍ أسنانهن البيضاء ويعطينني الحذاء. أستطيع الآن معاودة الانطلاق والذهاب بعيداً حتى الجبال، حتى الغابة، أستطيع أن أمشي بخطوات كبيرة على جانب الطريق جاعلاً السيارات تطلق أبواقها والشاحنات والحافلات تصرّ فراملها، منهم من يصرخ قائلاً: «يا دودو!». أمشي حتى يصيبني التعب، فأستريح على سفوح التلال، أشاهد الجبال والغيوم الماطرة، وألمح في بعض الأحيان البحر من بعيد من جهة «رامبار»، والشمس التي تتلألأ على الأمواج.

ينتهي بي المطاف دوماً بالوصول إلى ألما. أجتاز كلّ الأحياء الحديثة حيث هنالك الكثير من الشباب والطلاب وموظفي البنوك. لا أحد هنا يعرفني، إنه عالم جديد. أمرّ على جسر «كاسكاد»، وأسلك طريق القصب عبر «مينيسي»، أتبع مجرى النهر على حافة الوادي حيث الشمس تحرق العيون. أصل إلى «فاليتا» وأمرّ من تحت الجسر، وأسير بمحاذاة ضفة البحيرة حتى أصل إلى سكّة الحديد القديمة. أحبُّ أن آتي إلى هنا، فما من أحد يأتي إلى هنا أبداً. في بعض الأحيان أصادف عجوزاً تقوم بجمع الأغصان لتشعل ناراً، أو فلاحاً يتسكع حاملاً معه زجاجة عرق. تنبح الكلاب بالقرب من البحيرة، أتوخّى الحذر من هذه الكلاب الصفراء الصغيرة التي تعضّ. هنا. سأستريح هنا. من الجميل الجلوس صباحاً على ضفة المياه وترقُّب اليعاسيب. أقوم بجمع الحصى وأنتظر. أبحث عن عود قصب مقطوع كي أمصّ سكّره. أسناني الأمامية ليست

حادّة، لكن أضراسي تعمل على أتمّ وجه: أستطيع طحن الألياف ومصّ عصارتها، عصارتها اللاذعة والمرّة. كان أبي يغليها في مرجلٍ من نحاسٍ حتى تستحيل إلى عجينة كالطين. كان يقول إنها مفيدةٌ للصحة وإن شربها يشبه شرب التراب.

ألما. أستطيع لفظ هذا الاسم منذ نعومة أظفاري. أقول: ماما، ألما. ماما هي أرتيميسيا، فأنا لا أذكر جيداً أمي الحقيقية. لقد توفِّيت عندما كنت في السادسة من عمري. كانت طويلة القامة وشاحبة، ويبدو أنها كانت تُحتضر منذ وقت طويل من مرض أصاب دمها أو العظام. كانت مغنّيةً عظيمةً، هذا ما يقوله الجميع عنها، ولهذا السبب أحبها أبي، على الرغم من أن الأشرار أرادوا أن ترحل، لأنها كريولية من جزيرة الريونيون. شعرها أجعد كثيف، جسمها نحيل وقامتها منتصبة دوماً. أتذكّرها قبل وفاتها، تقف على ناصية باب المطبخ، بيضاء، تلبس قميصاً أبيض. يقول هاركاريشنا البستاني إنها تشبه الأشباح. أين أمي أرتيميسيا؟ هي من أريد. أصرخ في وجه الشبح، لست أنت من أنادي، بل ماما أرتيميسيا، مرضعتي، لا أريدك أنت.

من ثم كنت أعود إلى مقبرة سان جان. كنت أحبّ جدّاً أن أذهب إلى هناك. هذا المكان كالمنزل بالنسبة لي، لأني لا أملك منزلاً. هذا ما أقوله لحرّاس المقبرة وهذا ما يضحكهم: «دودو، أوصلت إلى المنزل؟»(*). يتهكّمون عليّ ولكنّهم يحترمونني لأنني من عائلة فيلسن، الأخير من السلالة. اسم فيلسن موجود في كلّ أرجاء المقبرة، في القطاع «و»، والقطاع «ج»، والقطاع «م». لا أعرفهم جميعاً لكن أعرف أين يقطنون. آكاب فيلسن مع الجدّة جاني بيث، بالقرب من الأجمة السوداء الكبيرة. أوجين فيلسن وماري زاكاري بالقرب من تمثال الملاك جبرائيل. روبرت

(*) باللغة الكريولية في النص.

فيلسن - وهو كالوالد بالنسبة لي(*) - في نهاية الدرب بجانب مدفن عائلة فيتوسي، صورته محفورة على الشاهدة الرخامية لكنّها نصف ممحوّة. على الطرف الآخر من المقبرة بالقرب من الحائط القديم ماما وبابا لاروس، مدفونان تحت بلاطة من الغرانيت الرمادي، إذ لا أحد كان يرغب بهما. كانت البلاطة محاطة بسلسلة حديدية، لكن أحدهم سرقها ولم يبقَ سوى الأعمدة الأسمنتية الأربعة التي ما زال يمكن رؤية صدأ السلسلة على ثقوبها. أذهب إلى هناك ومعي طبشورة كنت أستخدمها لإعادة كتابة الأحرف التي انمحت: «أنطوان فيلسن» (1902-1970) و«هيلين راني لاروش» (1913-1940). أحبّ هذه الأسماء. إنها وديعة جداً ومحفورة في داخلي كهمسات. ألفظها بصوتٍ خافت وأمرِّر قطعة الطبشور على الأحرف والأرقام. «ماذا تفعل هنا يا دودو؟»(**). إنه الحارس ذو القامة الطويلة جداً والشديد السواد. كان يعتمر دوماً قبّعة من القشّ على رأسه ويلبس بدلةً سوداء مهترئة عليها بقع. اسمه السيد زان. «الطبشور يمكن أن يُمحى يا عزيزي، عليك استخدام الطلاء. أستطيع أن أعطيك بعضاً منه»(***). لكني لا أريد طلاءه، فمن يرغب في استخدام الطلاء ومن ثم النسيان؟ والبقاء سنة كاملة دون العودة إلى المقبرة؟ لا، لا، أهلي يريدون أن أستخدم الطبشور. لقد أسرّوا لي بذلك في الحلم.

كان ينهمر المطر خفيفاً. كانت هذه هي الحال في كل مرة أذهب فيها إلى مقبرة «سان جان». أنطلق من حقول قصب السكر وأسير تحت الشمس عبر دروب صغيرة حيث الأرض متشقّقة وحمراء. أشعر بحروق الشمس على وجهي ويديّ، وحين أتجاوز الطرق بالقرب من «إيبين»، تتراكم

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

(***) باللغة الكريولية في النص.

السحب فوق الجبل، ترتطم سحبٌ بيضاء وسوداء كبيرة بعضها ببعض، وأشعر بريح المطر الباردة. كان الناس يهرعون مُنحنين تحت مظلّاتهم. تتعلّق فتيات المدرسة الإعدادية بالباص ويصرخن: آه وإيه. يضحكن، وتضفي أسنانهن البيضاء ألقاً على وجوههن. يضحكن أكثر حين يرونني. أنا لا أعرفهن فما زلن يانعات. لا أرى منهن سوى عائشة ابنة مدام زين. على الرغم من أنها ما زالت في المدرسة الإعدادية إلا أن الكلّ يحكون أنها تُواعد الشبّان. شعر عائشة أسود أجعد وعيونها خضراء. تناديني باسمي حين تراني: «يا دودو، دودو الطائر! أين كنت؟»(*). أجيبها بحركة صغيرة بيدي لأنني أحب عائشة، فهي جميلة جداً. ثم أتابع مسيري نحو المطر الذي يتساقط ويسيل على وجنتيّ ويبلّل قميصي ويصل حتى رجلَيّ. أحبُّ المطر حين يتساقط في مقبرة «سان جان». أبي وأمي، أنتما أيضاً تحبّان المطر. الأموات يحبّون المطر لأنه يشبه الدموع. عندما كنت صغيراً لم أكن أستطيع القول: «إنها تمطر»، بل «إنها تبكي».

أبي، كان طويلاً ونحيلاً جداً. كان يرتدي ثياباً سوداء دائماً، ربما حزناً على وفاة زوجته. الكلّ يحترمونه فقد كان قاضياً في السابق، ولا بدّ من أن الكثير من الناس يهابونه. هو لطيفٌ، على الرغم من ذلك، ولا يغضب ولا يصرخ أبداً. يذهب كل صباح ليتابع أعماله في المدينة دون أن يقبّلني ولا يصافحني. ينظر إليّ منحنياً قليلاً إلى الأمام، لأنه طويل وأنا قصير، ولا يقول سوى: «كن عاقلاً!»(**). يفضِّل أن يتكلّم معي بالإنكليزية. لا يتكلم لمجرد الكلام، مثل كل الناس الذين يتحدثون ويتخاصمون ويروون القصص. كان يستخدم حين يكلّمني بضع كلماتٍ بالإنكليزية: «الوداع»، أو «ما الجديد؟». يعود مساءً ويجلس بعد العشاء على كرسيّه الجلديّ

(*) باللغة الكريولية في النص.
(**) باللغة الإنكليزية في النص.

ويفتح صحيفته، لكنّ النوم يغافله في كل مرة. كما أنه كان يدخّن سجائر إنكليزية، يمسكها بين الإبهام والسبابة كما لو كانت قلم رصاص. وبفعلها أضحت رؤوس أصابعه وأسنانه صفراء. لم يكن يجرؤ على التدخين في المنزل حين كانت أمي على قيد الحياة، لأنها لم تكن تحب رائحة رماد التبغ. أرتيميسيا قالت لي هذا. حين توفِّيت أمي عاد إلى التدخين. كان ذلك يسبِّب له نوباتٍ من السعال. كنت أسمعه في الليل يسعل دون توقف، ذلك لأنه مصاب بالربو، وعلى المصابين بالربو ألا يدخّنوا. قال له الدكتور هاروسينج إن كل سيجارة من هذه السجائر تجعله يخسر سنواتٍ من عمره. لكن أبي لم يكن يستمع له. كان يقول فقط: «وماذا لو كنت أنا أرغب في تقصير عمري؟». هذا ما حصل. ظلَّ يسعل طوال الليل والنهار إلى أن انفجر شريان في قلبه وفي رأسه فتوفِّي. سمعته يموت، فقد حصلت ضوضاء كبيرة لأنه وقع على الأرض، ولم أستطع الحراك من فرط ما كنت مرعوباً. ومن ثم سمعت حشرجة في حنجرته، شخر، ثم انطفأ. وجدته أرتيميسيا عند الظهيرة، ممدَّداً على البلاط، وقامت بوضعه على السرير وحدها دون أن يساعدها أحد. ربما لو أني صرخت أو ركضت لأطلب الطبيب لكان أبي ما يزال حيّاً.

في البداية كنت ألومه في مقبرة «سان جان». كنت أجلس على البلاطة الحجرية الرمادية التي حُفر عليها اسمه واسم أمي لاروس. «كان عليك الاستماع لنصيحة الدكتور هاروسينج، لو نفّذت ما قاله لك لكنت الآن ما زلت معي». لكنّ في الواقع أظن أنه سعيد لأنه لم يستمع للدكتور هاروسينج، وأنه دخّن كل هذه السجائر التي قصّرت عمره، فهو الآن مع زوجته. لن ألومه بعد اليوم. أعتقد أنه عليّ أنا أيضاً أن أبدأ بتدخين السجائر لألحق بأبي وأمي بسرعة. لكن ذلك يثير فيّ القشعريرة، في الوقت نفسه، أن أتخيّل نفسي تحت هذه البلاطة الرمادية. وإن كنت تحتها من سيقوم

بإعادة كتابة الأسماء والتواريخ عليها بالطبشور؟ لن يقوم بذلك السيد زين، فهو لن يكلّف نفسه عناء حتى أن يكتبها بفرشاة الدهان؛ سيتابع قضاء وقته بشرب الروم، وبالنوم في كوخه في أعلى المقبرة في انتظار أن يمرّ أحدهم، فينتزع منه قطعة نقود، بحجّة سقاية الورود أو تنظيف مفاصل القبر بفرشاة أسنان قديمة وكوب من المياه المملحة. الشيء الجميل هنا في مقبرة «سان جان» هو وجود قبور تعود لصينيين. أسماؤهم زان فو وزان هو. ليست بالقبور الكبيرة لكنها جميلة جداً، تحوي دائماً الكثير من الورود والنباتات الخضراء وأُصُصاً فيها أعواد بخّور منطفئة. من الجيد لوالديّ أن يكون جيرانهما من الصين، فقد كانا يشتكيان دوماً من سوء معاملة أهلهم وأصدقائهم وكل الناس، ويقولان: «يا جنس الأفاعي» أو «جهنم» التي تعني أن الجزيرة كانت كالجحيم بالنسبة لهما. ها هما يرقدان الآن بجانب الصينيين النظيفين والمرتّبين جداً.

في الماضي كنت آتي مع والدي مرة أو مرتين في السنة. كان يلبس هنداماً أسود ويعتمر قبعته الصغيرة وينتعل حذاءً ملمّعاً. لم يكن يُحضر وروداً، كان يكره ذلك. كان يتعرّض لانتقاد السيد زان: «سيّد فيلسن، ألم تُحضر معك باقةً من الزهور؟»(*). السيد زان يعتبرني جرذاً، يحتقرني لأني أنتعل حذائي دون جورب، فهو يخمّن أن الحذاء الذي أنتعله ليس لي. هو حذاء وجدته في القمامة. حذاء رجل ميّت. «أتمشِي مستخدماً جلد رجل أبيض ميت؟»(**). كل الأحذية صُنعت من جلد كائنات ميتة. لكن في السابق وبسبب أبي، السيد القاضي(***)، لم يكن السيد زان يتدخّل. في السابق، حين كنت آتي مع والدي، لم يكن هنالك أحد يعكر صفونا أو

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

(***) باللغة الكريولية في النص.

يزعجنا. من المؤكد أن السيد زان كان موجوداً هناك، يختبئ مع الآخرين كالصراصير في جحورهم، لا يخرجون إلا بعد رحيلنا ليشمّوا القبر، ليروا ما إن كان باستطاعتهم سرقة شيء ما. كانت السلسلة التي تحيط بالقبر ما تزال موجودة في ذلك الزمن. كنت أجلس وأتأرجح عليها عندما كنت صغيراً. اسم أمي كان ما يزال جديداً، إنه مكتوب بحروفٍ سوداء على بلاطة رمادية. ما زلت أستطيع رؤية كل حرف وكل رقم، فهي محفورة في عمق عينيّ. أودّ لو بإمكاني إعادة كتابتها باللون الأسود، لكنّي لا أجد فحماً. حاولت بقلم الرصاص لكنه ينمحي في الحال، لذلك أستخدم الآن الطبشور لأخطَّها بالأبيض. لا أريد استخدام دهانه الحقير، ولكي يدلّني كيف أتصرف، يقوم زان بتلوين القبر الجانبي القريب، ليس من قبور الصينيين، إنما هو قبر سيدة عجوز من «لالماتي» لا أعرفها، عجوز من عائلة أمامبور، ربما يفعل ذلك عن قصد لكي يهدّدني، في المرة القادمة سأفعل ذلك بكم، أنتم أبناء عائلة فيلسن.

أنظر إليه ولا أقول شيئاً، لكن نظرتي تعني: «لو لمست قبورنا سأقتلك». لست طويلاً بقدر ما كان أبي، وأنا نحيل وعصبي، لكن المخيف فيَّ هو وجهي، فليس لديّ أنف، ولا جفون، وخدّاي مليئان بالأخاديد وكذلك دائرة فمي. لقد ابتلع المرض كلَّ شيء فِيَّ. لا أعرف اسم هذا المرض.

في يوم من الأيام كان والدي ما يزال في ألما. بحثت بين أغراضه، في مكتبه، فوجدت ملفّاً مربوطا بحبل، وقرأت عليه اسمي، دومينيك. كان في داخل الملف أوراق منها شهادة ولادة مسجّلة في بلدية «موكا»، وسجلٌ بعلاماتي في مدرسة «لو بورهيس»، وكذلك تقرير من طبيب، مكتوب باللغة الإنكليزية، بكلمات لا أفهمها، وفي قمّة التقرير علامةٌ غريبة. ولكيلا أنسى هذه العلامة قمت بتدوينها في دفتر لأحاول يوماً ما معرفة معناها، لأني فهمت أن هذا الحرف هو اسم المرض الذي يلتهم وجهي: Σ

زبيدة

سألت يوماً عن معنى هذا الحرف. العمّة ميلو هي التي أعطتني الجواب. أجابتني إن اسم زبيدة يبدأ بحرف الزاي، وليس بذلك الحرف الذي لا أعرفه ولا أحد يعرف ما اسمه. لكن العمّة ميلو قالت لي إن اسم الحرف الذي لن أنساه هو السيجما الكبيرة. الكلّ ينسون، حتى أبي نسي، إلا العمة ميلو لم تنسَ. تقول العمة ميلو الحقيقة دوماً، فهي تعيش وحدها، لم ترغب قطّ بالزواج وترك عائلتها. أقامت جُلّ حياتها في المنزل الكبير، في ألما، قبل أن تغادرها بسبب الحرب مع عائلة أرماندو - أولاد جول، وهنري وليون وبرنار، الذي يشبه والده، فسمّي ديلو كانال - كلّ هؤلاء الأشرار الذين ناصبونا العداء نحن عائلة فيلسن. وبسبب ذلك دُفنت أمي في السان جان، وتوفّي والدي، بالتأكيد، بسبب كلّ هذا، أصابته جلطة دماغية فسقط على الأرض في غرفته وراح يشخر ويصدر صوتاً كخرير الماء الجاري. احتاج الأمر عدة أيام كي يتوفّى. تحوّل لونه إلى البياض، وبقي ممدّداً على السرير واستمرّت لحيته في النمو. لم تتركه العمة ميلو بل بقيت إلى جانبه. أقامت معنا في منزلنا الذي كانت تسمّيه كوخ البامبو لأنه كان صغيراً ومتسخاً، يتموضع في أسفل وادي ألما على الجانب الآخر من غابة قصب البامبو. كانت تنام في الغرفة الصغيرة التي استعملها أبي مكتباً

على سرير يُطوى. لم يعد أبي الآن بحاجة إلى مكتب، لم يعد بإمكانه حتى الكتابة. قالت لي عندئذٍ اسم الحرف الكبير، وتطرقت إلى المرأة التي نقلت لي المرض، لكني لم أقتنع، لأني لم أرَ تلك المرأة سوى مرّتين أو ثلاث، ربما أكثر بقليل. كيف يمكن لزبيدة أن تنقل لي السيجما الكبيرة إن كنت لم أرَها سوى مرّتين أو ثلاث؟ كيف استطاع المرض أن ينهش أنفي ووجنتَيّ وجفنَيّ فباتت عيناي كثقوبٍ مفتوحة؟ أنصت إلى عمّتي لأنها دائماً تقول الحقيقة، فأعود وأسترجع في ذاكرتي شريط الأحداث التي وقعت في حي «وارد فور» في مدينة «بور لويس». حصل هذا في الماضي حين كنا ما نزال نسكن منزلنا في ألما، وحين كان والدي لا يزال يعمل قاضياً في مكتبه بالقرب من «لي باراك». كنت حينذاك أتابع دروسي في الإعدادية، ولم يكن أحد يناديني بِـ دودو أو كوب لاروس، لأني كنت الأقوى، وبمقدوري أن أوسعهم ضرباً بالعصا. كنت أذهب دوماً لأتنزّه في «الشان دو مارس» لأتابع السباقات، أحب كثيراً مشاهدة الخيل وهي تركض. أحب مشاهدتها تعدو في الميدان، لكني لم أعد أملك نقوداً كي أدخل. بالنظر إلى ثيابي القديمة وحذائي المهترئ لن يسمحوا لي بالدخول، وبالأخص أنه لم يعد لديّ أنف، والثقوب تملأ وجهي.

تسكن زبيدة في شارع «مورينو»، ليس بعيداً عن المشفى الرئيسي ولا عن المخزن الصيني والمسجد الحسيني. كنت أذهب لأزورها يوم الأحد بعد الظهر. أتذكّر أنه يوم أحد، لأن أبي والعمة ميلو كانا يذهبان في الوقت نفسه إلى الكاتدرائية لحضور القداس. الطقس حارّ جداً في «وارد فور» خلال شهر كانون الثاني، لذا تنظَّم السباقات في وقت متأخر بسبب الحرارة، حوالي الساعة الرابعة. ولمّا كنت لا أعرف ماذا أفعل حتى موعد السباق، كان صديقي «مهندس» يعرض عليّ الذهاب لرؤية زبيدة. رافقني حتى «وارد فور»، لكنه لم يرغب في الدخول وتركني أمام باب المنزل.

منزل زبيدة جميل جداً. اللون الأحمر حاضر في كلّ مكان، على الجدران والستائر والسرير، حتى الأثاث الصيني ملوّن بالأحمر والأسود. كانت زبيدة ترتدي فستاناً أحمرَ طويلاً يصل إلى أسفل قدميها، وشبشباً أحمرَ كما في حكايات الجنّيات. اعتراني الخجل، فقد كانت تلك المرة الأولى التي أكون فيها مع امرأة، ولم أعرف ماذا عليّ أن أقول. قالت: «ادخل أيها الفتى، لا تخَف، لن آكلك!». أذكر كل كلمة قالتها لي. اضطجعنا في سريرها الكبير بعد ذلك، نزعت عني ملابسي وراحت تسخر مني: «أنت عارٍ تماماً ولا يكسوك الشعر، إلا أن هناك انتصاباً هنا!». قامت بتمرير ظهر يدها على خدَّيّ، ضحكت قليلاً وقالت: «طفل!»(*)، أضافت: «أنت، أنت طائر غريب!». الجو حارّ جداً في منزل زبيدة؛ يتصبّب جسدي عرقاً حتى لو لم أكن أرتدي شيئاً. بشرة زبيدة جافة تعكس ضوء النهار، لونها كلون الأرض الحمراء بسبب الستائر، حلمتا ثديَيها قاسيتان. أرشدتني إلى داخل بطنها الحارّ والناعم. تولّد لديّ شعورٌ ظريف وصرخت حين خرج السائل مني. صرخت زبيدة قائلة: «آه!»، وأردفت: «أنت أيها العصفور، أنت فاسق كبير، لا أصدِّق أنك لم تقم بهذا من قبل. أنت كذّاب كبير، ليس هنالك أيّ شيء أعلّمك إيّاه يا صاحب القضيب اللذيذ؟(**)». سرّني أن تقول هذا لأن تلك كانت المرة الأولى، مع أني في بعض الأحيان كنت أستمني باستخدام يدي وأنا في السرير قبل أن أنهض. قال لي والدي يوماً، وقد كان غاضباً جداً: «هذا ليس جيداً، على الفتيان ألّا يبقوا ممدّدين في السرير في الصباح». ثم أرسلني كي أستحمّ. الحمّام في ألما هو عبارة عن دلوٍ من الماء البارد يُسكب على الظهر والمرء واقف في وعاء من الزنك، وينظّف الجسم بقشّ الكالاباش. لم أخبر أبي بخصوص زبيدة وكل ما حصل، على

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

الرغم من أن العمة ميلو كانت على علم. لا أعرف من أخبرها، ربما مهندس أو قدور، فالأخير يأتي دائماً إلى ألما، وهو مشهور بلسانه الذي يشبه لسان العجلة. السمكة العقرب. هكذا سُمّي. يأتي قدور دوماً إلى «وارد فور» ليصلّي في المسجد الحسيني، حيث يملك عمه متجراً للقماش في شارع «مورينو»، ولا شك بأن الكل يتكلم عن هذه العلاقة، لا سيما أني كنت أذهب دوماً لرؤية زبيدة. تستلطفني زبيدة وتناديني بزوزو مايو (القضيب اللذيذ)، وأحياناً بزاكو. تقول إن لون بشرتي وشعري الأجعد يجعلانني أشبه قرود المكاك في «الغراند باسان». لم تعد تناديني بالطفل لأنني فقدت عذريتي وأعرف فعل كل شيء، أطؤها وأوصلها إلى النشوة. تمسكني من شعري وأنا أجامعها وتقوم بإطلاق أصوات من حنجرتها: راا، راا، روو، روو، كقطّة سمينة تخرخر.

داهمني المرض بعد ذلك، ولم تعد زبيدة ترغب باستقبالي عندها. عاينتني قبل الطبيب. مدّدتني تحت ضوء الشمس عند النافذة، وضعت العدسة المكبّرة على عينها وراحت تتفحّص كلّ الأجزاء، القضيب والخصيتين، كلّ مكان، وقالت: «زوزو مايو، عليك الذهاب إلى المشفى!». قالت ذلك بصوت عريض كي أفهم أنه لا مجال للنقاش، وأضافت: «زاكو، لم يعد بإمكانك المجيء إلى هنا بعد الآن. إن سألوك لا تخبرهم عني أبداً، أتفهم؟». أعطتني نقوداً كي أشتري دواء. كان ذلك طريفاً، فأنا من يقدّم لها هدايا نقدية صغيرة عادة، بعض الروبّيات المخصصة لمطعم المدرسة وفّرتها، بعض الأوراق النقدية التي جنيتها من قصّ عشب الحديقة في ألما، أما الآن فهي من تعطيني تعويضاً. لم أفهم ساعتئذٍ أنها تفعل ذلك كي تطردني من منزلها، كي تقول وداعاً. لم أذهب إلى المشفى لأني كنت خجِلاً من هذا المرض. أملت أن أشفى من تلقاء نفسي، وضعت مرهماً لكنّي لم أبرأ منه.

ذهبت عدّة مرات إلى شارع «مورينو» في «وارد فور» لأتسكّع أمام مدخل بنائها. خرج في إحدى المرّات رجلٌ لا أعرفه، طويلٌ وقويُّ البنية وبشرته شديدة السواد، صفعني ورماني في الجدول. «من يحوم هنا؟ ألم تفهم أيها المقرف؟ اذهب بعيداً!»(*). جعلني أركض حتى نهاية الطريق. لم أعد عند زبيدة أبداً. تفاقم المرض بعد ذلك ودبَّ الألم بي، ألمٌ شديد، وأخذت أتعرّق بغزارة. اتصل أبي بالطبيب هاروسينج. عاينني ولم يقل شيئاً. بقيت ممدَّداً في غرفتي والستائر مسدلة لأن عينَيّ تؤلمانني. أخذت أهذي. تراءى لي شياطين تقترب من سريري بوجوهها الملتوية وأعينها الشريرة، تمدّ أيديها لتمسكني من شعري وأنا أصرخ. ومنذ ذلك الحين وأنا أرى شياطين في المرآة. أينما أذهب أقوم بتغطية المرآة بورق، أو أخفيها بقطعة ملابس. تركت المنزل بعد ذلك، بسبب المرض، لأسكن في كوخ البامبو في آخر الفسحة الخلفية. غطّت القشور جسدي ونزفتُ من فمي، وأصبح لساني أسود اللون. لم يعد بإمكاني الأكل أو النوم. آلمني رأسي بشدّة، فجلبت أرتيميسيا خرقاً مبلّلة لتلفّه بها. هكذا فقدت أنفي وحاجبي وجفنيّ وشعري، وأصبحت وحشاً. لم يعد أحدٌ يتعرّف عليّ، فقد التهم الدود رأسي. واعتدت على رؤية الشياطين.

(*) باللغة الكريولية في النص.

حصاة الحوصلة

لقد عدت. خالجني شعورٌ غريبٌ لأني لم أزُر موريشيوس من قبل. كيف للمرء أن ينتابه إحساسٌ كهذا تجاه بلد لا يعرفه؟ هجر أبي الجزيرة عندما كان في السابعة عشرة ولم يعُد إليها مطلقاً. وجدتي لا تنتمي إلى الجزيرة، فقد ولدت في الألزاس. أمي تدعى أليسون أوكونور، كانت تعمل ممرِّضة في إنجلترا، تعرّف أبي عليها بعد الحرب وتزوّجا. أصبح أبي مهاجراً، كما يقال الآن، من الشتات - لم أسمعه مطلقاً يستخدم هذه الكلمة، وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة منفى. لم يكن يتحدّث عن هذا الأمر، على الرغم من أنه كان مشبعاً بحنين عميق لبلده الأم. لم يكن يعبِّر عن حسرته بالكلمات بل بالحركات والعادات، ومقتنياته الرمزية المفضّلة. في طفولتي كنت محاطاً بهذه الأغراض التي تربطه بجزيرته: أصداف جمعها بنفسه من على الشاطئ، وما كان ليرضى بأن يشتري مثلها من سوق البرغوث، قِطع من حجارة بركانية ومن مرجان، سمكة محنّطة، صندوق مرقّش بالأزرق، عيون ضيقة، زعانف صغيرة جداً وهشّة، وهذا الشرج الأسود والمتجعد كفم عجوز، الذي كان يثير ضحكي. كان يقتني أيضاً حبوباً كحبوب البنّ، أكواز الصبار، قشوراً بنّية مائلة للحُمرة، قطعاً من خشب جوز الهند الأسود، وتلك الجوزة الضخمة اللمّاعة ذات الحراشف والتي حفظت اسمها منذ

الصغر لأنها لم تكن تشبه أيّ شيء آخر، ولأن ما من معجم حوى اسمها: التامبلاكوك. ربما قصّ عليّ أبي أسطورة الطائر الضخم غير القادر على الطيران، الذي كان يقتات عليها، ولدى طرحه إيّاها مقشّرة مع فضلاته كان يساهم في إنبات شجرة سيدوريكسلون غراندیفلوروم(*) الفريدة من نوعها - أو شجرة الحديد ذات الأوراق العريضة، هي فريدة من نوعها في العالم، وكنت أعتقد بأنها تعود إلى زمن الطوفان. بعد التفكير مليّاً، أظن أنه لم يروِ لي شيئاً من هذا القبيل. ملأت هذه المقتنيات طاولة مكتبه وحواف رفوف مكتبته وحتى طاولة سريره الجانبية، لكن من دون هدفٍ محدَّد ومن دون أي تعليق يشرح عنها. كانت هنا بكل بساطة.

هنالك أيضاً الخرائط: منها ما كان معلّقاً على الجدران وتكسوه طبقة من الغبار، ومنها ما كان ملفوفاً ومكدّساً في أعلى الخزانة بجانب القواميس الإنكليزية، كما لو أنه سيتم الرجوع إليها في يوم من الأيام. كانت كلّها خرائط لجزيرة موريشيوس بمساحات مختلفة، ومخطّطات لمدينة «بور لويس» تحوي أسماء الشوارع التي تغيّرت، وملاحظاتٍ كُتبت باليد بقلم الرصاص عن أسماء التجّار: علي، سليمان، أموراسينج، وونغ شونغ لي، باك سو، تسوريدار. من ضمن الملاحظات أيضاً أسماء مكاتب الأعمال في شارع «لاموسكيه» وشارع «إيديث كافل» (كان يسمّى قديماً شارع «رامبار»): مكاتب «دولا لونرو»، «لا سوغار ايسلاند»، المصرف التجاري، «كونسوليدات أورينتال»، وأسماء الفنادق التي لا تشبه بشيء الفنادق الضخمة الزاهية المعاصرة، إذ كانت عبارة عن نزل صغير يسكنه صغار الموظفين الإنكليز: «ناشيونال بيرل»، «ماك آرثر»، «مونتاجيو»، وأسماء المطاعم «لا فلور» و«لو باراشوا» و«لوكابيتين» و«الاسبيراتس»

(*) الاسم العلمي للتمبلاكوك.

و«الكاري سيك». لا أظن أن أبي كان يتأمّل خرائطه، فلقد كانت عنصراً من الديكور مثلها في ذلك مثل الحبوب وصور أعياد الميلاد، لكنّه كان يلحظ بسرعة إن صادف أن قام أحدهم بتغيير أماكنها: «من الذي قام بمسّ مخطّط بور لويس؟»، مضيفاً: «مخطط عام 1923» كما لو أن هذه الملاحظة الأخيرة ستجعله أكثر أهمية، كما لو أن هنالك أحداً آخر سوانا أنا وأمي قد اهتمّ بهذه الخرائط أو فكّر بسرقتها.

أكثر ما جذبني وأثار إعجابي من كل هذه الأشياء، لدرجة أني أظن بأنه أثّر في توجهاتي المستقبلية، كان ذلك الحجر المدوّر المائل للبياض والأملس، المنسيّ بجانب الأصداف والحبوب في المكتبة، والذي بدأت بتفحُّصه منذ أن استطعت الوصول إلى الرفّ العلوي حيث كان معروضاً. لا أذكر أني قد استفسرت عنه، لقد كان بكل بساطة عبارة عن حصاة بحجم كرة التنس أو أصغر بقليل، لكنّه كان مدوّراً تماماً مع نقرٍ خفيف على سطحه ناتج عن ضربات رقيقة، لا يمكن ملاحظتها إلا بتعريض الحجر لضوء الشمس. لم أفكر يوماً بأنه يمكن لهذا الحجر أن يصبح لعبة، لكني لطالما أمسكته وأطبقت راحة يدي عليه حتى يصبح دافئاً، وتحسّست وزنه وتفحّصت سطحه ولمسته بشفاهي لأعرف مذاقه وأقيّم قسوته. كنت أعيده بعد كلّ مرة إلى مكانه الدقيق على الرف العلوي بين التامبلاكوك وأصداف الكوري الصغيرة.

تجرّأت ذات يوم، بعد زمن طويل، وطرحت السؤال على والدي: «ما هي هذه الحصاة المدوّرة؟». كم فوجئت حين راح أبي، وهو عادة قليل الكلام وخصوصاً حول ماضيه، يُسِرّ لي فجأة عن طفولته: ألم تحزر؟ سأروي لك قصته. كنت في العاشرة تقريباً عندما وجدت هذا الحجر في وسط حقول القصب من جهة «ماهيبورغ» في الجنوب. كنت أمشي في الحقل بعد أن انتهيت من حصاد القصب. كان أبي قد ذهب ليرى أحدهم

في معمل «مون ديزير»، فرأيت هذه الحصاة البيضاء التي تلمع على الأرض الحمراء بين بقايا القصب. حملتها لأُريها لوالدي، فقال لي أحد المهندسين في المصنع بعد أن رآها: «لقد وجدت شيئاً نادراً. هذه حصاة حوصلة طائر الدودو. يمكنك أن تتخيّل حجم الطائر بالمقارنة مع حجم ووزن الحصى التي كان يحملها الطائر في حلقه».

عرفت من حينه بأنه سيكون لهذا الحجر المدوّر مكانة في حياتي، كان الشيء الوحيد الذي احتفظت به بعد وفاة أبي. قرّرت أمي أن تدخل إلى دير سان شارل في أعالي نيس، وجرى بيع كلّ شيء وتوزيعه. ووُضع الأثاث القديم العائد لجدتي أوكونور - كانت قد قامت بدهن الكراسي من طراز لويس السادس عشر بدهان «الريبولان» - والتُّحَف وأواني المطبخ، الصحون المثلّمة وحقائب الدانتيل وصناديق الحلي، برسم البيع في سوق البرغوث، وقام تاجر كتب بشراء مجموع الكتب والصحف القديمة والخرائط والتقاويم. احتفظت فقط بخريطة موريشيوس القديمة من مقياس 1/ 25000 المطبوعة من قبل «ديسكور» عام 1875 على قماشة مصفّرة ملفوفة على قطعة من قصب البامبو. على هذه الخريطة كان يمكن رؤية قطع الأراضي وأسماء مالكيها ومصانع السكر القديمة. وبالطبع استطعت رؤية ألما مقرونة باسم عائلة فيلسن. احتفظت بها ليس بدافع الحنين، بل لأن التقسيم الدقيق وتظليل المرتفعات كان بإمكانه أن يعينني في بحثي عن الطائر المنقرض، ولأن بعض هذه الأسماء والأماكن كانت الشواهد الوحيدة على هذه القصة. لقد وجدت فيها أماكن الغابات والوديان والمستنقعات، وكان بإمكاني وأنا مستند على الخريطة أن أتخيّل الطائر الضخم الذي لا يطير وهو يركض في الأدغال، تخيّلت نفسي حتى وأنا أسمع صوته أو صراخ الخطر الذي يطلقه وهو وحيد يهاجمه مفترسون بلا رحمة. قمت بتعليق الخريطة في غرفتي في المدينة الجامعية، وجلبت معي

حصاة الحوصلة عندما كنت أتابع الدروس في متحف التاريخ الطبيعي، فقد كانا أبرز مقتنياتي المفضّلة. عرضت الحجر يوماً على صديقتي كلارا، حملته بيديها السمراوين الصغيرتين، فراح يلمع ببريق يملؤه الشباب، أظنّ أن كلارا كانت أول من لمس هذا الحجر منذ وفاة والدي. انفجرت كلارا ضحكاً، كما لوكنت أقول لها نكتة، حين أخبرتها بأني سأذهب إلى جزيرة موريشيوس لأكتب أطروحتي حول حجر الحوصلة هذا. حتى إنها علّقت قائلة: «يا لك من سعيد حظّ، ستقضي أوقاتاً ممتعة على شواطئ الجزر!». الكثير من الناس في ذلك الوقت كانوا يظنّون أن هنالك عدة جزر موريشيوس. لم أقترح عليها أن تأتي معي ولم أضطرّ لتبرير ذلك. لم أكن لأرغب في أن أخبرها عن الغابة والوديان والنهر الأسود والمستنقعات الطينية في المرتفعات والجبال التي يغطّيها الضباب. جمعت أوراقي والنقود وجهّزت حقيبتي دون أن أنسى إحضار ناموسية وحبوب أوزون لتطهير ماء السيول. لففت الخريطة ضمن أنبوب ووضعت الحجر الأبيض في حقيبتي، ثم انطلقت.

لامار أو سونج (مستنقع الأحلام)

بدأتُ من البداية. لم أكن أعلم شيئاً غير ذلك الذي قرأته في الكتب ولم أتخيّل شيئاً. بدايةً، كنت أحمل حجر الحوصلة في يدي كحجر ألماس، ورحت أمشي وسط حقول القصب باتجاه «سافينيا» و«لاباراك» و«لوشالان». أسير على خطا والدي، لأستعيد زمن طفولته حين جازف بالمشي وحيداً بين عيدان القصب المقطوعة، تحت شمس حارقة، وعثر على هذا الشيء الأبيض الذي يشبه البيضة في وسط كومة قشّ. أنا بالطبع لا أبحث عن شيء، فليس من السهل أن يُعثَر على شيء بهذه الأهمية مرّتين. التربة حمراء وجافة أخذت شكل ندبات لم أستطع تسويتها بنعل حذائي الرياضي. لسنا في فترة الموسم، فما يزال القصب منتصباً، وأطول مني، مستقيماً وحادّاً، وعندما تهبّ ريح البحر على أوراقه يُصدر صريراً معدنياً. أسير منحنياً للأمام، حاملاً حقيبتي على بطني وخافضاً مقدمة القبعة على عينَيّ. لا أعرف إلى أين أتّجه، حقول القصب تمتدّ إلى اللانهاية كبحرٍ من الخضار، والسماء زرقاء زرقةً صارخة، بنفسجيّةً تقريباً. كنت أتوقف من وقت إلى آخر كي أشرب جرعة ماء فاترة من القارورة البلاستيكية. كانت الشمس قد وصلت إلى كبد السماء وأشعّتها باتت حادّة. من الصعب تحمّل رائحة القصب والقشّ الذي يتخمّر أسفل عروقها مطلِقاً رائحة بول وسكر.

كلّ ذلك يمتزج مع رائحتي أنا أيضاً، العرق يسيل على عيني ورقبتي، وأشعر بقماش قميصي يلتصق بجسدي. أين أنا؟ أهذا هو المكان أم إنه أبعد قليلاً؟ أين وجد والدي الحجر؟ لم يقل لي قطّ اسم المكان، قال فقط إنه وجده في مكان بالقرب من «ديزير» على الطريق المؤدي إلى «شالان». كان ذلك منذ زمن بعيد، لكن لا شيء تغيَّر هنا. أوصلتني سيارة الأجرة إلى بداية طريق المصنع، وسلكت مباشرة طريقاً متعرّجاً وضيّقاً ضمن حقول القصب أفضى بي بعد هنيهة إلى المزرعة. كنت أسير بلا هدف في هذا المحيط ذي اللون الأخضر الزنجاري.

هنا في وسط القصب، ليس للزمن وجود. أستطيع تخيّل هذا المكان تماماً كما كان قبل ثلاثمئة وعشرة أعوام، عندما كانت طيور الدودو تعيش هنا أيامها الأخيرة. ما من شكٍّ أنه كان هناك غابة كثيفة مكان حقول قصب السكر، مؤلّفة من أشجار الأبنوس وأجمات من نباتات شائكة، وربما من بعض القصب أو من أحواض أعشاب طويلة حيث كانت الطيور الضخمة تركض شادّة أعناقها للأمام. الحرارة هي ذاتها، كما هي نفحات الهواء الرطب التي تحمل رائحة البحر، ومن وقتٍ إلى آخر، سحابات ضبابٍ هابطٍ من سماءٍ لا مرئية، تلسع قطراته الباردة وجهي. لا بدّ أن القطرات الدقيقة كانت تعلق على ريشها المجنون، تبلّل مناقيرها وتجعل آثار أقدامها ثلاثية الأصابع على الأرض تبدو لامعة. كانت تتوقف من وقتٍ إلى آخر، بلا حراك، متصلّبةً كالزواحف، لتتابع عَدْوها دون سببٍ واضح. أتابع مسيري الآن بطريقة المشي نفسها، منحنياً إلى الأمام، العنق منقبض قليلاً في مواجهة الريح، عيناي نصف مغلقة ويداي في جيوبي كي لا يجرحني القصب بنصاله. أسير كيفما اتفق، باتجاه الشمس المشرقة. أعلم أن البحر في نهاية الطريق. أتوقف لبضع لحظات لأسمع صوت أمواج

البحر، لكن لا يصلني سوى حفيف الريح. لم أعد أنظر نحو الأسفل، فلم أعد أبحث عن شيء. لقد فعلت القرون فعلها، قلبت الأرض وحتّتها وسوّتها وما من أثر يمكن له أن يبقى. لا شيء يستطيع مقاومة الأعاصير والسيول القادمة من أعالي الجبال بعنف نهرٍ فائضٍ. دبَّ فيّ التعب في لحظة ما بسبب الشمس والريح، جلست وسط القصب أحتمي بظلّ أوراقه النحيل. ما زلت أحمل الحجر المدوّر في يدي اليمنى. أخذت أفكر: أين أنت يا دودو؟ رحت أصيح باسمه لأنه، كما يقال، يتماهى والصوت الذي يصدره الطائر: هديلٌ عريضٌ ومدوٌّ كصوت تدحرج الصخور في الوادي، أو كصوت قرقعة الحجر الأبيض في حنجرته ربما: دو دو دو دو دو!... أنتظر منحنياً للأمام، سانداً جبهتي على ركبتي. لا أعلم ما الذي أنتظره، أنتظر هذه اللحظة منذ زمن، منذ طفولتي. أسند الحجر الأبيض على وجنتي وأغلق عينيّ. شيء ما قديم جداً ولج داخلي عبر أديم وجهي، عبر الجفون المغلقة، شيءٌ ما يغذّيني ويجري في دمي، يعطيني اسمي ومكان ولادتي وماضيّ، يمدّني بحقيقة... تهزُّ الريح أوراق القصب، فترتطم بعضها بالبعض الآخر مصدِرةً صريراً ميكانيكياً، تصلني ريح البحر، التي سخّنتها الأرض الجافة، لاذعةً وحامضة. كيف استطعتُ التعرّف على هذه الرائحة؟ لقد كانت قابعة في داخلي منذ الأزل، ورثتها من أبي ومن جدّي «أليكس»، ومن كل أجيال عائلة فيلسن الذين تعاقبوا على هذه الجزيرة منذ المهاجرين الأوائل، «أكسيل» وزوجته «ألما». رائحة لحمهم وأجسادهم هي نفسها رائحة لحمي وجسدي.

في تلك اللحظة، ملأ السماء هديرٌ اهتزّت له الأرض. أدخلت رأسي بين كتفيّ كطائرٍ فزعٍ سمع زمجرة مفترسٍ مجهولٍ أو صوت قذيفة مدفعٍ أُطلقت في البحر. مرّ ظلٌّ طويل ببطء فوق القصب، طائرة جامبو أقلعت للتو بجناحيها المفرودين وجسمها الذي يعكس الضوء، حاملةً شحنتها من

السيّاح. أظن أني أستطيع سماع طقطقة أضواء الكاميرا ضمن المقصورة. مرّت الطائرة بثقل وارتفعت بمشقّة فوق «بليزانس» قبل أن تغيّر اتجاهها نحو المحيط.

وصلت إلى محيط «لامار أوسونج» قبل حلول الليل. واجهت صعوبة في إيجادها على الرغم من أني تبعت الخريطة. اضطررت إلى الصعود من أسفل وادٍ مليءٍ بالأجمات، وأن أمرّ عبر غابةٍ من أشجار الأبنوس والنخيل، وعبر دربٍ ترابيّ ضيّق يحمل علامات إطارات جرّار زراعي. بحثت عن الماء، لكن ما كان من المفروض به أن يكون مستنقعاً، لم يكن سوى دائرةً من الأعشاب والقصب تحيط بها الغابة. في هذا المكان، في عام 1865 وجد المدعو «روي»، رئيس العمال في أراضي «كاستون دو بيسي»، العظام الأولى بالمصادفة، بينما كان عماله يستخرجون من المستنقع كتلاً من الطمي، تلك المكعبات المكوّنة من صلصالٍ مائلٍ للسواد ممتزج بنباتاتٍ متفسخةٍ تُستعمل في الزراعة. كان العمال الهنود يربطون قماشةً على أفواههم كي لا يستنشقوا رائحتها العفنة. في ذلك الزمن، كان ما زال هناك ماءٌ في المستنقع وكان العمال يخوضون فيه بأرجل حافية، مرتدين لباسهم الهندي التقليدي فقط، وجلدهم الأسود يقطر عرقاً. ظهرت بقايا العظام على الفور، أعلن أحد العمال عن الاكتشاف: «يا سيد روي، لقد وجدنا عظاماً هنا»(*). قام العامل بجلب قطع الطمي التي تظهر فيها العظام البيضاء على الطين الأسود لـ«روي» كي يتفحصها. بدت له البقايا على شكل هيكلٍ عظمي لطائر، لكنه طائرٌ غير مألوف لضخامة قفصه الصدري وأضلاعه وفقرات ظهره. بانت بعد ذلك عظام الأرجل، طويلة وغليظة لدرجة تجعل من غير المعقول أن تكون عائدةً لطائرٍ بحري أو لنورس

(*) باللغة الكريولية في النص.

نفق هنا بسبب عاصفة. بعد أن غُسلت بماء عذب كان العمال قد أحضروه للشرب في صفيحة، ظهر على العظام لونٌ غريب، لونٌ أسود تتخلّله عروق زرقاء تتناقض وبياض الأضلاع. هذا اللون يعود لحيوان قديم انقرض منذ قرون. بعد أن بُسِط على العشب بالقرب من المستنقع، راح الهيكل العظمي يلمع لمعاناً غامضاً يمكن أن يوصف بأنه مثير للرهبة. تجمّع العمال حوله وراحوا ينظرون إليه من دون أن يستوعبوا. استدعى روي، معلّم المدرسة، كلارك، الذي كان يقوم بدراسة ساحل «ماهيبورغ»، والذي وصل راكباً عربة تجرّها الخيل بعد أقل من ساعة على حصول الاكتشاف. جفّت كتل الخث النباتي والرواسب الطفالية وباتت تشبه بلاطات مقبرة. جلس «كاستون دوبيسي» و«روي» وبعض العمال تحت شادر يصفق عند هبوب الرياح، في حين كان الرجال الآخرون ينتظرون الأوامر بمعاودة العمل في استخراج الطمي، لكنه كان من الجليّ أن اكتشاف هذا الطائر الغريب الخارج من الأعماق قد جعل أيَّ انشغالٍ آخر بلا أيّ أهمية. قال كلارك: «يا عزيزي ما استخرجته هو بكل بساطة "رافوس كوكولاتوس"، جدّ الجزيرة، الدرونت الشهير أو دودو، كلاهما يصلحان». ركع كما لو كان أمام ضريح، وراح يتعامل بحذر مع العظام الطويلة، يحركها ويعيد تموضعها بشكل مختلف حتى بان هيكل الطائر العملاق ممدّداً على الأرض كما لو أنه بدأ للتو رقاده الأبدي. قال: «من المؤسف أن ينقصه جزءٌ من الرأس والفكّ السفلي. لولاها لكان يضاهي هيكل أمستردام أو أوكسفورد».

بعد أن استفسر بدقّة عن المكان الذي وجد فيه العامل العظام، خاض كلارك في المستنقع دون أن يعير انتباهاً لبنطاله القطني الأبيض، وراح يسبر القاع برفش. بعد هنيهة، أخرج الرفش إلى السطح قطعة من الطين على شكل كرة مسطّحة، أصبحت، بعد غسلها وتنظيفها وتنشيفها، أعلى

جمجمة تنتهي بمنقارٍ ضخم وثقيل يشعّ منه لمعان الأعماق الأزرق المائل للسواد. قام كلارك، الذي بانت عليه شدة التأثر، بوضع الرأس في نهاية خط الفقرات، فظهر، للمرة الأولى تحت شمس الظهيرة الحادة، الهيكل المكتمل لهذا الطائر المخيف والمألوف الذي يستند على قوائمه ذات الأصابع الثلاثية المسلّحة بمخالب. لا بدّ أنه كان ينتظر هذه اللحظة التي يكون فيها ميتاً ومنبعثاً على حدٍّ سواء.

«بحثت عنه طوال حياتي في الجبال، وإذ به يرقد هنا على بعد خطوتين من البحر».

أصبح «لامار أو سونج» في الأيام اللاحقة مسرحاً لهيجانٍ حقيقي، فقد قام العمال الهنود وأرباب العمل والفضوليون من الجيران بالدخول في المستنقع حتى الجذع حُفاة الأرجل حتى يستطيعوا أن يتحسّسوا بالشكل الأمثل نتوءات العظام المختفية في قعر البحيرة.

حلَّ الليل في الغابة. لم أستطع الابتعاد عن المكان. أخذت أبحث عن مخبأٍ على الطريق الحجري الذي يؤدّي إلى أطلال معمل السكر وفرن الجير، مررت مجدداً عبر حقول القصب ووصلت إلى أجمة من شجر السنط العربي. بتُّ الآن على مقربةٍ من الشاطئ لا يفصلني شيء عن البحر، فالساحل عبارة عن جرفٍ صخري حادّ أستطيع أن أسمع منه صوت تكسّر الأمواج على الصخور السوداء بوضوح. لم يكن الطائر العملاق ليقترب من هنا، فكلّ شقٍّ وكلّ صدعٍ هو فخّ قد يودي بحياته. ما زال الجوّ خانقاً ومشبعاً بالرطوبة على الرغم من الريح. أستطيع سماع قارب «السوفلور» وهو ينفث غمامته المتقزحة اللون من حين إلى آخر، مُصدراً صوتاً يذكّر بجهنم أكثر منه بالشواطئ الغريبة. الطيور الوحيدة الموجودة هنا هي النوارس المعلّقة في الهواء وأسراب من الغاقة القزمة التي تطير

على مستوى البحر متجهةً نحو خليج «ماهيبورغ». في أحد الخلجان، شاهدت البحر المظلم المبرقَع بالزبد. قبل أن يحلَّ الظلام بقليل، شاهدت سفينة شحنٍ تمرّ في عرض البحر على طول الأفق، ثم تتوقف، كانت تبدو بصعوبة مضاءةً بمنارة تومض في مقدمتها، فتذكرت ما كان يحكى عن سفن الشحن الصينية أو الهندية التي كانت تفرغ فضلاتها بالقرب من شواطئ موريشيوس دون أن تخشى أيَّ ملاحقة. ما زلت أفكّر بالدودو، ربما صادف أن ركض على الشاطئ، فطوت الريح ريش ذنبه المضحك. أظن أن السفينة الأميرالية الهولندية قد اقتربت من هذا الشاطئ وهي تبحث عن ممرّ للدخول إلى الخليج الكبير في الجنوب الشرقي، فأدرك الطائر، للمرة الأولى، أنه قاربَ على الانقراض، وأنه لم يعد له مكانٌ في هذا العالم، حيث توجد شياطين مسلّحة ببندقيات «ترمبلون» وعصيّ، وسوف يقتلون المئات منهم حتى لا يبقى من أجسادهم سوى العظام. لا مكان له في عالم تكون الشواطئ فيه مجتاحة من كراتٍ صغيرة دبقة سوداء، عالم تحمل فيه الأمواج القادمة من الجانب الآخر من الأرض حملها من أكياس البلاستيك والقوارير القديمة. أو ربما لم يستوعب شيئاً ولم يتخيّل شيئاً، بل هي الطبيعة التي لا ترحم من تكفّل بالباقي.

لا لويز

كنت عندما أشعر حقيقة بالألم في قدمَيّ، أستقلّ الباص المتوجّه إلى «روز هيل» والذي يصل حتى «بو باسان»، ويتوقف في ساحة البلدية حيث توجد بقايا المسرح الكبير. كان بإمكاني في السابق الصعود إلى الباص بلا بطاقة، إذ كان السائق يقول لي: «أهذا أنت سيد دودو؟»(*)، فأركب دون أن أدفع لأن الكل يعرفون «دودو فيلسن كو دو روس». أجلس في المقدمة بالقرب من المحرك مادّاً رأسي من النافذة المفتوحة لأشعر بالريح وأشاهد المناظر. السائقون الآن حديثو العهد في هذه المهنة، فإن لم أدفع فلا يسمحون لي بالركوب، فهم لا يعرفون من أنا ولا يعبؤون بآل فيلسن، ولا بألما، ولا بكلّ تلك القصص القديمة. بالنسبة لهم أنا مشرَّد، حطام شخصٍ مهلهل الملابس، ينتعل حذاءً لا يناسب مقاس قدمه ويشدّه بحبلٍ عوضاً عن رباط. أدفع ثمن البطاقة حين يكون في حوزتي بعض القطع النقدية، أو أطلب من الناس الواقفين في الطابور إعطائي بعض الروبيات كي أدفع بها ثمن الركوب. لا أتحمّل عناء الطلب من الشبّان، إذ إنهم سيشتمونني ويستهزئون بي. قام أحدهم يوماً بضربي موجِّهاً لكمةً إلى صدغي آلمتني لعدّة أيام. لم أردّ عليه، فما الفائدة من العراك؟ في السابق، منذ زمن طويل،

(*) باللغة الكريولية في النص.

كنت قادراً على العراك، فقد كانت ذراعاي قويّتين، أستطيع تحطيم الحصى بهما. كانتا قويتين لأني كنت أعزف على البيانو قبل أن أمرض. أما الآن فأنا لم أعد قادراً على العزف ونسيت كل شيء. كنت أسأل الواقفين في الطابور، المتقدمين بالعمر من الرجال وأيضاً من النساء. أقول بلطف: «عذراً سيّدي، أو سيّدتي، لقد نسيت محفظتي فهل تساعديني في دفع ثمن التذكرة؟». لا يمكن اعتبار ذلك تسوّلاً، فأنا لم أتسوّل قطّ في حياتي وأشعر بالخجل من التسوّل. ما أقوم به هو الطلب بكل لطف وهدوء كما علّمني والدي في المنزل. أقول: «أنا محرَج». أحبُّ أن أقول هذا التعبير الذي لا يعرفه الناس، ولكنهم يدركون أنه من باب اللطافة ويستحسنونه. غالباً ما يقومون بإعطائي بضع روبيات أو بضعة قروش، ما يكفي لشراء التذكرة أو النصف. بعد أن يسير الباص أقوم بمعاودة المحاولة مع الواصلين الجدد إلى الطابور. في أحد الأيام قام رجلٌ يرتدي بدلةً رماديةً وينتعل حذاءً ملمّعاً بإعطائي مئة روبية قائلاً لي: «خذ، اذهب واشترِ لنفسك وجبة غذاء من عند الصيني». شكرته لكني لم أذهب إلى مطعم المناجم، لأني أتناول طعامي يومياً لدى السيدة هونورين في شارع «سان بول». اعتقدت بأن هذا الرجل يعرفني، فقد نظر إليّ قائلاً: «ليحفظنا الربّ!» بالإنكليزية: «God have mercy!». لا أعلم ماذا يعني بذلك، ربما قالها حتى لا يصاب بالمرض الذي يلتهم أنفي وحاجبي.

أحبُّ السفر بالحافلة. مشاهدة التلال والقرى والناس. لم يعد هنالك أحد في ألما، وهذا محزِن. لم يعد أحد يأتي لزيارة أبي مؤخراً، الأمر الذي عزته العمّة ميلو لكونه مريضاً ومفلساً. لم يبقَ سوى أرتيميسيا العجوز. ها هي ذي تجلس على كرسي أمام منزلها عند مدخل الباحة، تدخّن وهي تنظر إلى الشارع على الرغم من أنها لم تعد ترى سوى الغباش ووميض الضوء. كنت أخرج أحياناً مع العم جان باتورو، هو ليس عمي الفعلي

بل صديق طفولة والدي، وكان يأخذني بالباص إلى «بور لويس». كان وجهي كاملاً عندذاك، لم أكن مصاباً بعد بمرض السيجما الكبيرة. أما الآن، فالناس يُشيحون بعيونهم حين يصادفونني أو يحدّقون مليّاً بي، فأشعر بنظراتهم تلاحقني من خلف ظهري. يخاف الأطفال من مظهري ويبكون؛ أما الفتيات فيجفلن قائلات: «آه، يا أماه!». آلمني ذلك لوقتٍ طويل وكانت تنتابني الرغبة بالقول لهم: «هذا ليس خطئي، إنه المرض! أنا لست بمِسخ!»، لكن منذ فترة، ودون سبب واضح، أصبحت لا أبالي، بل أصبحت أستمتع بإخافتهم، إذ أقوم بالنظر بعينيّ الخاليتين من الجفون وأكشّر بفمي راسماً ضحكة شريرة. كما أني أعرف حركة لا يراها الناس في أيّ مكان آخر: أمدّ لساني ما استطعت على خدّي حتى يصل إلى عيني، تماماً كما تفعل السحلية. إنها حركة تساعد في حصولي على الإكراميات. أتوجّه أيضاً بالطلب إلى شخص ما بلطف وبصوتي الحادّ، فيتراجع الناس ويضعون أيديهم في جيوبهم ليعطوني روبيات، كي لا أقترب أكثر.

أرغب في أن يكون لي منزلٌ جميل ونظيف مع أولاد يلعبون ويضحكون في الباحة، مع عصافير تغرّد على الأشجار، وقطّة وكلب، ليس كالكلب الأصفر الذي ينبح حين يراني، بل كلبٌ أسودٌ ذو وبر طويل ينام واضعاً أنفه بين أقدامه، ودجاج وديوك حبشية أيضاً. أرغب في أن يكون لي زوجة حسناء ولطيفة تملك عينين جميلتين مثل عيني أمي لاروس. ما زلت أذكر وجهها قبل أن تموت، وشعرها الأسود المجعّد، وعينيها اللتين تلمعان كالذهب.

أرغب في أن أسكن منزلاً في «فيو كاتر بورن» أو في «تربوليه»، وليس في ألما الخرِبة قبل أن يُهدم كلّ شيء، منزلاً أبيض أسمنتياً تحيط به الأشجار والكثير من الزهور، فأنا أحب الزهور كثيراً. أرغب في مكان أجد

فيه الراحة، مكان يكون لي وحدي لا أتشاركه مع أي أحد آخر. لا أرغب بمنزل كريه الرائحة ويعجّ بالصراصير كمنزل «هونورين» في «سان بول»، بل منزلاً جديداً مع باحة نظيفة حيث أستطيع أن أستلقي تحت الأشجار وأستمع لصوت العصافير وأتأمل السماء في المساء. سأنتظر عودة الأطفال من المدرسة وأُحضّر لهم العصرونية من بقايا الخبز والفواكه كالبطيخ الأصفر والبابايا، لأنه ليس هنالك أفضل من الفواكه للأطفال. لكني أعلم أن كل هذا ضرب من الخيال، فأنا آخر سلالة فيلسن. لقد ماتوا كلّهم ودُفنوا جميعاً في مقبرة «سان جان» أو في المقبرة الغربية في «بور لويس» كما هي حال «أليكس» الذي قدم مع زوجته «ألما» بعد الثورة الفرنسية. أقرأ أسماءهم على شواهد القبور، أقرأ اسم أبي وماما لاروس واسم العمّة ميلو الذي حُفر بجانبه تاريخان: «ماري لويز فيلسن» 1901-1975. لا يوجد مكان لي في المقابر، فقد امتلأت ولم يعد هنالك مكانٌ لوحشٍ مثلي. عليهم أن يحرقوا جثماني.

ليس لديّ أيّ شيء من كلّ هذا، لكن لديّ «لالويز». في لالويز أنا في بيتي. أستطيع أن أبقى هناك لساعاتٍ جالساً على جانب الحائط، أراقب كل ما يمرّ أمامي من شاحنات تصعد الطريق باتجاه «بالما» نافثةً غمامة من الدخان الأزرق، ودراجات نارية وعجلات وطوابير سيارات بمحركات ساخنة تحاول تجاوز التقاطع. أسمع الزمامير والشتائم. منهم من يذهب باتجاهٍ مستقيم نحو «كاتر بورن» أو «موكا» أو «روزهيل» أو «بو باسان»؛ ومنهم من ينعطف يميناً باتجاه «كاندوس» أو «فاكواس»، أو إلى المرتفعات «كفلورال» و«كوربيب». منهم من يسلك جادة نهرو باتجاه «كانز كانتون»، ومنهم من ينعطف يساراً متجهاً نحو أحياء «كور دو غارد» مروراً بـ«برتود». الشمس تشعّ بقوّةٍ جاعلةً الظلال قصيرة المدى. يصبح الهواء لطيفاً بعد الساعة الثانية ظهراً، إذ إنه يدور كدوامة بين الجبال

ويعصف في كلّ الطرقات. من حيث أقف، لا يمكنني رؤية «بيتر بوث» ولا «لورامبار» ولا الأشجار، لا أرى سوى الطريق الإسفلتي والسيارات والمشاة، ذلك التيار المستمر منذ الصباح حتى المساء. أرى نساءً مع أطفالٍ متكئين على الحواجز ينتظرون حافلةً أو سيارة أجرة، وهنالك رجال الأعمال في سياراتهم المصفحة المتجهة نحو البحر، والبائعون الجوّالون الذين يدفعون عرباتهم. بينما يتجوّل العاطلون عن العمل والمتسوّلون مثلي دون هدف ويجلسون أينما استطاعوا، على سورٍ منخفض أو على أدراج المحلات الكبيرة أو على الرصيف، متكئين على أعمدة الكهرباء، فيستعجلهم الناس ويدفعونهم. يزعق المارة وينادون بعضهم البعض. كنت أذهب إلى «لالويز» كل يوم لأنتظر. أنتظر ماذا؟ سألتني العجوز هونورين: «ماذا تتأمل من الانتظار؟»(*). لا أتأمل شيئاً، أنتظر أن يمرّ كل شيء. الشوارع كالأنهار تحمل كل ما يخطر على البال من أشياء: حطام، بقع ملونة وأطياف. وأستمع إلى كلّ أنواع الضوضاء كأصوات الأسماء التي ينادى عليها: رمزي، رمزامي، رادجا، لولو، أليو، مارجينيز، لابادي! لكن لا أحد ينادي اسمي قط، فيلسن كو دو روس. لا أحد ينادي أبداً هذا الاسم. المرض الذي يلتهم وجهي التهم اسمي أيضاً.

كنت أحبُّ «لا لويز» لأنه تقاطع طرق الأحياء. هناك في الأسفل كلّهم أموات، في «فليك إن فلاك» و«بيل مير» و«بلو باي» و«غران باي». لقد توقفوا عن الحراك وعن الكلام وعن إصدار الضوضاء. لقد انعزلوا بأنفسهم خلف جدرانهم المرجانية، في مخيّماتهم، في فُلَلِهم وشققهم. يمضون وقتهم في فيء شرفاتهم يحتسون الشاي بالحليب، ويأكلون حلوى النابوليتان على طاولاتهم المصنوعة من قصب الروتان. لا يخرجون وقت

(*) باللغة الكريولية في النص.

الظهيرة كي لا تحرقهم أشعة الشمس ولا يخنقهم دخان عوادم الشاحنات. لا يمرّون أبداً من هنا. تخيفهم «لا لويز»، فبشرتهم لم تشوِها أشعة الشمس والقطران، ووجوههم لم يلتهمها شيء. لا أحد يعيرني انتباهاً هنا، فقد أصبحت جزءاً من هذا الديكور، ببيوته المهدمة وهياكل الشاحنات التي أكلها الصدأ. أجلس مستنداً على عمودٍ في محطة الوقود «أنديرا» وأثني رجلَيّ، فلا يعود أحدٌ ينظر إليّ. أتنقّل من وقتٍ إلى آخر، كأن أذهب إلى مخزن «آه فونج» من ناحية بومباي. في هذا المحل الخشبي نصف المغلق، والذي يسمّونه فندق «ديتيه»، أقوم بشراء عصير أو شاي بالفانيلا. ثم أذهب في الاتجاه المعاكس بجانب شركة «شامين» للمنسوجات، أو أتابع المسير حتى مطعم «آه شوي سوبر مين»، أو أبعد قليلاً حتى «لا تافيرن سينوا». أحياناً أذهب باتجاه الأبنية الحديثة كـ«بودوم ستور» و«كينغ دراجون». إن كنت أملك بعض النقود، أذهب إلى سينما «ب. د. س» لمشاهدة بروس لي، وأبارما سين، وكاريشنا كابور، وعايشة راي. لا أحد يستطيع منعي من الذهاب هناك، فالقاعة معتمة ولا أحد يحدّق في أحد. لكن السينما تكون مغلقة في مثل هذا الوقت، فأجلس على الأرض متكئاً على الحائط، وأنتظر بداية عرض الأفلام. تلبس الفتيات العائدات من المدرسة الإعدادية تنانير زرقاء غامقة وقمصاناً بيضاء، ويمشين ضمن مجموعات من خمسٍ أو ستّ على الرصيف. أرجلهن سمراء جميلة تلمع تحت ضوء الشمس. يتكلمن كثيراً وبسرعة كبيرة، يضحكن ويصرخن مصدراتٍ أصواتاً تشبه أصوات العصافير الصغيرة. أرى أثداءهن تحت القميص وبقع العرق تحت الذراعين. ينتعلن أحذية من دون كعاب، أو صنادل بلاستيكية لا يربطنها. يتجهن نحو «كاندوس» ويصعدن إلى الحافلة أثناء مسيرها، فالحافلة لا تتوقف تماماً، بل تبطئ قليلاً فتقفز الفتيات داخلها ضاحكات. ثم أراهنّ داخل مقصورة الحافلة التي سخّنتها

أشعة الشمس وهن يقمن بإخراج رؤوسهن من النوافذ. لا أعرفهن ولن أراهن مجدّداً أبداً. لا تمرّ عائشة زين من «لا لويز»، فهي تذهب مباشرة من «سان جان» إلى «كوربيب». إن أردت رؤيتها عليّ الذهاب إلى الكنيسة وانتظار مجيئها. إنها حركة مستمرة ذهاباً وإياباً.

النمل في ألما يسير على طول الجدران وفي وسط الحدائق وفي أخاديد الطرقات، حاملاً معه أوراق شجر ممزّقة وقطع قشٍّ وفتات طعام. أمضي وقتاً وأنا أشاهدها تمشي، وأضع العوائق في دربها محاولاً أن أضيّع بوصلتها، لكنها تجد طريقها دائماً بعد أن تلتف حول العائقِ أو تصعد من فوقه. لا أذهب كثيراً إلى ألما، فلدخولها عليّ أن أمرّ عبر حفرةٍ في السور. أذهب لأراقب النمل لكنني لا أستطيع البقاء طويلاً، لأن «لامي» الحارس لا يرغب برؤيتي هنا. يقوم بملاحقتي ورميي بالحجارة. يصرخ عليّ قائلاً: «انقلع![*] أيها الجرذ! إن أمسكت بك فسأقوم بضربك بالحزام!». لامي ليس سوى مشرّدٍ عاطلٍ عن العمل، وظّفته عائلة أرماندو بعد أن استقرّت في المنزل الكبير كي يحرس الأرض. في السابق كانت أرتيميسيا تعيش في منزلها الصغير في عمق المكان. كنت أستطيع الدخول حين أريد، كان بإمكاني الاقتراب من المنزل الكبير حتى وأن أجلس في ظل أشجار الكينا؛ أما الآن فقد أصبح عليّ أن أمرّ من الحفرة. أذهب إلى هناك في بداية فترة ما بعد الظهر حين يكون الجميع غاطّاً في قيلولته، أو في أيام الآحاد صباحاً حين يكونون في كنيسة ألما للصلاة. أحبُّ كثيراً كنيسة «سانت جان دارك» الصغيرة البيضاء كلياً بنوافذها الكبيرة وشرفتها والنخلة التي تنتصب بجانبها. في السابق كنت أذهب إلى القدّاس مع أبي، وأقوم بالتقاط أكواز التمر الهندي كي أمصّ ثمرها الحامض. أليس من حقّي أن أنظر

(*) باللغة الكريولية في النص.

إلى الأشجار؟ هي موجودة هنا منذ أن كان أبي يعود من المدرسة ومن قبله جدّي، هي موجودة هنا منذ الأزل وستظل هنا بعد مماتي. لكني لا أريد الشِّجار مع لامي. يملك لامي كلباً جميلاً لونه أبيض وبنّي، وذيله مقصوص، لا ينبح عليّ. حين أتسلّل إلى الداخل يأتي لملاقاتي ويهزّ طرف ذيله. أرمي له قطعة خشبية فيركض لالتقاطها وجلبها لي. لا أعرف ما اسمه، فأطلقت عليه ببساطة اسم «الصديق»، اسم لا يشبه اسم أبيه. الناس في ألما لا يعرفونني، يظنّون أني مشرّد. لا أحد يعرفني هنا سوى الكلب. لا تصدِّق عائلة أرماندو التي تسكن في ألما حالياً أني ولدت هنا، فهم شرّيرون. في أحد الأيام، وبينما كانت أرتيميسيا في سوق «سان بيير» بصحبة هونورين، قاموا بإرسال الجرافات كي تهدم بيتها الصغير بكل ما فيه. عندما عادتا، صرختا وبكيتا، لكن لم يبقَ شيء. قامتا بالبحث بأيديهما بين الحطام لعلّهما تجدان شيئاً، فلم تجدا سوى فنجانٍ معدنيٍّ قديم ودمية برِجلٍ واحدة، هذا كلّ ما وجدتاه. قامت هونورين بأخذهما وبوضعهما على الطاولة بجانب السرير في منزلها في «سان بول لا كافيرن». ما فتئت عائلة الأرماندو تردِّد على مسامع هونورين إن على أرتيميسيا الرحيل. لم تستمع لهم فكانت هذه هي النتيجة. الآن حين أذهب إلى منزل هونورين، أرى الفنجان المعدني الأبيض ودمية أرتيميسيا القديمة، فأدرِك أن هذا كل ما بقي من ألما وكل ما بقي من عائلة فيلسن كو دو روس.

أذهب إلى «لا لويز» كل يوم لأن الطريق القادم من ألما يمرّ فيه. كل القادمين من المرتفعات عليهم المرور بـ«لا لويز». وجودي هنا يشبه العنكبوت الذي نسج شبكته بين النباتات، أستطيع الإحساس بكل الاهتزازات التي تنبعث عبر المدينة والآتية من الجبال، ومن حقول القصب والشاي ومن قرية إلى أخرى ومن منزل إلى آخر حتى تصل إلى هنا. الكلّ يمرّون من هنا: عائلات اللامي ومالوري وليونيل وسالوست ورامزامي

ورامشتي، ألوا مساعد رئيس البلدية وفيفيك سائقه، الشباب الذين يأتون لانتظار الحافلة، والراهبات العائدات من حملات التلقيح، وحتى جوا زاك الذي يعمل بتهريب الأمفيتامين والجاندجا، وحتى عائلة الأرماندو بسيارتهم ذات الدفع الرباعي. جميعهم يمرّون في وقتٍ ما من هنا، بينما أكون أنا جالساً في الظل متكئاً على عمود في محطة وقود أنديرا، وأقوم بمشاهدتهم.

كريستال

رأيت كريستال للمرة الأولى في مخيّم «دونج سو». كانت نافذة الحمّام في نزل «لاروش أو مويت» تطلّ على حديقة الصيني، وعلى حدود المخيّم حيث توجَد غرفة النوم. إنها عبارة عن شقّة تؤجّر لمدة عام، هذا ما قالته لي مسؤولة الإيجار، السيدة «فوف (الأرملة) باتيسون». ويبدو أن الطيّارين المدنيّين يفضّلون هذا النزل على فندق المطار لأنه، كما يدّعون، أهدأ. يأتون عند الصيني في الحقيقة، لأنه ما من أحد يتدخّل بهم هنا، حيث يستقبلون مومسات في غرفهم. بوّاب الفندق لا تغفل له عين، وإن سنحت له فرصة ابتزاز أحدهم فإنه لا يوفرها، كأن يأخذ صوراً في الخفاء ويرسلها لعائلة الطيار. الصيني أكثر تكتّماً حتى لو كانت المومس قاصراً.

رأيتهم عبر نافذة الحمّام. رأيت في البداية شخصاً في أواخر عقده الرابع، أصلع قليلاً، يلبس بدلةً كحلية اللون خاصة بالطيارين. كان واقفاً يدخّن على العشب المعثوث وهو ينظر شارداً إلى البحر. في لحظة ما، وصلت امرأتان كريوليتان ترتديان بنطالي جينز وقميصين قطنيين وتنتعلان شبشبين. إحداهن كانت أكبر عمراً بقليل من الأخرى وسمينة، لكن بالتدقيق والنظر تبيّن لي أنها متقدّمة في العمر، في حين كانت الأخرى يافعة جداً، طفلة تقريباً. راحت الأولى تتكلّم مع الطيار وتراجعت الشابة.

في حين كانت المرأة تتحدّث مع الطيار، رأيت الشابة وهي تتسلّى باللعب بكرة من الكاوتشوك فارغة من الهواء، كانت تركلها بطريقة آلية فترتدّ من على جدار المنزل مُصدرة صوتاً «فلوب» مثيراً للأعصاب، لكنها كانت تتابع ذلك من دون أن تعير الآخرين انتباهاً. استدارت المرأة الكبيرة نحوها في لحظة معيّنة، وصرخت بها قائلة بالكريولية أن تتوقف عن ذلك، ثم عادت لحديثها مع الطيار الذي كان يستمع إليها بملل. الفتاة يافعة جداً لكنها لم تعد طفلة، وجهها كان مدوّراً وعيناها كبيرتان وجسدها ممشوق ونحيل، رجلاها هزيلتان ويداها طويلتان. كانت تسند مقدّمة قدمها على الكرة الفارغة بنوعٍ من التخلُّع، وتنظر بخبثٍ بطرف عينها إلى المرأة والطيّار. كان ذلكً موقفاً غريباً وملتبساً قليلاً. لم أستطع الابتعاد عن النافذة وصرف نظري عن هذه الفتاة، أظن أنها رأتني في لحظة ما من خلال شرائح زجاج شبّاك الحمّام، أو أنها أحسّت بوجودي، لأنها أدارت ظهرها لي وتنحَّت يساراً، لكن مع اقترابي أكثر من الزجاج انتبهت أنها وقفت جانباً، ويبدو أنها هي أيضاً كانت تتجسس عليّ. شعرت بالعرق يسيل على ظهري وأخذ قلبي يخفق بسرعة، ربما لشعوري بأني أذنبت في شيء ما، لقد أحسست بالغضب لأنها كشفتني. همّت المرأة المتقدمة بالعمر بالانصراف، رأيتها تُدخل شيئاً ما في حقيبتها، لكن لم يتسنَّ لي الوقت لأعرف ما هو، فانتباهي كان مركّزاً على الفتاة اليافعة. أظنّ أنها قد تلقّت أوراقاً نقدية وأنها أخفتها في حقيبتها. أطفأ الطيار سيجارته ومشى نحو الفتاة التي كانت تنتظر عند ناصية المنزل. ضمّها حين وصل إليها، فبدت كغصن غضٍّ بين ذراعيه لما كان عليه من طول وقوة استمرّ في ضمِّها، ورأيته يغمس وجهه في شعرها ويشتمّ رائحتها، ربما ليقول لها كلمات لطيفة. كان للفتاة شعرٌ أسود حالك، غزير ومجعّد، يغطّي كتفيها ووجهها، مرَّر الطيّار يديه عبره مجدِّلاً إيّاه بأصابعه، كما مسّد عنقها

وكتفيها بحركاتٍ دائرية من أصابعه. ثم انفصلا ومشيا باتجاه المنزل، هو في المقدمة وهي تتبعه، ودخلاه. قبل أن يدخل، خلع الرجل بزّة الطيار، فبان قميصه الأزرق السماوي ذو الأكمام القصيرة وربطة عنقه السوداء. في تلك اللحظة تحديداً التفتت الفتاة نحو نافذتي لتُفهِمني أنها رأتني وأنها تعرف أني ما زلت هنا. كان نور الشمس يأتي من جهة اليمين، فلم أستطع تمييز تعابير وجهها، ولا سيّما أن خصائلها السوداء كانت تتطاير في الهواء وتغطّي قسماً من وجهها. وأنا متأكد، على الرغم من ذلك، أنها ابتسمت، وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بذلك. هو انطباعٌ تولّد لديّ لربع ثانية، كومضةٍ لمعت واختفت بسرعة. ربما كانت ابتسامة تهكُّم أو استفزاز، لا أعلم، لقد كانت حادّةً وقاسية، حزينة أيضاً وقاتلة.

ومنذ ذلك الوقت، أركن في نقطة مراقبتي في الحمّام، كلما عدت من جولاتي في الحقول عند العصر. أستحمّ بالماء البارد لأني لا أثق بالسخّان الكهربائي المفبرك يدوياً من قبل «زانزاك»، مستخدم السيدة «فوف (الأرملة) باتيسون» في «لاروش أو مويت». يدّعي بأنه يعمل من دون مشاكل، لكنّي أتوخّى الحذر، فالشرائط الكهربائية التي تصل إلى الوشيعة في رأس الدشّ أكلتها الصراصير أو الرطوبة، والعازل هو عبارة عن قطعة من جصّ يتشظّى. بعد الحمام، أظلّ واقفاً عارياً تماماً على البلاط كي يجفِّف الهواء الدافئ المارّ عبر رقائق زجاج النافذة جسدي. بعد انتهاء دوام المدرسة، حوالي الساعة الرابعة، دخلت الفتاة إلى الباحة وسندت حقيبتها على حائط المخيّم وراحت تنتظر، كانت ما تزال تلبس الجينز الضيق نفسه والقميص الأبيض. إنها تعلم أني هنا أراقبها، تمخترت قليلاً تهزّ خصرها كالأطفال، ثم التفّت وعادت شخصاً راشداً تقوم بوضع أحمر الشفاه وهي تنظر إلى نفسها بمرآة من الكروم، كتلك التي يملكها الطيارون ومضيفو

طيران الخطوط المدنية. لم آتِ بأيّ حركة. شعرت بقطرات العرق التي تسيل على ظهري وجبهتي، في حين كان هواء البحر يوقظ الشعر على بطني وذراعي. أستطيع سماع قلبي يخفق بقوة. أحسست كما لو أنني في موعدٍ غرامي. تستطيع الفتاة الشعور بنظرتي، فالبارحة أو في يوم سابق، همست شيئاً في أذن الرجل الذي التفت نحو النافذة محدّقاً كي يراني، لكن البخار المتكثف على شرائح الزجاج كان يخفيني كليّاً. فقام بحركة بيده ليعلن أنه قادم نحوي، لكنّه غيّر رأيه واكتفى بشتمي وتهديدي بلغة لا أفهمها، ربما كانت الهولندية. شعرت بالغضب. نعم، بالحنق الشديد. فليأتِ هذا الشاذّ العجوز، فليتجرّأ ويأتي تحت نافذتي، وسأقول له رأيي بشخصٍ مثله يختبئ على بعد عشرة آلاف كيلومتر من عائلته كي يضع يديه على جسد فتاة في السادسة عشرة من عمرها، هذا المُفسِد المشين، بماله وقميصه الأزرق وعلاقاته ومهنته: فارس السماء.

رأيت كريستال مصادفةً في الشارع في «سنتر دو فلاك». كنت بالقرب من محطة الحافلات، لمحتها وهي تقطع الشارع من جهة صالونات الحلاقة. لم أتعرّف عليها للوهلة الأولى، لأنها كانت ترتدي ثوباً أسود ضيّقاً، وتنتعل صندلاً بكعبٍ عالٍ أضفيا عليها مظهر امرأة ناضجة. كانت تمشي بخطوات كبيرة بين السيارات دون أن تعير انتباهاً لمعاكسات الرجال أو أن تلتفت. حين وصلتْ إلى الطرف الآخر من الساحة، صعدتْ في سيارة دفع رباعي ضخمة لونها غامق وزجاجها ظليل انطلقت على الفور. وقفتُ بلا حراك على حافة الرصيف أنتظر ماذا سيحدث بعد. ظننتُ بأنه سيكون هنالك تتمة كما في أفلام السينما. بادرني رجل متقدّم في العمر بالحديث، وهكذا عرفت اسم هذه الفتاة. «هذه الساقطة تضاجع الجميع». كان من الأولى بي أن أنصرف، لكني ظننت أنني سأعلم شيئاً

عنها. لن يجيبني إن طرحت عليه السؤال مباشرة، فالناس هنا يخاف بعضهم من البعض الآخر. ادّعيت بأني أعلم، وقلت: «إنها من بلو باي وتقطن عند دونج سو». قال متهكّماً: «كريستال؟ الكلّ يعرفونها في غراند باي، فهي ترتاد بارات المومسات هناك كل مساء». كريستال، انتابتني الرغبة بالضحك عند سماعي الاسم. منذ متى يستعمل اسم كريستال للفتيات في «ماهيبورغ»؟ إنه اسمٌ مستعار اختارته لنفسها لإغواء الرجال في البارات، اسم قرأته في مجلة أو سمعته من مسلسل تلفزيوني. هو اسمٌ يحمل حلم أبّهة، يدعو إلى نسيان أكواخ الخشب في «بامبو» و«لافاليه دي بريتر» والطرقات المغبرة والخرائب حيث يأتي الشباب يشربون الكحول ويدخنون الجانجا، وحيث الزعيق والشتائم والعراكات بين العصابات وزجاجات المشروب الفارغة. قمت باستقلال سيارة تكسي في ذلك المساء وقطعت الجزيرة. لم أكن أدري عن ماذا أبحث أو بماذا أرغب. رأيت السيّاح المتجمعين على الشاطئ الأزرق، أشجار النخيل السخيفة، المحلات التي لا تخضع لضرائب وأسعارها كاوية، ومطاعم السوشي والمقالي. تسكّعت أيضاً في الشوارع، واحتسيت الكؤوس في البارات، ومشيت بمحاذاة الخليج حتى غياب الشمس الملوّنة وهبوط الليل، رأيت الحيوانات التي تهرع من حفرها ومآويها بلا هدف، سيارات ذات ضجيج ودراجات نارية يمتطيها ثلاثة أشخاص. أخذت أفكر بكريستال، كريستال الصغيرة الضائعة في متاهات الرذيلة، في الدكاكين الخلفية، وبين هذا الحشد الذي يتصبّب عرقاً وهو يرقص الهيب هوب على الشاطئ أو في البارات. يضيء وجهَها الطفولي كراتٌ ترسل ومضات حمراء. قلت اسمها لفتيات كن يمشين بخلاعة على مدخل إحدى المراقص: «أتعرفون كريستال؟»(*). أجبن بتهكم بلهجة الكريول: «لا نعرف كريستال. من

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

أنت؟». قوافل السيارات تمرّ أمام أبواب البارات ببطء في الليل، مشعلةً أضواءها ورافعة زجاجها. ليس لدى راكبيها هدف، فأين يمكن الذهاب في جزيرة؟ وهم يقومون برسم دائرة كبيرة حول الحيّ كي يمضوا الوقت ويعيشوا مغامرة. يتوقفون عند الفجر حين يكون قد استُهلك كل شيء: المال وزجاجات الويسكي والجنس.

ألما

أيامي تتكرّر بشكل دائم، لا أعرف كيف يمكن أن يحصل ذلك، لكنّه الواقع. قلت ذلك للأب «لابات» في «بون تير» إنما لم يستوعب الأمر، بل سخر مني قائلاً: «كلّنا على هذا الحال يا دودو، الشمس تشرق وتغيب كل يوم، وكل يوم يمرّ على هذا المنوال». أضاف إنه يحلق ذقنه كل يوم. وختم كلامه قائلاً: «بالتأكيد أنت لا تدرك الحظّ الذي تتمتّع به!» ملمِّحاً إلى المرض الذي يلتهم وجهي ويُفقدني شعر جسدي أيضاً. حاولت أن أشرح له: «يا أبتِ، ليس الأمر كما تظن، فنهاراتي لا تنتهي على الإطلاق، إنها تشبه طريقاً لا نهاية له، فأنا لا أشعر بحلول الليل ولا يغمض لي جفن، كما لو أن أيامي نهارات لا تنتهي». نظر إليّ دون أن يردّ. تركت «بون تير» وتوجهت إلى مقبرة «سان جان». إنه الوقت المناسب للذهاب إلى المقبرة، فالشمس حارقة ولا يوجد أحد في ممرّاتها، حتى السيد زان، ذلك الوغد الكبير الذي يأخذ نقودي ولا يعتني بقبر أمي وأبي، لم يكن موجوداً. ذهبت لأزور والديّ حيث يرقدان في نهاية الممر «و»، بالقرب من شجرة السرو. إنها زاوية هادئة معظم قبورها مهملة، إذ إن بلاطها مكسّر والعشب ينمو وسطها وتعلق على أوتاد أسوارها الصدئة أكياس البلاستيك الأسود التي تدفعها الريح. أقرأ الأسماء التي لم تُمحَ بعد: رافا، لوم، لافيل،

بيرنيتي، أستروك، لافانتور، مودي، شالاندون، هيلين دو رونيفيل، رابوتو، فردوس، سالون، باربو، تيون، أوجييه. أين هم الآن؟ من يذكرهم؟ من يأتي لزيارتهم؟ في «بالما» و«كانز كانتون» و«كاتر بورن» و«كايو» و«روز بيل»، لا تتوقف الحركة أبداً ولا العالم عن الدوران. ويايا العجوز التي حملتني بين ذراعيها حين ولدت، أين شاهدة قبرها؟ هل حفر أحدهم اسمها في مكان ما؟ ليست في «سان جان» ولا في أي مكان، لم تعد موجودة. كنت طفلاً حين توفيت، أذكر أنهم دفنوها في حفرة في محيط «كريف كور» بالقرب من شجرة المانجا، وغرسوا صليباً فوقها من دون اسم، فهي ابنة عبد ولا تستحق أن يوضع لها شاهدة حجرية. انتزع الإعصار الصليب من فوق القبر ونبتت نباتات في التراب، فأصبحت غير موجودة إلا في رأسي. ما زلت أراها تلبس ثوبها الطويل الذي لا لون له وغطاء رأسها المزهّر الذي تخفي به صلعها، وأطواقها المصنوعة من الحبوب وأصدافها وأساورها. كانت يايا ثخينة وثقيلة لدرجة أنها احتاجت إلى أربعة رجال كي يحملوها عندما سقطت ميتة في حقلها المزروع بالبصل. كانت يايا تحتفظ لي، في مرطبان، بقطع من السكّر الأصهب وبسكويت الكسافا من عند «رولت» وبقطع من عرق السوس. كانت يايا تدخّن سجائر الجانجا الخفيفة والمحلّاة، وتنام على الأرض في ظل شجرة المانجا. وتستعين بقطعة قماش وحجرين لتبني منزلاً لأسلافها الأفارقة، جدّتها العنكبوت وجدّها الخفّاش، بين جذرين من جذور الشجرة. فمها المائل إلى اللون البنفسجي كان يتدوّر حين تغني تهاويد النوم الرقيقة لي ولنفسها. كنت أستلقي على الأرض على مستوى وركها في فترة بعد الظهر، حين يكون الطقس حارّاً وثقيلاً وطنين الناموس يرنّ في أذني، وكانت تقوم بالتلويح بيدها الثخينة بمروحة من القشّ حتى تلطّف الجو من حولي. اسردي لي يا يايا قصة توبسي وقصة ساكلافو. كان صوتها رخيماً وأجشّ لأنها كانت تدخّن وتشرب العرق كالرجال. أحبّ

سماع صوتها، فهي تغني أغنيتها لي وحدي. ما زلت أتذكّرها، حتى هنا بعيداً عن منزلها وشجرتها وحقل البصل. كانت تحكي لي قصة توبسي، سلفها الذي أتى من «لا غراند تير» في يوم شتائي على ظهر سفينة شراعية آتية من بعيد، من الجانب الآخر للمحيط. كانت تداعب شعري بيدها الضخمة والخشنة، كان شعري ما يزال ناعماً كالقطن ومجعّداً، كان ذلك قبل أن يلتهم المرض رأسي ويحرق شعري. حكت لي قصة توبسي الأسود الصغير الذي انتابه الخوف لدى وصوله إلى جزيرة موريشيوس(*) لدرجة أنه كان يركض في حديقة ألما، لظنّه أنه سيؤكل من قبل البيض الشرّيرين. كان يركض عبر الحديقة ويتسلّق شجرة التين البنغالي إلى القمة، ويبقى جاثماً هناك طوال اليوم حتى هبوط الليل. حاولوا كثيراً إفهامه أنه يستطيع النزول، فما من أحدٍ يودّ التهامه، لكنّه لم يستمع، فما كان منهم إلا أن أحضروا سلّماً طويلاً ليقوموا بإنزاله عنوةً. قصة توبسي هي أيضاً قصة يايا، فقد كان ما زال على قيد الحياة، عجوزاً وشعره أبيض، حين كانت هي صغيرة. كان يحكي لها أحياناً عن «لاغراند تير»، عن الأشجار والأنهار والقرى والحقول الموجودة هناك، وعن أرضها التي احمرّ لونها لامتزاجها بالدماء. ما زالت شجرة توبسي، شجرة التين البنغالي الطويلة، تنتصب هنا في وسط الحديقة أمام المنزل المتهدّم. وتشكّل أوراق الشجرة حصيرةً تنبعث منها رائحة قوية، وتتحرك أغصانها في المساء من ثقل العصافير والخفافيش الثعلبية عليها. لا أذهب للاستلقاء على أوراقها المتعفّنة أبداً لكثرة ما فيها من ناموس. بعد أن توفيت يايا، قاموا بحفر حفرة كبيرة لضخامة بنيانها بالقرب من شجرة المانجا، هناك في الأعلى في «كريف كور»، حيث كانت تذهب دائماً بعد أن تنتهي من قطاف البصل. ربما دُفن توبسي هناك أيضاً بالقرب من منزله الخشبي المبني على صخور الجبل

(*) باللغة الكريولية في النص.

الذي لم يبقَ منه شيء. حين يكون معي بعض القطع النقدية الصغيرة، أستقلّ الباص وأذهب إلى «ريباي»، وأتجاوز سفح الجبل وصولاً إلى «كريف كور» وشجرة المانجا العجوز. وغالباً ما أحضر معي هدية ليايا، كرمى للوقت الذي أمضته وهي تقصّ عليّ حكاياتها. أُحضر سجائر فقد كانت تحبّ التدخين. كانت تنزع الغلاف الورقي وترمي التبغ وتضع بدلاً عنه الجانجا. أحياناً أشتري لها علبة صودا، أو كعكةً منكّهة بنكهات مختلفة، وأضع الكلّ بين جذور شجرة المانجا حيث كانت تجلس يومياً. أُحضر ذلك من أجل توبسي أيضاً حتى وإن كنت لا أعرفه، فقد توفّي حين كان والدي في العاشرة من عمره. لقد كان طويلاً وشديد السواد، يلفظ الكلام بصعوبة لأن أسنانه الأمامية قد سقطت. كان يثير الخوف قليلاً فهو يعرف شياطين إفريقيا ويستحضرها بأساوره السحرية. هذا ما كانت ترويه لي يايا، حين كنت أستلقي بجانبها في حديقة ألما لأستمع لقصصها. أمّا الآن فإني أحضر الهدايا للاثنين معاً وأضعها بين جذور شجرة المانجا. تقدّمت فتاة وصارت تنظر إليّ، ليست بالطويلة ولكنها سمينة قليلاً، وقد نما لها ثديان. كانت تراقبني من بعيد من دون أن تقول شيئاً، فهي لم تكن طبيعية. كانت تخاف من وجهي المشوّه لكنها بقيت هنا، مختبئة خلف الأجمة. وضعت هداياي مع علمي بأنها ستأتي لأَخْذِها حالما أنصرف. لا أعبأ لذلك، فأنا أظن بأن يايا كانت ستستلطفها لو استطاعت رؤيتها من حيث هي موجودة الآن. لا أعرف اسم البنت، لكني أعرف أنها تسكن في منزل في أسفل الشاطئ، وهي ابنة سيدة تعمل في حقول الزنجبيل، وتمارس الشعوذة قليلاً، فهي تشعل شموعاً بين حجارة يايا وتقوم بوضع أغصان شجر على شكل صليب بين جذور الشجرة. أحياناً، حين آتي إلى هنا، أجد شمعة مشعلة أو عود بخور أو قطع قماش أو عيدان قصب. أحياناً أخرى أجد بقع دم وأقدام دجاج وبيضاً مشوياً على الأرض بين الجذور.

احكي لي يا يايا عن قصة السجق، قصة الساحرات اللواتي يخلطن التراب مع دم القمر، الدم الذي يفقدنه كلّ شهر، ثم يُضفن التراب مع طعام الرجال كي لا يخونوهن مع نساء أخريات ويبقون في المنزل. كما أنهن يعطين الدم غذاءً للأشجار، فالشجرة، حسب يايا، هي منزل الأم واتا، هذا ما قاله لها توبسي قبل أن يموت. تعيش ماما واتا في أنهار «لا غراند تير» الكبيرة كالبحر، حيث تراقب الشباب وتلتقطهم لتسحبهم إلى القعر. يعودون إلى السطح وقد أكلت الأسماك الصغيرة رؤوسهم وأعضاءهم التناسلية. لا أدري ما إن كانت تلك هي الحقيقة، لقد قصَّت عليّ يايا هذه الحكاية عندما كنت صغيراً، ولم أكن أدري بعد بأن المرض سيصيبني يوماً ويلتهم أنفي وجفوني. لم يلتهم المرض قضيبي، فهو ما زال طويلاً وأحمر اللون وينتصب صباحاً كالسهم، ليس ضعيفاً وليّناً كالبامية، الأمر الذي يعجب زبيدة كثيراً.

كان أبي يقول مازحاً إن ألما هي الأمّ المُرضعة (ألما ماتير). كان يقول إن معامل السكر في جزيرة موريشيوس تشبه أنثى الخنزير التي ترضع عدداً كبيراً من الخنازير الصغار الوردية اللون، لأن المساهمين في هذه المعامل كلّهم بيض ووَرديّو البشرة. وكل خنزير صغير يرضع بشراهة من ثدي أمه ويشرب حليبها حتى الثمالة، وحين يشبع نهمه ويخزن الدهن في جسده ينام إلى جانب أمه التي تُنهك وتنحل من إطعامه. في المقابل، لا يحصل العمال إلا على الفتات، على بضع قطرات حليب من الأم الخنزيرة. يشاهدون ما يحصل في حظيرة الخنازير وأفواههم جافة وأياديهم منقبضة من الغضب. كلّهم سود وجائعون، يشاهدون الخنازير الوردية الصغيرة النائمة في حضن أمها وأفواهها نصف مفتوحة، يسيل منها خيط الحليب السائل. ألما ليست أمي فلم أشرب من حليبها قطّ، بل شربت من حليب

أرتيميسيا ونمت في حضن يايا، لكنّي لا أكنّ مشاعر غضب تجاه ألما. بل على العكس من ذلك، أنا أحبُّ أراضيها وجداولها وأشجارها، أحب ما لا يملكه أحد، حتى الآن بعد أن أصبح خربة، وبعد أن اجتاحت طرقَها الأعشابُ ونُصبت حول مستنقعاتها الأسوار. أعرف كل الطرق التي تؤدّي إلى ألما. أشقّ طريقي عبر أعواد القصب الأكثر مني طولاً، أصطاد الحمام. الأرض حمراء اللون والسماء زرقاء تجرّ الرياح فيها كتلاً من سحاب. تمطر عليّ أحياناً إحدى السحب السوداء بضع قطرات تلسعني كحجارة صغيرة. أذكر أني في السابق كنت أتقدم في الحقل واضعاً يدي في جيبي حتى لا تجرحني الأوراق. أستمع إلى العمال وهم يصرخون: «آهوها، آه»، والسواطير في أيديهم، وأسمع أيضاً صوت النصل وهو يحصد القصب. لا أسكن بالقرب من حقول القصب، فمنزلنا كان بالقرب من قرية العمال. لم يكن لديّ الحقّ في سلوك طريق المصنع، لذلك كنت أعرف كلّ الدروب الصغيرة بدءاً من المستنقع الكبير حتى سكّة الحديد. اقتربت من الملكية، تجاوزت الجدول وسور البامبو وتسلّقت الحائط الصخري القصير، فأصبحت في مدخل الجنة على الأرض: منزل الفيلسن الكبير بصفوفه من النخيل وأشجاره الكبيرة الداكنة والبرك ومجاميع الأزهار الكبيرة. يقع بيت يايا في آخر الدرب، بالقرب من الإسطبلات القديمة، الشقّة معتمة ورطبة وتنبعث منها رائحة الدخان والقمامة. لا تملك يايا مرحاضاً، وتقوم بوضع فضلاتها في حفرة في الغابة تغطيها بالأوراق الميتة وبالتراب. أخاف أن أذهب إلى هناك، فقد وجدت يوماً ضفدعاً في قعر الحفرة راح ينظر إليّ بعيونه الصفراء فهرعت راكضاً. كنت هنا يوم قامت عائلة أرماندو اللعينة بهدم منزل أرتيميسيا. لقد كانت مريضة ذلك اليوم وذهبت كي تشتري الدواء من «سان بيير». أثناء غيابها أتى بلدوزر وهدم البيت بما فيه: سريرها وعفشها وصحونها وثيابها القديمة. اختبأت أنا خلف أجمة في

الغابة الصغيرة وشاهدت البلدوزر الذي يمشي ويحطّم، سمعت صوت الزجاج المتحطم الذي يشبه صوت العظام وهي تنكسر. يا للمسكينة أرتيميسيا، عظامها وأسنانها وكؤوسها وصحونها واللوحات التي تحوي صور أبناء وبنات أخواتها، وصورتها التي رسمها لها والدي حين كنت صغيراً أجلس على ركبتيه. حين توقف البلدوزر، هرعت نحوه صارخاً أنا أيضاً: «أشرار، أشرار!»، ضحك ذلك العامل الأبيض الذي كان يركض ويزعق كعصفور دوري، وراح يرمي نحوي قطعاً من القرع كما لو أنني قرد في غابة «ماكابيه». قال لي: «أيها الجرذ الأبيض!». لم تأتِ أرتيميسيا إلى هنا بعد ذلك، بقيت في «سان بول» عند ابنتها هونورين حيث أسكن الآن، فليس لديّ مكانٌ آخر أقضي فيه الليل.

مايا

افتُتحت «مايا لاند» في نهاية الشتاء. لم يبقَ شيء من بناء معمل «روش نوار» وملحقاته. الطريق الجديد يمرّ عبر الحقول، لقد ظننّا لمدّة طويلة بأن ما تحفره البلدوزرات في هذه الأرض الحمراء القفرة الكبيرة سيتحوّل إلى مدرج طائرات. هل يمكن للمرء أن يتخيّل أن شيئاً ما من الممكن أن ينبت في هذه الأرض البعيدة غير العمارات المبنية من أسمنت وزجاج؟ لم يعد هنالك قيمة للسكر والشاي ولا حتى البصل. أما قصب السكر فما زال يفيد في إنتاج الإيثانول (الوقود البيولوجي)، أو يستخدم كوقود لتشغيل أفران المحطات الكهربائية. كل هذا العمل المضني، كلّ هذه الظهور المحنية والوجوه التي أحرقتها الشمس والثياب المبتلّة بالعرق، كلّها ذهبت سدى. كلّ هؤلاء الناس الذين اقتُلعوا من جذورهم، من قلب إفريقيا، من على سفوح جبل كليمنجارو، من على شواطئ بحيرة «نيسا»، من «غالا» في إريتيريا وأثيوبيا، هؤلاء الرجال والنساء المقيدون بالسلاسل الذين مشوا من دون توقف على دروب مزروعة بالجثث والعظام. أسَرَهم العرب في «كيلوا»، بيعوا في زنجبار، وكُدِّسوا في سفن «الداو» ليفتك بهم العطش والزحار والجدري. ما هو المغزى من كل هذا؟ لا شيء. النتيجة هي أن يأتوا ببلدوزر يوماً ويبدأ عمله باقتلاع القصب من جذوره وتنظيف الأرض

من الحجارة، وحفر الخنادق التي ستُمدَّد عبرها أنابيب المياه، وأن تنتصب في يوم آخر، فوق الأرض الحمراء، كتل أسمنتية للمركز التجاري المبني على شكل قصر من عوارض وأبراج حديدية تنتهي بسقف على شكل زهرة لوتس، تصميم فريد يسبِّح بعظَمَة المال ومجده، وضعه المهندس الهندي «آمال راج سين». ترقص مايا الآن فوق الحقول كعملاقة ترتدي ثياب حفلة راقصة، كطائر أبو منجل فاتحاً جناحيه، كسرابٍ مغلّف بالبلاستيك. يتحوّل لونها في المساء إلى الأبيض والوردي، ليس لأنها تعكس ضوء الغسق، بل لوجود آلاف العلامات التجارية المضيئة التي تشتعل وتومض وتترنّح وتنفجر بأسماء مجنونة، مبهرة وعديمة الفائدة.

سيبيا
شارميي
رادااما، ألـور، ســالاما   فراز
جورنيه
سولا
ميسكين
كويك
سيلفر كلاود   ماجيسين
سوكوترا
كاريسي

جواس

ينعكس الضوء الكهربائي على طول ممرّاتها المكسوّة بالزجاج ويردّد الصدى الأصوات. تنتقل جموع الناس من بوابة إلى أخرى صاغرةً وحالمة، تنفصل أحياناً قبل أن تعاود اللقاء. يطغى صوت الموسيقا من مكبّرات الصوت المخبّأة في الأسقف على أصواتهم. الموسيقا عبارة عن لحن حزين لا ينتهي ولا يرافقه غناء، مؤلف من إيقاع ومن أنغام مزمار

زجاجي وخشبية (سيلوفون) وقيثارة وأورغ. لا يعزف هذه الموسيقا موسيقيون، فهي نشيد ألّفته حواسيب إلكترونية اعتماداً على جُمل وخوارزميات وتواترات غير معروفة. تتنقل النظرات من واجهة إلى أخرى بعيون مفتوحة وحدقات ضيَّقَتها حدّةُ وميض الضوء. يبدو أن النظرات فقدت اتصالها بالواقع لانجذابها أكثر إلى الخيالات المعكوسة. ربما كان ذلك كلّه بسبب الخوف؟

كانت كريستال تتمشّى داخل مايا. لقد رأيتها مجدداً هنا. لم تعد تذهب إلى مدرسة البامبو. بماذا يفيدها الذهاب إلى هناك؟ لم تفتأ المعلمة تردِّد على مسامعها ما يجب وما لا يجب فعله. ارتدي ملابس محتشمة، اذهبي واغسلي كحلتك وحمرة شفاهك، ألا تشعرين بالخجل؟ ماذا كانت لتقول والدتك لو رأتك؟ صحيح، لكن أمّها لا تنفكّ عن معاقرة الخمر صباحاً ومساء، وحين تكون صاحية تقوم بالصراخ وتشتم كريستال: «لن تكسبي عيشك سوى بالجنس!». لقد هجرها زوجها منذ وقت طويل. فهو ما زال شابّاً، أصغر سنّاً من والدة كريستال، وفضّل التسكّع في الشوارع والشرب مع أصدقائه والعزف على الدف والنوم على الشاطئ بالقرب من قارب مهجور، على العيش معهما. تقول كريستال لطيّارها - ربما في نهاية الأمر هو ليس طيار بل رئيس طاقم طائرة - بصوت فتاة صغيرة مدلّلة تستطيع تقليده ببراعة: «أرجوك يا سيدي خذني إلى مايا، أنا متأكدة من أنني لن أصادف هناك أناساً أعرفهم». استأجر سيارة تويوتا كامري قديمة من شركة «دودو تورينج» وقاد بها كريستال إلى الأماكن التي ترغب، إلى أعالي الجزيرة من جهة «سان بيير». كان يفضِّل الذهاب إلى الشاطئ لكي يبقى ممدّداً تحت الأشجار المخملية وعلى الرمل الخشن، كان يحب أن ينظر إلى خط الأفق الصامت أو أن ينام عارياً كلّيّاً على السرير البارد بالقرب من النافذة بعد أن يستحمّ. أوسعته كريستال لَكْماً وقفزت على بطنه كفتاة صغيرة تريد

إيقاظ أباها: «استيقِظ، كفاك نوماً! استيقظ يا كسول!». قاد السيارة بتثاقل والفتاة متكئة على كتفه. شمّ رائحتها الفلفلية وعطر زيت الأركان الذي وضعته كي تُسبِّل شعرها. مدّت يدها اللعوبة عبر فتحة البنطال، فانتصب عضوه وفقد تركيزه. «توقّفي عن هذا، سنتعرّض لحادث!». تتابع كريستال ساخرة: «ماذا ستقول زوجتك وأولادك في هولندا إن عرفوا أنك تواعد فتاةً أصغر منهم؟». بدأ المطر ينهمر على الطريق بعد أن اجتازا «روز بيل»، وبدأت الشاحنات المتعبة تصدر غماماً من الدخان. سلوك الطريق المؤدّي إلى «مايا لاند» صعب، فأعمال التسوية لم تنتهِ بعد، والقيادة تتطلب عبور منعطفات وتجاوز بلدوزرات فضلاً عن الازدحام. لم يكن الكابتن الطيار مسروراً بل كان يزمجر ويتأفف. تبع كريستال عبر متاهة الردهات والمرايا. كان يشمّ رائحة المنظفات والسكاكر في أماكن، والكاري والزيت الحار في أماكن أخرى. توقفا ليشربا كوكا كولا في وسط مايا، تحت القبّة الشهيرة على شكل زهرة لوتس حيث وضعت طاولات وكراسي من البلاستيك الأبيض. عينا كريستال فارغتان. لم ترَني. لم تميّز وجهي ولا أيّ وجه آخر من هذه الجمهرة. ربما لمحت بطرف عينها مجموعة من الشباب من عمرها أتوا من «سان بيير» بصحبة فتيات يلبسن لباس المدرسة الإعدادية. منهن من بدّلن ثيابهن ولبسن جينزاً وقميصاً، البعض انتعلن حذاء رياضياً برّاقاً وأخريات لبسن شبشباً. ربما لمحن كريستال قادمة مع عجوزها وعلّقن على لباسها بكلماتٍ غير لائقة، وعلى الرجل الأشيب الجالس بقربها. لذلك كانت تختبئ خلف نظارات «وايفارير» التي اشتراها لها الطيار من «شيبهول»، حيث لا يدفع ضريبة، وهنا هو المكان الذي يمكن شراؤها منه بأرخص الأسعار. لقد أصبحت بعيدة عن العالم، وعن السماء التي تنهمر أمطارها بقوة على السقف الزجاجي قبل أن تسيل إلى الداخل وتستقرّ في أوانٍ وضعت خصيصاً لهذا الغرض، بعيدة عن الطرق الصاخبة والعابقة

بالدخان، بعيدة عن الطرقات غير المعبّدة في «مون روش» و«بامبو». لا شيء موجود بالنسبة لها الآن سوى هذه الانعكاسات الضوئية على واجهات المحالّ، وأبواب المحال المفتوحة على علّاقات الفساتين والباريو(*)، على صناديق عرض المجوهرات و«كولد ستون» الذائبة، على الألوان الوردية والحمراء وبياض الفانيلا وسواد الكاكاو. تركت كريستال طيّارها على الكرسي البلاستيكي، وذهبت لتمشي بخطوات كبيرة في الممرّات فجأة. رحت أتبعها فأنا مربوط بها بخيط غير مرئي. ربما نهض العجوز الوسيم أيضاً وراح يلحق بها خطوة خطوة كالسائر في نومه، هو ورجال آخرون جذبتهم رائحة جسد كريستال وشعر كريستال التي لم تعد موجودة. لقد أصبحت كريستال مرآة للموسيقا والضوء، ووهم الشباب الدائم.

(*) القماش الذي يلفّ على الخصر.

كريف كور

تتطاير الألحان تحت شجرة المانجا. أسمعها عند مجرى نهر ألما، على حافة الوادي. قبل ذلك، في ذاك الزمن، كان عندي بيانو. نوعه «هيرشن» ألماني، كانت جدتي بيث قد جلبته معها من إنجلترا عندما جاءت بالباخرة مرافقةً جدّي أكاب. لم تكن ألمانية، بل إسكتلندية، كانت موسيقية، ولكنني لم أسمعها يوماً تعزف الموسيقا، فيداها كانتا متصلّبتين بسبب مرضها، الذي يسمّى الاعتلال المفصلي. أنا أعزف، وكانت تستمع واقفة على باب الصالون دون أن تدخل، لكيلا تزعجني، أو ربما لأن المشي مؤلم بالنسبة لها. كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، وكانت قامتي صغيرة إلى درجة تدفعني لوضع قواميس أجلس عليها على المقعد حتى أصل إلى مستوى ارتفاع لوحة مفاتيح البيانو. يميل أبي إلى موسيقا باخ الجادّة، بينما تفضّل جدتي شوبان وأنا أحب دوبوسي وخاصة معزوفة «الكاتدرائية المغمورة»، ولكنني لا أستطيع عزفها، مجرّد جزء «الكيك واك» منها. والآن جاء دوري لتصبح أصابعي متصلّبة، ليس بسبب الاعتلال المفصلي، إنما بسبب مرض السيجما. بعد ارتفاع الحرارة وكل ما رافقها، استفقت، كانت أصابعي جامدة، كأنها يد خنزير، ولم يعد باستطاعتي العزف أبداً بعد ذلك. بعد ذلك باعت عائلة

الأرماندو كل شيء، وذهب البيانو مع باقي الأشياء، ولأن أحداً لم يرغب باقتنائه، فقد أودع في مسرح «بو باسان»، هناك لا ينفع لشيء إلا في حالة حفلات مدارس الأطفال، أطفال الحي الفقراء، حيث كانت تأتي سيدة لتعزف لهم ألحان الأغاني والأوبريت. ولكن لا أريد أن أتباكى، ماذا ينفع البكاء؟ هم أخذوا البيانو والبيت، أما أنا فأحتفظ بالنوتة في رأسي، وحين أرغب، أجعلها تطير. كانت الفتاة المنغولية تأتي لتستمع تحت شجرة المانجا، لأن النوتة تجذبها عندما تتطاير في الهواء، نوتة من كل الألوان، لها نكهة السكاكر والعسل، وأحياناً لها طعم المطر وهواء الزوبعة أيضاً، ومن أجلها أدندن الأنغام، حتى لو كانت لا تفهمها فهي تشعر بها، ليس من خلال الكلمات، بل من خلال السمع، أصدر الأصوات من حلقي، بينما أشد على أسناني مغلقاً فمي: هم هم، لان لان لان، هم هم، رومانس من دون كلام لمندلسون، وهذا مناسب بما أنها لا تستطيع فهم الكلمات. جسمها ممتلئ بعض الشيء، ولون بشرتها ذهبي مثل رغيف الخبز المحمر، عيناها صافيتان مثل عيون الكلاب. لا أعرف اسمها، لذلك أطلق عليها اسم سيمينور، خافت مني في البداية، كانت تهرب حين أقترب منها، سيمينور هو اسم موسيقا شوبرت التي أحب، لا أستطيع غناءها حتى لو عضضت على أسناني، أستطيع فقط جعل الألحان تتطاير فوق الوادي تحت شجرة المانجا، لأجلها. كنت قد اقتربت منها مرةً، لمست ثوبها، ولمست بشرة فخذَيها أيضاً، بشرتها ناعمة جداً، لكنها خافت وهربت لتختبئ وراء الأجمات، أنا لا أريد بها شرّاً، أريد لمس بشرتها فقط. أغني لها الأغنية التي أحبُّها كثيراً، في المرة الأولى التي عزفت فيها على البيانو كانت هذه الأغنية واسمها «أولد لانج ساين»، هي لشوبرت، الكلمات بلغةٍ لا أفهمها، ولكنني أستطيع تذكُّرها كلمةً كلمة، كنت أعزف لجدتي بيث وأظن أنها تُسرّ لذلك، أذكرها تقف على باب الغرفة وترافقني مردِّدةً

الكلمات غناءً. ماتت أصابعي، ولكنني ما زلت أستطيع ترديد الأغنية، أستطيع العزف إذا وجدت بيانو. لا أستطيع الذهاب كل يوم إلى المسرح لأعزف على الهيرشن خاصتي، أنتظر إيجاد بيانو في مكانٍ ما. وبالفعل، يوم ليلة رأس السنة، ذهبت إلى مقبرة «سان جان» لأزور قبر العجائز المساكين، كنت أريد التأكد من أن السيد زان لا يضع الصباغ الرمادي على قبورهم لينتقم، بما أنني لا أعطيه بقشيشاً. أذهب إلى المقبرة حاملاً فرشاة أسناني، وكأس ماءٍ صغيراً، وقطعة طبشور لأمسحها على الأسماء، لا أريد أن تنمحي الأسماء كما حصل لأغلب القبور هنا. ها أنا ذا أمرّ قرب الكنيسة، عادةً تكون مغلقة في مثل هذه الساعة، لكنها اليوم مفتوحة، أدخل إليها، تجتاحني العتمة ورائحة الورد العفن والشموع، هناك باقات عفنة في كل مكان. أسمع الموسيقا التي تصدر من خلف الهيكل، من غرفة المقدسات، أتقدم مشرِعاً يدَيّ أمامي لأني لا أرى شيئاً، وأسير ببطءٍ جارّاً حذائي. الألحان تشدّني لعند الرجل الجالس أمام البيانو، بيانو مرتفع على عواميد، كمثل الهرشين خاصتي. يتوقف الرجل عن العزف، ينظر إليّ وأنا أتجمّد في مكاني، أظن أنه سيطردني، عادة يخاف الناس الذين يرونني من عينيّ الخاليتين من الجفون، ويقولون عنها عيون خفافيش. الرجل معتدل القامة، أنيق، يشبه أبي، يرتدي قميصاً أبيض اللون مع كرافة زرقاء، شعره قصير جداً ويضع نظارات، وخلف النظارات تظهر عينان زرقاوان. يقول لي: «أنا ميشيل. أنت من تكون؟». تجمّدت فاتحاً فمي لا أعرف ماذا أردّ. تأفّف الرجل: «قل لي ما اسمك؟». عندئذ أجبته: «اسمي دومينيك فيلسن». عادةً لا أذكر اسم عائلتي، لأن الناس يعرفون هذه النسبة، ويظنّون أنني أتخيّل، وأذكر ذلك لكي أعطي لنفسي بعض الأهمية. لكنّه لم يعلّق، ربما كان شخصاً غريباً عن المكان، ولا يعرف من هم الفيلسن. وقف ودفع بالكرسي: «هيا يا دومينيك، اجلس! أتريد سماع عزفي؟»، فلا

أتحرَّك، عندئذٍ يقول لي: «هيّا أيها الرجل الصغير، اجلس!». جلست وبدأ بالعزف من أجلي، فملأت الألحان رأسي وشعرت أنني أوشك على البكاء، وتذكّرت الأستاذة التي كانت تعزف في ألما معزوفة «الكاتدرائية المغمورة»، سمعت الأجراس تقرع تحت الماء، ثم بدأت بعزف مقطوعة شوبان «نكتورن» بالسي بيمول مينور، النوتات خفيفة، النوتات ناعمة، نوتات قاسية للوصلات، أتذكّر كل هذا، قبل مرضي، كنت أريد أن أصبح عازف بيانو شهيراً، أن أعزف في الحفلات الموسيقية لابساً بدلة سوداء وقميصاً أبيض، أن أعزف لجدّتي. أتخيّل الجمهور يصفّق واقفاً. وقف ميشيل عندما انتهى من العزف. كان وجهه قد احمرّ قليلاً وعيناه تلمعان، مسح نظارته وكانت الدموع في عينيه. «دومينيك أتريد العزف أنت أيضاً؟» قال هذا، فاعتقدت أنه يسخر مني، تراجعت قليلاً، وقلت: «عفواً يا سيد ميشيل أنا لا أقدر، فأصابعي ميتة». على الرغم من ذلك أجلسني ميشيل على الكرسي مقابل البيانو، وضعت يدَيّ على مفاتيح النوتة، وشعرت أنها باردة، ولكنّي استعدت قدراتي فجأة. وبدأت أصابعي بالحركة، ببطء في البداية، خاصة الصغيرة منها، كانت أصابعي تتحرك من دون أن أطلب منها شيئاً، تتحرك وحدها، وبدأت أعزف مقطوعة «أولد لانغ سين»، إنها الموسيقا التي ألّفها شوبرت من أجل روبرت برنز، وكلماتها بلغة لا أفهمها، بدأت أغنّي أيضاً، وأتذكّر الألحان. «حسناً!» قال ميشيل «إنك تعزف بشكل جيد بالنسبة لشخص أصابعه ميتة». أشار إليّ أن أقف واستعاد مكانه. ثم همهم قليلاً: «أيّها الرجل الصغير! باستطاعتك أن تأتي لتعزف هنا متى أردت، استحِمّ قبل أن تأتي! فرائحتك كريهة!». لم يكلمني أحد بهذه الطريقة منذ مدة طويلة. قلت: «سأستحمّ في ساقية موكا المرة القادمة، لأكون نظيفاً». وانسحبت عائداً إلى الوراء لكيلا أزعج ميشيل. تابع عزفه لمقطوعة النكتورن (فجرية) لشوبان. النوتات تتطاير

في الكنيسة المعتمة كما لو أنها خفافيش. ها أنا أذكر الآن، كيف كانت معلّمة الموسيقا بجانبي، بجانب الرافعة السوداء، تعزف موسيقا دوبوسي، الانعكاسات في الماء، كانت صعبة. أما بالنسبة لي فكانت معزوفة «أولد لانغ سين». في المرة الأولى، وضعت جدتي بيث التوزيع الموسيقي على البيانو، وقالت: «اعزف يا دودو، الكلمات كتبها روبيرت برنز، بلغة بلادي». نظرت إلى النوتة، أستطيع عزف موسيقا شوبرت وها أنا أعزف، من دون تردُّد، من دون أي خطأ، تنتقل النوتة مباشرة من الدفتر إلى أصابعي. تقول جدتي بيث لي: «يا دودو أنت فنان!». وأنا أشعر بالسعادة وأعزف ثم أعيد، ببطء ثم أسرع، وجدتي تغني، ويمتلئ البيت بالنوتات والضحكات، جدتي تصفق لي، يداها معوجّتان وأصابعها تؤلمها، لكنها تصفق، أنا أيضاً أصفق، لم أكن قد عرفت بعد أن السعادة لا تدوم.

الباقون، مثل دبوسي، مندلسون، شوبرت، شوبان، أستطيع ترديد ألحانهم في رأسي، ولكن «أولد لانغ سين»، لا أنساها. إذا وجدت المكان مفتوحاً، أدخل مسرح «بو باسان»، وأجد بيانو هيرشن القديم خاصتي وحيداً في زاويته. عندما تمطر السماء ينهمر المطر من السقف ويبلّل مفاتيح النوتة، ولكن لا بأس، على الرغم من ذلك أعزف. يأتي الناس، أطفال المدارس، أو الحارس، يستمعون للحظة، ولكني أكرِّر دائماً اللحن نفسه، فيتعبون وينصرفون. في يوم من الأيام سمعني السيد جول باتيل الذي يعمل في البلدية، فقال لي: «أنت تعزف بشكل جيد، لكنّك تعزف دوماً الشيء نفسه!»، فقلت له إنني لا أعرف شيئاً آخر، وهذا ليس حقيقياً، في الماضي كنت أعزف لشوبان ودوبوسي، لكنني لا أودّ التحدث له عن جدتي بيث وعن هذا البيانو الذي ما زال من ممتلكاتنا، هل يعنيه الأمر؟ عندئذٍ، ولكيلا يطرح عليّ مزيداً من الأسئلة، قمت بإغلاق غطاء البيانو والخروج من المسرح. وها أنا ذا أنتظر العثور على بيانو آخر، في مناسبة

ما. عرسٌ مثلاً، أو يوم عيد رأس السنة الجديدة. ففي ذلك اليوم سيكون بإمكاني الدخول إلى فندق «غولدن توليب»، والعزف على البيانو الأسود الكبير الصيني، ولكن بما أنه ليس يوم رأس السنة، فهم لا يريدون معزوفة «أولد لانغ سين»، يقولون إن هذه الأغنية تمرضهم.

ماكابيه

من المستحيل أن أجد أثراً. الأجدى أن أحلم وأعود بالزمن إلى الوراء، إلى ذلك الزمن حين بدأ البشر استعمار الجزيرة، بعد أن نحتتها ملايين السنين من الأمطار والريح وحرارة الشمس، بعد أن تعرضت للزلازل وثورات البراكين وأمواج المدّ العالية والطوفانات والعصور الجليدية. البحث في المغارات غير مجدٍ، فالعظام لا تقاوم الأوساط الحمضية طويلاً، أما الغابات فلم يبقَ منها الشيء الكثير. حين قابلتُ إديتي للمرة الأولى في مكتب صندوق موريشيوس للحياة البرية، أرتني خرائط لموريشيوس. في عام 1796 الذي وصل فيه أليكس فيلسن إلى الجزيرة مع عائلته، كانت الغابات تغطّي تسعة أعشار مساحة الجزيرة؛ في عام 1860، حين انخرطت عائلة فيلسن في إدخال التصنيع إلى مزارع التبغ خاصّتها (ليس الكلّ في موريشيوس يعمل في صناعة السكر)، كان ما يزال هناك بضع جيوب حراجية متوطّنة في المرتفعات وعلى جوانب «ريفيير نوار» وفي «شاماريل» وربما في «دوبرا». لم يبقَ شيءٌ حالياً، بعض الفتات، مساحات معزولة محاطة بأسوار أو شُقّت عبرها الطرق. جلست بصحبة إديتي على صخرة محاذية لمسار الأتيريت (التربة الحمراء) ورحنا نتخيّل ما رأوه من على سطح سفينتهم. قاطعتني إديتي قائلة: «ما رآه أجدادك.

فأجدادي سافروا في قعر العنبر طوال الرحلة، ولم يصعدوا إلى السطح إلا لعبور الباب الذي أفضى بهم إلى ضوء رصيف الميناء الساطع، وإلى العربات التي قادتهم إلى أماكن عملهم. ما رآه أجدادك «فان ويست زانين» من على سطح سفينة «أنكوزين» و«كورنيليس ماتيليف» من على كثيب، و«وابن فون أمستردام» و«توماس هيربر» من على سطح سفينة «هارت». حين وطئ بحّارة «جليدرلاند» رمل «تاماران» الرطب بأرجلهم العارية كان الدودو موجوداً في كل مكانٍ، كأطياف على الشواطئ الصخرية - ظنّها المستكشفون طيور بطريق - حانية ظهورها كعجائز قصيرة في الأدغال الشائكة تبحث عن حبٍّ تقتات به. أردافها المليئة أثارت شهية البحارة المتضوّرين جوعاً إذ رأوا فيها لحماً لذيذاً وطبقات من دهن يذيبونه في حوض ويدهنون به أجسادهم ليحموها من حروق الشمس ومن الملح. هذا الوصف الذي رواه «ويلم فان ويست زانين» في أبيات الناي التي نظمها:

يقتات الرجال هنا على اللحم الطازج لمخلوقات ذات ريش
وعلى نسغ النخيل وعلى أرداف الدودو المليئة
يأسرون الببّغاء كي يزقزق ويصرخ
في حين يقتلون الطيور الأخرى بواسطة عصيّهم الغليظة.

تذهب إديتي من وقت إلى آخر إلى مكاتب الحياة البرية في موريشيوس التي أقوم بنسخ الخرائط فيها، والموجودة في «كوربيب». هناك تحادثنا للمرة الأولى. أدركت لاحقاً أنها تخفي سرّاً، لقد كانت حاملاً بطفل مجهول الأب. رفضُها الزواج بشخص لا ترغب به جعل عائلتها تنكرها. لا يوجد دليل أفضل منها، فهي تعيش منذ ذلك الوقت في الغابة.

أرشدتني إديتي إلى الطريق الطيني الضيق المؤدّي إلى «مارلونج»

والذي تزداد كثافة الغابة فيه، إنها أشبه بالأحراج منها بالغابة. أكثر أنواع الأشجار الموجودة هنا هي أشجار الغوافة الصينية ذات الأوراق الحمراء، وأشجار اللاتنانا السامة الكبيرة. صادفت من وقت إلى آخر أشجار أبنوس هزيلة متعرجة. تمشي إديتي بسرعة أمامي، وعلى الرغم من أنها لا تنتعل سوى شبشب من الكاوتشوك إلا أنها كانت تركض بسهولة فوق الحجارة وبقع المياه الزلقة. أحاول أن أتخيّل الدودو في هذه الفوضى النباتية، لكن ذكرى «المارون» هي التي تسيطر عليّ هنا. اسم «مارون» (بنّيّ اللون) يليق بهم، فلقد تماهوا مع الغابة. هم أناس كانوا في حالة هروب دائم من قطعان صيّادي الرجال. هم السكان الأصليون الحقيقيون لهذه الجزيرة، مثلهم في ذلك مثل الدودو، فأسيادهم الهولنديون تركوهم بعد أن حُرق الحصن في عام 1695 من قبل زوج من العبيد الثائرين، عوقبوا بقطع أوصال الزوج وشنق الزوجة. بنى المارون الباقون على قيد الحياة ملاجئهم من الأغصان وورق الأشجار على سفوح الجبل غير المضيافة، بعيداً عن مصادر المياه. أما في وادي «لاريفيير نوار»(*) - أسود لأنه بالفعل كان نهرهم - قاموا بإغلاق مداخل المغارات بأدغال شائكة. كانوا يراقبون الشاطئ، ذلك الهلال الأزرق والأبيض والفيروزي اللون. أحياناً كانت ترسو سفينة بالقرب من «بينيتيه» أو من مصبّ «لاريفيير نوار» وكان باستطاعة المارون رؤية المراكب التي تُنزل العبيد من أعلى المنحدر. كانوا يبدون كرتلٍ من نمل أسود يمشي على شاطئ «مورن» متجهاً نحو الشمال، إلى جهنم المزارع.

كانت الثورة تغتلي في قلوبهم أحياناً، فيقوم الهاربون بإشعال النار على المرتفعات معلنين للقادمين الجدد أنهم ليسوا وحيدين وأن الحرية تنتظرهم في الغابة. أظن أنني أستطيع سماع صرخات «المارون» في الأحراج عند

(*) النهر الأسود.

حلول الليل. لا تشبه صرخاتهم صوت البشر، فهم يحاكون قباع الخنازير البرية وصفير النسور أو ينبحون كالكلاب: عو، عو! كي يزرعوا الرعب في قلوب المليشيات التي تطاردهم، فيتوقفون ويعودون أدراجهم إلى مخيّمهم، حتى وإن كان ضابط المزارع يسخر من جبنهم ويدفعهم قائلاً: «اذهب أيها الرعديد!». تمركزت المليشيات في ثكنة تقع في «ريفيير نوار» التابع لناحية «تاماران». كانوا يروون الرعب الذي واجهوه في الغابة في الليل، من متوحشين عُراة، أجسادهم مدهونة بالشحار، متسلّحين برماح وأسهم ذات نهايات حديدية، يرمون حجارة من أعلى الوديان وينصبون أفخاخاً مصنوعة من النباتات المتعرّشة السامة وأشراكاً من الصبار الشائك.

حلَّ الصمت على شواطئ «لامارلونغ» الآن. بصعوبة كان يُسمع طنين الناموس ونقيق الضفادع القادم من عمق الوادي. لقد غابت الشمس خلف تلّة «لابوتيت ريفيير نوار» (الساقية السوداء الصغيرة) وبثّت لمعاناً ذهبياً ملأ السماء للحظات معدودة قبل أن يحلّ الظلام. هذا ما دفعني للمجيء إلى هنا. شرحت ذلك لأديتي قبل أن تعود إلى ملجأ الحياة البرية في موريشيوس: «جئت إلى هنا كي أستمع إلى الليل في قلب الجزيرة، إلى الصمت الذي يلفّ الأشجار». أثارت نبرتي المهيبة، المدّعية بعض الشيء، ضحكَها. قالت لي: «أنت ما زلت طفلاً». ادّثرت بمعطفي المطري وأسندت رأسي على حقيبتي، ورحت أرقب ظهور النجوم عبر الضباب إلى أن انتشر ضوؤها الأزرق الخافت على كل شيء. إنها السماء نفسها التي كان ينظر إليها «المارون» ليلةً بعد ليلة، وبينما كان يتملّكهم قلق الانتظار، كانوا يترقبون ربما النجم الذي سيهديهم إلى «غراند تير»، على الجانب الآخر من المحيط. يبحثون عن ذلك النجم الذي كانوا يرونه على ضفة النهر وهم صغار، قبل أن تأسرهم الشياطين التي تركب أحصنة وتأخذهم عبر الصحاري والمستنقعات إلى كيلوا وزنجبار. هم في وسط المحيط هنا

في «مكابيه» حيث السماء عارية لا تتغيّر، ما من لوثة وما من تهديد يعكر صفوها. ما من تلوّث ضوئي، وحده لمعان النجوم ينبض هنا، يحدق بهم كقوة بعيدة مألوفة.

ولدت الطيور الضخمة ذوات الحدقات الواسعة تحت هذه النجوم نفسها. ترفع نظرها وتغمز بأجفانها لدى مرور شهاب في السماء، ثم تخلد من جديد إلى النوم في حفرها التي تحضن فيها بيوضها الوحيدة. يتذكر العبيد «المارون» الهاربون ليالي طفولتهم، وينشدون تعاويذ وصلوات بلغتهم. سماؤهم لا اسم لها، لا تحتوي على رسوم ولا علوم، سماؤهم صامتة تجترع حياتهم وتستنشق أنفاسهم.

استفقت على صوت همس عند الفجر، فلقد استطعت النوم هذه الليلة. كان الصوت آتياً من الغابة، هديل حمام يتخلّله تغاريد طائر القرلّى الحادة، وربما صوت ببّغاء أخضر ضخم يطير من شجرة إلى شجرة. كما سمعت صوتاً آخر، صوتاً لم أكن قد سمعته من قبل لأني، من دون شكّ، كنت معتاداً عليه كما هي الحال مع ضوضاء المدينة. لقد كان الصوت عبارة عن ارتجاج أصمّ عميق، يأتي من كل الأنحاء ويرنّ في الوديان ويرفرف على وجه المستنقع. صوت بطيء، هادئ ومستمر، فأدركت أنه ليس سوى همس البحر.

الشاطئ بعيد لا يُرى من هنا. عليّ أن أشق طريقي عبر الغابة حتى مرقب وديان «لا ريفيير نوار»، أن أسلك الطريق الذي كان يستخدمه «المارون»، لكن ليس بحوزتي الملابس ولا الحذاء اللازمين، الأمر الذي قد يعرّضني للتوقيف من قبل دورية مراقبة المحمية الوطنية.

هذا الهمس هو ما كان يسمعه «المارون» والطيور في كل صباح. إنه إنشاد يعبّر عن قلق وأمل على حدٍّ سواء، صوت الأمواج المتكسّرة على

الحيد المرجاني والصوت المتواتر الذي تحمله الريح التي تلفّ الجزيرة. أستمع له من دون حراك، في الوقت الذي تشرق فيه الشمس في الأفق وتشتعل بنورها قمم الأشجار. يهمس الصوت للطيور التي لا تطير بأن لا شيء في العالم يمكن أن يمسّهم. تستمع وتبدأ مسيرها البطيء، تحرّك أردافها كرئيس بلدية يتمختر في ساحة بلدته. يذكِّر هذا الهمسُ «المارون» بجحيم السفن التي جلبتهم إلى الجزيرة السجن، وبالملح الذي كان يحرق جروحهم، وبتمايل السفينة القاسي يوماً بعد يوم، وبالانبهار من الضوء لمّا رُمي بهم على رمال شاطئ «لا ريفيير نوار». أحياناً أخرى، عند الفجر، قبل شروق الشمس، كان الهمس يثير في مخيّلتهم صور مراكب جاءت لتأخذهم إلى مسقط رأسهم بعيداً عن جلّاديهم. تخرج الطيور بحذرٍ من الأدغال بالقرب من المستنقع واحداً تلو الآخر، كما لو أنها شعرت بأن العدو هو واحد منهم. تهزّ رؤوسها قليلاً وتعدو وتدور حول نفسها كي تطرح عنها خمول الليل. يطلق أحدها صرخةً تشبه نهيق حمار، فتجاوبه الطيور الأخرى من الأحراش. مشيتها المتراقصة طريفة. العنق يتأرجح كعنق الحمام، أقرب أنواع الطيور إليها، وتقوم بتحريك أجنحتها النحيلة من وقت إلى آخر مصدرةً طقطقة تشبه صوت خشخاشة الأطفال.

تأخذ أحياناً وضعية التعارك، إذ يثبُت أحدها في مكانه ومنقاره نصف مفتوح، فيما يدور الآخر حوله وهو يعرج بطريقة مثيرة للسخرية. ثم يبتعد المهاجم دون أن يعدو ليعود بعدئذٍ ويتنحّى جانباً. تعيش لحظاتها الأخيرة على الأرض، لكنّها لا تعلم ذلك بعد. لكن الخوف كان قد استوطن قلوبها. لقد رأت الهيئات السوداء على الشاطئ، وتعرّفت على السعف المزوّدة بخرقة حمراء، التي يلوّح بها البحارة أمامها لخداعها. حين يقترب أحدهم دون حذر من الفخ، يقوم بحّار آخر يحمل عصاة غليظة بصرعه. لقد سمعت أنين أترابها ممّن أُسِرت حيّةً ووُضِعت في زريبة،

وبكت وأضربت عن الطعام حتى ماتت جوعاً. هنا في «مار لونج» تجمّع من بقي منها على قيد الحياة. مع خيوط الفجر الأولى، بدأت رقصتها الأخيرة التي يدفع فيها البالغون من الطيور اليانعين أمامهم ليرشدوها إلى أزواجها. بالقرب من هنا في أعلى التلة قام الأزواج ببناء أعشاشها البسيطة المحفورة في الأرض الحمراء والمحاطة بجدار من أغصان الأشجار وسعف النخيل. في وسط العش تتربع بيضة وحيدة ناصعة البياض قاسية ولمّاعة.

عند اقتراب طائر أو جرذ، تهبّ الأنثى لمواجهة المعتدي، تضرب جناحيها على خاصرتيها فتعمل أصابعها الغليظة كمطارق تقرع قرقعةً مستمرّة، كما تصفق بمنقارها للتحذير. لم تعد الطيور تستطيع الذهاب بعيداً. في الماضي، كانت ملوك وملكات هذه الجزيرة، كانت تحرث الأرض بأقدامها، وكلّ شيء كان وفيراً: الماء، الحبوب والفاكهة اللذيذة. كانت تعيش في كل مكان، على التلال وفي الجبال وفي الوديان وعلى طول الساحل. كانت تمرح على رمل الخليج وتتجمّع في الفسحات وتطلق العنان لهديلها. تحتفل بالزواج بالرقص وصرخات الابتهاج العارم، تستحمّ في مياه السيول الصافية. لم يبقَ منها الآن سوى حفنة لجأت إلى الغابة لتختبئ في الأجمات. تتذكّر أحياناً الأيام التي خلت وتحلم بالحرية. تنزل إلى الشاطئ كي تركض على الصخور السوداء وتشعر برذاذ الموج يبلّل ريشها، كي تستنشق الهواء الدافئ وتتمختر على الرمل الحار، كي تلتقط ثمار الكاذي نافع وتلعق الأعشاب البحرية كما لو أن شيئاً لم يكن. تمدّ أعناقها النحيلة من فوق السور كي ترى هيئات الحيوانات الكبيرة الغريبة السوداء التي تمشي على رجلين اثنتين وتتمختر مثلهم. تغمز بأعينها حين ترى البرق الصاعد من الأرض هناك بين أخشاب السياج، والذي يتبعه هدير الرعد. ثم يسود الهدوء من جديد. استلقى أحدها على

الرمال، أقدامه ممدّدة ومنقاره مفتوح قليلاً. ثنت الرياح ريشه القصديري اللون والريش المتعدد الألوان الذي يزيّن أردافه المليئة. بقيت عينه مغلقة. لقد نفق.

تحرق أشعة الشمس الغابة ويتلألأ المستنقع. اختبأت الطيور تحت الأشجار هرباً من الخطر. التزمت الصمت لكن أحدها نسي نفسه وأخذ يدندن. بدأ غناءه قرعاً لطيفاً في البداية، وأخذ طائر آخر يردّ عليه، وعلا صوت الغناء فشمل الغابة بأكملها. غناؤها يشبه هدير محرك قديم، كصوت تنفّس حادّ ولاذع، يكشط ويتحرك كصوت تدحرج الصخور في الوديان، أو كصوت انكسار الأمواج في المغارات الشاطئية، غناء ينبض في السواحل ويعمّ كلّ زاوية في الجزيرة، ويملأ المنخفضات والمستنقعات، ويسيل في الجداول عبر كتل الحجارة البركانية ليصل إلى البحر. ما زالت الطيور تعتقد بأنها سيدة الجزيرة على الرغم من الموت الذي يقترب منها بخطا حثيثة. تحاول الطيور عبر الدو دو دو الحاد الذي تصدره أن تُفهم العالم بأن لا شيء تغيّر وبأن لا شيء سيتغيّر، بأنها لن تنقرض، وستبقى هنا إلى الأبد، وستتابع المشي على هذه الأرض بمشيتها المهيبة والغبيّة «كمشية رئيس بلدية» كما يقول التأريخ القديم، مشيتها التي تشبه مشية طائر بطريق لكن من دون جليد، مشيتها «بصفوف جيئة وذهاباً التي تضفي عليها هيئتها الحزينة» كما كتب بيير أندريه هيغرتي في عام 1751. لقد أيقنت أن مصيرها الفناء وأن الجنّات ليست خالدة، وأن الشرّ يدخل إليها يوماً بهيئة مغامرين جشعين وجائعين. لقد دخل الشرّ هذه الجزيرة ولن يُبقي أحداً منها.

حلَّ المساء في «ماكابيه» وابتعدت الطيور الضخمة المنعزلة عن المستنقع. لا بدّ أنها أدركت الخطر الذي يحوم حول نقاط المياه، الخطر المجهول كبضعة أطياف تمرّ هنا، أو خنازير برية ذات أنياب لولبية ناصعة بياضها يلمع على وجوهها الحالكة، أو قطّ رمادي، أو نمس هارب، أو

تزايد أعداد الجرذان الباحثة عن بيوض في الأعشاب. توقفت الطيور عند أطراف الغابة. غطّت أعينها الدائرية غشاوة وأثقل ضباب الليل رؤوسها فدسّت مناقيرها الضخمة تحت أجنحتها النحيلة ونامت.

يسمع صدى صرخات مجهولة في الغابة، نباح ومناداة. لقد عادت الميليشيات إلى الساحل. ما هي إلا بضع رفرفات أجنحة وبضع ليالٍ وينتهي عصر الطيور.

يُسمع الآن صدى أصوات الرجال. يطوف اللصوص في مزارع الجانجا. يقومون بفتح ثقب في سياج المحمية ليقوموا بتهريب أكياسهم المليئة بالأعشاب الطازجة. اتخذوا من الأشجار غطاء من ناحية «كاسكاد» أو «مانافا» في «بل فو»، أو في «لا بوتيت ريفيير نوار»، في الطريق إلى «كاز رويال» و«سان كوليت». ومصابيح اليد الكهربائية تعمل وتنطفئ وتعمل من جديد. نامي أيتها الطيور الضخمة، أيها الدودو الضخم. انزلقي إلى عالم الأحلام، أشيحي بنظرك عن هذا العالم وادخلي عصر ما قبل التاريخ، أنتم يا آخر من سكن هذه الأرض قبل أن تعرف مجيء البشر.

لا هارموني

كنت أعرف المرأة المكنّاة بالسوركوف. كانت أمي قد كلّمتني عنها، المرأة الأكثر غرابة من بين الجالية الفرنكو موريسية التي تعدّ عدداً لا بأس به من الأشخاص الغريبين والمختلّين عقليّاً. «جان توبي»، سمِّيت كذلك لأن أصولها تعود، كما يقال، إلى «روبير سوركوف»، ولأن لسانها طويل ولا تتردّد بالمبادرة لمعاكسة الآخرين. لم أحاول أن ألتقي بها فعلاً، ولكن في المقابل لا أستطيع أن أقول إني التقيتها مصادفة، فهناك، على الجزيرة، لا وجود للمصادفة. رحت أفكّر في عمليات الإنزال الأخيرة للعبيد بعد تاريخ 1810، بعد أن كان الإنجليز قد منعوا تجارة البشر وأغلقوا وكالات بيع العبيد الرهيبة في «كيلوا»، و«زنجبار»، و«فولبونت». لم يعد أمام التجار خيارات كثيرة، استمرّوا بتسليم العبيد بشكلٍ سرّي، في أماكن مقفرة بعيداً عن حرّاس الشواطئ. ولهذا السبب، وأيضاً لأسباب تتعلّق بمصالح استراتيجية، بنى الإنجليز أبراجاً للحراسة، عُرفت باسم أبراج «مارتيلو»، ونجد منها في جميع أنحاء العالم على الشواطئ التي يرتادها البريطانيون، في كورسيكا، وكيبيك، وإفريقيا الغربية أو في غرنيزيه، وبالطبع في موريشيوس. في مدخل «بور لويس»، عند منطقة «البرونوز»، بجانب «لا بوانت أو سابل» حيث الأبراج محاطة بالمساكن. وقد رغبت برؤية آخر

أبراج «مارتيلو» التي ما زالت قائمة بعزلتها الأبية، في منطقة «لا سالين»، قريباً من «لا ريفيير نوار»، إنه برج الهارموني. بعد نصف ساعة من السير تحت أشعة الشمس، وصلت إلى اللسان الأرضي الذي يؤدي إلى أنقاض البرج. كنت على الشاطئ الرملي الموحل والمليء بالأصداف المكدّسة، وكنت أنظر إلى البحر. كان آخر النهار، وكان بلا شك هناك شيء مقلق في هذا الخليج المغلق، والبحر المعتم والسماء الرمادية التي يخترقها الطيران البطيء لطيور قبّرة البحر المتوجهة إلى النوم. الغيوم الرطبة تلتصق ببرج «تاماران»، وتحجب الحسناء النائمة في «رامبار» عن النظر. على أطراف البرج وعلى امتداد الشاطئ، كان للبيوت المهلهلة الخشبية هيئة الأكواخ المهملة. لن تبقى هكذا لمدة طويلة، فعند مدخل الطريق الترابي، كان هناك لافتة تقول إنه على شبه الجزيرة هذه سيشيَّد مجمّع سكني على مستوى عالٍ، مع مسابح وشاطئ خاص على طول مصبّ الساقية الصغيرة، وإطلالة ساحرة على مرتفع «برابان».

كنت جالساً على الرمل، وعلى وشك الرحيل، لأني رأيت ما أريد رؤيته، الموقع الملعون للعبودية، حيث أُنزِل الأفارقة، شهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، قبل أن يباشروا في السير الإجباري نحو المناطق الزراعية. من المرجّح أن الأفارقة كانوا يوزَّعون هنا على أسيادهم الذين لم يحضروا شخصياً، بل كان يمثّلهم وكلاء. لم يكن المال يُتداول بينهم علناً، كل شيء كان يجري في أروقة بيوت التجارة، في «بور لويس» أو في «ماهيبورغ». هذا كان مجرد الفصل الأخير من الرحلة. أنت حصة السيد ليغو، أما أنت وأنت فإلى جوسيت. أنت للسيد غارنيه. وأنت، إلى دوفرين. أنت إلى كيغاليو. كان صدى الأسماء يرنّ في الخليج الصغير، لورو، ماغون، غاردان، مورو، بروتيت، موبيتويس، كونيام، مالرو، فابر، جيرون، روبينيه، لوريول، إيبرون، نوفيل، تريهوار، بوداس، لو ميم. كانت أرتال العبيد

تسير، تضيء طريقها شعلات. ومن أعلى الجبل، كان باستطاعة المارون مراقبتهم وهم يزحفون كنملٍ مضيء عبر الأدغال.

جان توبي امرأة لا سنّ لها، قصيرة القامة وجافة، عيونها سوداء، شعرها قصير لونه رمادي مائل للصفرة. بشرتها مجعدة، ملوّحة، ومبقّعة من أثر الشمس. خرجت لتكلّمني مباشرة، وقفت أمامي ويداها في جيوب بنطالها العريض جداً نسبة إلى قامتها.

«من أنت؟».

تردّدت في الإجابة، فكرّرت وقد بدأت تفقد صبرها:

«من أنت؟ ما اسمك؟».

وبما أن اسمي لا يعني لها شيئاً، ذكرت اسم أمي، أليسون أوكونور، واسم أبي ألكسندر فيلسن.

«عرفت في الماضي شخصاً من عائلة فيلسن، كان مجنوناً يدور في كل مكان هيئته كفزاعة الطيور. كان "بردي باند" كما يقال في موريشيوس. ثم اختفى، لا نعرف أين».

بردي باند، هو الشخص الذي ضيّع جماعته أو عائلته، الشخص الذي بات من دون أصدقاء، مشرّداً.

«ما كان اسمه؟».

تردّدت جان قليلاً.

«فيلسن، أقول لك، كنا نعرفه باسمه وليس بنسبته، اسمه دودو. وكان له تسمية أخرى أيضاً، كو لا روس (ضربة حجر)، كأنه صخرة نرميها، لم أعرف يوماً لماذا سُمّي كذلك».

كنت أودّ معرفة المزيد، لكنّها لم تكمل حديثها، وأنا لم أُصرّ. تابعت

هذيانها المعتاد عن بناء المجمّع الفاخر في هارموني، وعن الشاحنات التي تسير على الأرض الترابية لكي تنقل الرمل الذي سيردمون به الخليج في طرف شبه الجزيرة، حيث سيكون المرفأ.

«انظر إلى هذا!» صعدت جان توبي نحو الطريق لكي تنهر سائقي الشاحنات: «ألا يخجلون! سيدمّرون كلّ شيء، كلّ يوم مساءً أزيل طبقات من الغبار في بيتي، مزروعاتي كلّها على وشك الموت!».

ثم قدّمت لي نفسها: «جان توبي، تعال، سأريك!».

بيتها صغير ومعتم، وفيه رائحة عفن، قد تكون رائحة المرأة العجوز. ألقيت نظرة على الغرفة، بينما كانت تحضّر الشاي على سخّانها، غرفة يتيمة، ممتدّة طولاً وضيّقة، تشغل المفروشات وقطع الزينة كلّ حيِّز فيها.

«لماذا يسمّونك السوركوف؟».

تهكّمت جان، ثم استعادت وقارها: «آه، أتعرف هذا؟ هنا كل شخص له تسمية ما. يبدو أني أتحدّر من ذلك البحّار، شخص من سان مالو في بريتانيا، ولكني لست فخورة بذلك. كان ملّاحًا جيّداً، ولكنه كان أيضاً حقيراً، كان واحداً من كبار تجار العبيد، وقد مات في بيته في فراشه معزّزاً مكرّماً، في بيته الجميل الذي بناه بثروته. له قبر رائع في سان سيرفان، لكنني لم أذهب يوماً إلى فرنسا لكي أرى قبره. فرنسا حلم ممنوع على من لا يملكون قرشاً، مثلي». كان الشاي الذي قدّمته لي مُرّاً، على الرغم من أنها وضعت فيه كمية كبيرة من الحليب المركز. «تعيشين هنا وحدك؟». كانت جان منشغلة في المطبخ قبل أن تعود حاملة صحناً، طرفه مكسور وعليه ثلاث قطع من البسكويت الجاف. «نعم، بكل تأكيد، من قبل كان أولاد إخوتي يأتون لزيارتي، فهم لديهم مشغل عند رأس الجزيرة حيث يصنعون مراكب شراعية، ولكن مع هذه القباحة التي يبنونها هنا لم يعودوا

يرغبون بالمجيء. البحر قذر، الأسمنت في كل مكان، كل الناس رحلوا، وأنا أيضاً سأرحل». كانت تشير بيديها فأوقعت ملعقتها على الأرض. تتداخل الدوالي في ساقيها كما لو كانت ضفائر، أظافر قدميها طويلة ووسخة ومائلة قليلاً كمخالب الحيوانات، تمشي حافية القدمين على البلاط، ولا بدّ أن الأطفال يرون قدميها كأقدام الساحرات. كانت تردِّد بخشونة: «الرحيل!». للحظة ظننت أنها تطردني من المكان، لكنها تابعت كلامها: «عندما كنت طفلة، هنا، في هارموني، لم يكن هناك أناس تقريباً. فقط بعض أكواخ الصيادين، وقد بنى أبي هذا الكوخ لكي يذهب إلى الصيد في الخليج، لكي يكون بعيداً عن مصرفه. لم يكن لدينا لا كهرباء ولا ماء جارٍ، لا شيء. كنا نقطع الساقية حفاة لكي نزور خالاتي في الجهة الأخرى، جهة «كونيك» و«ماهوت» و«سان ليجيه»، الجهة الأخرى كانت مرتّبة، ليس كما هي الحال هنا. هنا كان الشاطئ أسود يعجّ بالأسماك الصخرية المرجانية والسرطانات وسفن الصيادين». لم اتجرّأ على قطع هذيانها لأسألها السؤال الوحيد الذي يهمّني. «كنا نسبح في الساقية مع أبناء وبنات خالاتي وأعمامي، ليس في البحر، كان هذا خطراً، الفتيات لا يخلعن ثيابهن، وندخل في الماء حتى الرقبة، نبول في الساقية، كان هذا يدغدغنا، وكنا نضحك بسبب الأسماك الصغيرة التي تعضّنا، ولكننا لم نكن نصرِّح بذلك».

قامت جان بمرافقتي في زيارة صالونها. كان هناك على الرفوف كتب أغلفتها من الجلد المخضرّ بسبب الرطوبة، وفي خزانة الصحون، كانت هناك صحون الشركة المزيّنة بالورود الملوّنة بكل الألوان وإناء حساء مكسور طرفه، قالت جان إنها لا تستخدمها. هل هذا فقط ما بقي من غنائم القرصان؟ على الطاولة كان هنالك الصحون والأشياء التي تستخدمها كلّ يوم، قصعات مطليّة بالمينا، وقدرٌ أزرق، وكؤوس لوضع الخردل،

وإناء ماء من البلاستيك المهترئ. كان هنالك كنبات إنكليزية كولونيالية خشبية، ومزهريات موضوعة على الأرض، ودجاجة صينية مستندة على إطار لوحة، كانت جامدة إلى درجة دفعتني للظن أنها محنطة. أبواب وشبابيك البيت مفتوحة على مصاريعها، وكلبة عجوز بيضاء تستلقي على العتبة لم تتحرك عندما اقتربت منها، ولكن أذنيها كانتا مشرعتين لسماع صوت الشاحنات التي تعبر بسرعة الطريق. «اسمها زيلي، والدجاجة اسمها زيستين» قالت جان. هل جاءت هذه التسميات اعتباطياً؟ وبينما كنت أنتهي من شرب كأس الشاي، جاء صبيّان للسؤال عن الأخبار. سمعت جان تكلّمهم بلغة الكريول، وفهمت أنها كانت تبدِّد قلقهم حول وجودي عندها موضحة أني لست مرسلاً من قبل القائمين على مشروع هارموني لمساومتها على بيع بيتها. «إنهم صبيان جيّدون»، علّقت جان توبي، «يسكنون على بعد مسافة قصيرة من هنا، بجانب البرج، سيكونون أكثر المتضرّرين حين يبدأ العمل بالبناء».

لم أتطرّق للأمر في أسئلتي. «الأصغر هو مينغام، وصديقه بيير. استقرّا هنا لكي يمارسا رياضة ركوب الأمواج والصيد، إنهما النسخة الحديثة من روبنسون كروزو. ولكن الأمر انتهى بالنسبة لهما ولم يفهما بعد أنه سيكون عليهما الذهاب إلى مكان آخر، وسيكون هذا حال كل الناس الذين لا يملكون مالاً!».

بقيت جالساً على طرف الكرسي، لا أعرف كيف سأغادر. لم أملك الشجاعة لطرح الأسئلة التي جئت أطرحها عن هذا الشاطئ الأسود الذي وصل إليه جدها الأكبر، القرصان المقدام، قبل مئتي عام، وأنزل من سفينته المسماة «الأفريكان» حمولته البشرية من أجل مزارعي «باي»، «بو باسان»، و«بلين ويلهيمز». لا شك أنه لم يكن حتى على سطح السفينة. ربما كان في مكاتبه في «رامبار ستريت»، أو عاد إلى «سان مالو» ليعيش آخر أيامه في

مزرعته في «سان سيرفان»، دون أن يشغل باله أو أن يفكّر في هذا الجزء من العالم، الذي أُلقي فيه رجالٌ ونساء وصبيان ترنّحوا على الرمل، وامتلأت أجسادهم بالجروح والتهم الأسقربوط لثّاتهم. كانوا يرتجفون من الحمّى والخوف، ويحرّكون حدقات أعينهم مذعورين أمام أجمل المناظر في العالم، المنظر الذي سيتحوّل إلى قبرهم قريباً.

خرجت من عند جان توبي. حاولت من دون نتيجة أن ألمح الأشباح، الأرواح الهائمة بين البحر وصخور الجبال السوداء. بعد هطول مطري سريع في الأعالي، انقشعت غيوم السماء على قوسٍ يمتدّ من طرفٍ إلى آخر في الأفق، وأضاءت الشمس حقول القصب وأشجار الغابة، كما لو أنه ليس هناك بشر على هذه الجزيرة. إنها الساعة التي تُنزل فيها القوارب حمولتها من الأسرى، في صمت الغروب الذي لا يقلقه سوى صوت قبّرة البحر الخشن وصوت انكسار الموج على الرمال وانحساره. لم يعد هناك الآن إلا صبيان وبنات عائدون من رياضة ركوب الأمواج، يرتدون لباس التزلّج الأسود الذي يجعلني أخلط بينهم وبين أجساد الأفارقة والمدغشقريين اللامعة الذين تلفظهم السفن، مقيَّدين كلّ اثنين معاً.

لحقت بي جان توبي إلى الشاطئ. كانت هي الأخرى تنظر إلى الخليج الذي يحلّ عليه الليل. أوشكت أن أقول لها كلمات عابرة، مجرد بضع كلمات للمواساة لكي تنسى هوسها - فقد تموت قبل أن تنتهي الورشة - لكنّها هي التي تكلّمت عن الأشباح.

«أترى هذا البلد الجميل، هذا الجزء من الجنة، هكذا يصفونه في الكتيبات، كان هذا ما يراه الذين يصلون عبر البحر في البداية، خيط الجبال الذي رسمته الساحرات، أو ربما الشياطين». صوتها خافت وأشعر بأنه يحمل نوعاً من القلق. «لا يمرّ يوم من دون أن أفكر، في كل الأجساد التي تقذفها الأمواج على هذا الشاطئ، وكانوا يرمون عليها الزفت، لكي

يحرقوها، لا لسببٍ دينيّ، إنما لكي يتداركوا العدوى، أو لكيلا يتركوا أثراً. الأهوال يا سيد أو كونور»، كانت قد نسيت اسمي، «إنها الأهوال مهما قالوا. الناس يأتون من كلّ مكان، يقضون إجازاتهم في قصور على ضفاف الماء، ويقولون: "آه يا لجمال هارموني! يا للاسم الجميل، أليس كذلك؟ فيها نكون مرتاحين، ننعم بالهدوء، أفقنا هو البحر، بعيداً عن أهل موريشيوس. نحن بين أقراننا فقط". ولكن في كل مساء، إذا أتوا إلى هذه الناحية، سيسمعون مثلي أصوات الموت، وبكاء الأطفال، ضرب السياط، شتائم الحراس، وعواء الكلاب!».

لم يكذبوا عليّ. السوركوف هي فعلاً سليلة القرصان، مستعدّة لأن تنتقد كل ما لا يعجبها، بما في ذلك إرث سلفها. لم تنم على ذهبها، ولم ترتدِ ثياباً احتفالية، ولم تُحِط نفسها بالمنافقين والأبّهة. إنها وحيدة تواجه الأشباح على هذا الشاطئ الأسود. «ستعود لتزورني، أليس كذلك؟». لم أعِدها بشيء. الحياة قصيرة وهذه الجزيرة لا متناهية.

إميلين

اسمها إميلين كارسيناك، وعمرها أربعة وتسعون عاماً، إنها آخر ذرّية سيبيل، ابنة أكسيل. أردت أن ألتقيها لأنني أعلم أنها عرفت والدي في طفولته، وبما أنها قريبتنا من بعيد، فإني أسمّيها الخالة. كانت قد غادرت مزرعة ألما منذ مدة طويلة وذهبت لتعيش في كوخ من الخشب من جهة مؤسسة «مهاتما غاندي». تعيش وحدها على الرغم من سنّها المتقدّمة، إلا عندما تتشارك سكنها مع عجوز أخرى، نزيلة «بون تير»، سيدة اسمها أولغا، كانت مغنّية أوبّرا على ما يُحكى عنها، أصولها من منطقة «بو»، انتهى بها الأمر هنا بعد حياة مليئة بالمغامرات. حصلت على عنوانها من خلال السيدة باتيسون، صاحبة البيت الذي أقطن فيه في «بلو ريه». ليس هناك رقم هاتف. إذا أردنا التواصل معها هاتفياً من الممكن أن نتصل بالدكان الصيني في ملتقى طرق «موكا»، عندئذٍ كان السيد «لي» يرسل صبيّاً على دراجة لكي يخبرها ويعود بعد نصف ساعة حاملاً جوابها. إميلين لا تملك نقوداً، وليس لها علاقات، لقد قطعت كل علاقة لها مع الناس الذين لهم شأن، مثل عائلة أرماندو، وروبينيه دو بوس، لي إيسكاليه، وسكان ألما. على كل حال كل أفراد جيلها ماتوا. ولكن الناس لهم ذاكرة طويلة، يتذكّرون الزمن الماضي عندما كانت إميلين كارسيناك شخصاً معتبراً. وقد بقيت

السمعة. استقبلتني إميلين عند باب بيتها. إنها عجوز صغيرة ترتدي نوعاً من الثوب-المريلة، وشعرها مصفَّف إلى الوراء، قدماها عاريتان في خُفّ البيت. تبدو قوية نسبةً إلى سنّها، وهي ليست بحاجة إلى عكّازة. وجهها المجعّد، الملوّح بالشمس، والخالي من الأسنان كان ليشبه وجه هندية من أميركا نوعاً ما، لو لم يكن لون عينيها أخضر مضطرباً.

«تعال لرؤيتي، اقترب!». رفعت الكلفة من البداية، لأنها تظن أننا من النسل نفسه، أو أنها ترفع الكلفة مع الجميع، على الطريقة الكريول. «لا بدّ أنك تشبه والدك، عرفته بالفعل، لا بدّ أنه حدّثك عني؟».

لا أذكر أنه حدّثني عنها. والدي لم يكن يذكر شيئاً عن فترة ألما. على الرغم من ذلك، ابتسمت وقبّلتها، وكذبت عليها: «بالتأكيد، يا خالتي، كان يكلّمني عنك دائماً». جلبت لها هدية معي، الشيء الذي تحبه كما أسرّت السيدة باتيسون لي، زجاجة عطر من نوع «ملكة الورد» برائحة الكومارين، شمّته إميلين وأغلقت عينيها. هي رائحة حادّة ومحلّاة كالسكّر، بقايا زمنٍ مضى.

جلسنا تحت الشرفة التي هي أشبه بمظلّة منها بالشرفة، سقفها عبارة عن قطع من البلاستيك المربوطة بعضها بالبعض الآخر، تحملها دعامات من حديد ملوّن بلونٍ أخضر كالجنائن. البيت بعيد نسبياً عن طريق «موكا»، ومن وسط أشجار الحياة الكثيفة، يمكن متابعة حركة السيارات والشاحنات من الشرفة. إنها الساعة الحادية عشرة صباحاً. ذهبت إميلين لتحضر الشاي بالحليب. وإذ بي أسمع صوتاً قوياً لرجل في المطبخ: «من يكون؟».

عندما عادت إميلين علّقت: «إنها أولغا المقيمة عندي، إنها البوّابة هنا نوعاً ما». ثم صرخت متوجهة إلى داخل البيت: «أولغا! تعالي للتعرّف على قريبي جيريمي!». استغربت من أنها حفظت اسمي. لربما استفسرت

عن وجودي على الجزيرة، هؤلاء العجائز مثل العنكبوت ينسجون بيوتهم على كل الأرض المحيطة بهم.

لم تأتِ أولغا. يبدو أنها في مزاجٍ سيّئ. كانت السيدة باتيسون قد نبّهتني: «مغنّيتها ليست سهلة. أحياناً تبقى أولغا وإميلين أياماً من دون أن تتبادلا الكلام، كل واحدة منهما متمترسة في جهة من البيت، تتواصلان عبر رسائل تمرِّرانها من تحت الباب».

كلب صغير رمادي اللون، ألطف من صاحبته، جاء ليسلّم عليّ، وعندما سألت إميلين عن اسمه أجابت: «كيف لي أن أعرف؟ بالنسبة لي كلّ الكلاب اسمهم ليسيان». يا لها من فكرة، كيف لم تخطر على بالي! هنا أيضاً أحضرت صحناً مكسوراً عليه خمس قطع بسكويت «نابوليتان» زهرية. «إذا حدّثك والدك عني، فلا بدّ أنه أخبرك كيف كنا نركض في حقول القصب لساعات، مثل أطفال البراري. أنا أكبر منه بثلاث أو أربع سنوات، لذا كنت أنا من يقوده، كنا نذهب إلى أعلى التلة لنصطاد السحالي أو نتوجّه نحو المستنقع». لم أجرؤ على القول لها إن أبي مات منذ سنوات، على كل حال لقد وصلت إلى سنٍّ لا تشكّل لها هذه المعلومة مفاجأة. أتذكر أنني نظرت إلى مخطّط ألما، جزءاً وراء جزء، وأذكر كل أسماء المناطق المجاورة، «سيركوستانس»، «لافينير»، «فيردان»، «لامار»، «بار لو دوك»، «لا داغوتيير». لست بحاجة إلى تعداد الأسماء، لأن إميلين استرسلت في حديثها. ولكنْ، خلافاً لأسلوب جان توبي، حديثها مليء بالفانتازيا والذكريات الجميلة. «في فترة حصاد القصب، كنّا نمرح، نركض في كلّ مكان، كانت رائحة القصب اليانع تدوّخ الأطفال، ولهذا كان الأطفال سكارى، كانوا يدورون في كل مكان، كان المصنع يدور بكامل طاقته، والأطفال يجمعون القصب الذي يقع من الشاحنات، أحياناً كنّا نلتقي بمجموعات من قاطعي القصب، لم يكونوا يلتفتون إلينا حتى، كانوا

يتقدّمون بصفوف حاملين سواطيرهم، فران فران! ونحن كنا مستلقين بين القصب مثل القنافذ، كان من الممكن أن يقطعونا نصفين، كنت أنا التي تعطي إشارة البدء، وكنا نشدّ الآخرين من أكمامهم ونجري حتى الأسفل، باتجاه الماء. كان الطقس حارّاً لدرجة أننا كنا ندخل في المياه السوداء من دون اهتمام بثيابنا، على الرغم من معرفتنا أننا سنُوبَّخ عند عودتنا إلى البيت». إميلين تتأرجح قليلاً على كرسيّها، لا ترتشف شايها، ولا أنا أيضاً، صوتها واضح من دون رجفان، وأنا أرتوي من كلامها، لأنها تقول ما لم يقله لي أبي ابداً، إنها ذاكرة عالم اختفى. «موسم الحصاد لم يكن يدوم طويلاً، في تلك الفترة كان مئات العمال يجتاحون ألما. كانت الشاحنات تغادر محمّلةً بالقصب الذي كان بعضه يسقط من الشاحنة على طول الطريق، فيقوم الأطفال بجمعه، وكذلك عجائز الناحية، كنّ يجمعنها في رزم ويحملنها على رؤوسهن، فيما كنّا نسير ونحن نمصّ القصب. لم أتذوّق في حياتي شيئاً طيّباً كهذا، إنه حلو ومرّ في آن، كان له طعم الأرض...».

كانت تتأرجح على كرسيّها الذي يزقزق، صوتها عبارة عن مدوّنة، عن صلاة. في المطبخ، كانت أولغا تتذمّر وتقلب الأشياء. ربما كانت تستمع هي الأخرى، من دون تركيز، لأنها سمعت هذه الذكريات مئة مرة، ولكن في الوقت نفسه لا يمكنها تخيُّل هذا العالم، لا يمكن لأيّ مغامرة أن تتساوى معه. «كنّا نجلب القصب ونتركه على مدخل المطبخ، كما لو أنه سينفع لشيء، أظن أن الخادمة كانت تعلف به البقر... بيتنا كان بعيداً عن الحقول، ناحية سيركونتانس، بينما أولاد أعمامنا كانوا يسكنون جانب السكة الحديدية، في الأعالي، لكن هناك نصبح خارج ألما، هناك كانت منطقة ليريش المحاذية للقناة. كنا نتمشى على طريق السكة ولكن القطار لم يكن يمرّ من هناك منذ مدّة، وفي بعض المواضع كانت السكة مفكّكة...

بيتكم كان أجمل من بيتنا، والدك ولد فيه، الورود في كل مكان، أزهار، وممرّ من شجر النخيل، وبركة صغيرة. كنت أحسدكم، كنت أودّ أن أسكن هناك، ولكن نحن كنا نقيم قريباً من المصنع، لم يكن هناك حدائق، ولا أشجار، وعندما يبدأ موسم تقطيع القصب كانت غبرة الشاحنات تقع في كل مكان، كانت أمي تتأوه، ها قد بدأ، سنعيش في هذا الجو كأننا في بومبي، سيغمرنا الرماد».

توقفت عن الكلام ومسحت عينيها، أظن أنها انتظرت كل هذه المدة قبل أن تحكي عن الماضي، وأفهم أنها تخترع كل هذا، تخترع قصة السكان، الكارسيناك، وخاصة قصة الفيلسن، وهي تلفظه «فيسين» على طريقة الكريول، وألما، ليس بسبب معركة حرب القرم، وإنما لأن ألما هو اسم زوجة أكسيل، ألما سليمان، أول امرأة تسكن هنا. كانت موضة الأسماء الإيطالية، روحها هي التي تتكلم عنها، ألما ماتير، الأم المرضعة. من غيري يمكن أن يصغي إليها؟ ليست أولغا بالتأكيد التي لا تفكر إلا بالأكل! والآخرون.. الآخرون لا يهتمون بهذا الأمر، إنهم أبناء جيل آخر، جديد، لم يعرفوا سوى الطرقات المزدحمة، والمراكز التجارية، «كارفور»، «دارتي»، «كوروماندل»، والآن مشروع مايا الذي يجذب كل هذه السيارات التي تمرّ من أمام كوخ إميلين كارسيناك.

«أترى يا جيريمي، عندما رحل والدك عن هذا المكان، بدا لي وكأن أخي الصغير هو الذي رحل، وعدني أن يكتب لي، ولكنه عندما وصل إلى فرنسا نسي كل شيء. أرسل لي بطاقة مرة واحدة بمناسبة زواجي، تهانينا(*) والتوقيع، لم يستعمل اللغة الفرنسية حتى. لم يصلني منه بعد ذلك شيء. كان لديّ عنوانه، لكني لم أكتب له. فكرت بأن كل شيء بيننا قد انتهى.

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

بالفعل انتهى، أليس كذلك؟ لم يبقَ شيء من ذلك الزمن. توفي زوجي، وأفلسنا، رحل أولادي ليعيشوا في أماكن أخرى، واحد في فرنسا، والآخر في أستراليا، كل أحفادي بعيدون، في سويسرا، وفي جنوب إفريقيا. إنهم يدرسون ولا يأتون إلا مرة واحدة في السنة، يذهبون إلى البحر، موكا لا تعنيهم، أترى أين أعيش أنا؟ يتصلون هاتفياً بالصيني فقط ليعرفوا ما إذا كنت ما زلت على قيد الحياة. بينما أنت تأتي لزيارتي. لا أعرف كيف أعبّر لك، أنا أسترجع قصتي، ألما، ومزارع القصب، الساقية، الغدير، كل هذا لم يعد موجوداً، انظر إلى ما بقي منها!».

لم تُرني صوراً، أو تُحفاً. بيتها فارغ. وأنا لدي سؤال أسألها إياه هي الأخرى، ولكنني لا أعرف كيف أقوم بالأمر. إميلين عجوز وآفلة. إنها تشبه نجمة تلمع مع أنها لم تعد موجودة. تتكلم عن أشخاص لا أعرفهم، تعدِّد أسماء: «أتعرف أيَّ شيء عن إميلي لوجون، وعائلة وايس، سودين، وبيريت بيرمود، وخالاتي لوجال، سيسيل، وسيمون؟ هل كان أبوك يحدِّثك عن هؤلاء الناس؟ هل كان يحدّثك عني؟ لقد رحل عندما كان شاباً صغيراً، كان صبيّاً جميلاً، أسمر مثلك، مع لحية مهذبة، وشعر طويل رومانسي. بعد ذلك تزوج أمّك الإنجليزية في لندن، وسرت الأخبار هنا، دبّت الغيرة بالشابّات، وانتقمن بأن تزوّجن من أي زوج تقدّم لهن. الحقيقة كل ما كنّ يأملن به هو شخص يأخذهن بعيداً عن هنا، عن بلد الأفاعي هذا، كما كان يقول والدي، أنا أيضاً انتابتني الغيرة، ليس مثلهن، بل لأنه لم يُعْلِمني بمشاريعه أبداً، وعرفت الأمر على لسان أمي: أتعرفين؟ إن ألكسندر حبيبك سيتزوج من إنجليزية، أتستوعبين الأمر؟»َ.

أستمع إلى ثرثرتها، لقد تعوّدت على هذا مع جان توبي، لكنني فعلاً أودّ أن أطرح عليها السؤال، السؤال الوحيد الذي يهمّ. لا أعرف ما إن كان يحقّ لي ذلك، أنا الذي لست من هنا، ولا أعرف شيئاً عن الحياة على

الجزيرة، أنا الذي أعيش بعيداً إلى هذا القدر، محتمياً بما أحمل من يقين. أنظر إلى وجهها العجوز، البشرة ملتصقة بالجمجمة، ومبقّعة ببقع سمراء بسبب السنّ وأشعّة الشمس.

«هل حكى لك عن المرة الأولى التي ذهبنا فيها معاً إلى السينما؟ كان ذلك مباشرة قبل رحيله، وكان جدّاك قد انتقلا من ألما إلى روز هيل. هو كان قد تطوّع في الجيش ليهرب من هذه المصيبة، وكان يلبس لباسه الكاكي، ويضع طاقيّته، كان قد وقّع على التزامه لكنّه لم يخبر أحداً، كان عمره تقريباً خمسة عشر عاماً، واضطر إلى تزوير أوراقه ليصبح في السن القانونية. التحق بالجيش الكولونيالي، لكي يتدرّب في الغابة. ركبنا القطار حتى كوربيب، كان المطر يهطل بغزارة، وكان يحميني منه تحت معطفه العسكري. ذهبنا إلى السينما لنرى فلماً صامتاً، «أوديب ملكاً»، لم يعد أحدٌ يعرف أوديب، بعد ذلك أكلنا كعكاً في مكان لبيع الحلويات قرب كارنيجي، ثم أعادني إلى سان بيير. كانت هذه آخر مرة، بعدها لم أره قطّ». يبدو لي أنني وجدت طريقة. انحنيت قليلاً، لأنني رغبت أن تنتبه لما سأقوله لها: «أيتها الخالة، هل عرفت توبسي؟». انبهرت من سؤالي، ولم تُجب مباشرة. «تعني... توبسي، توبسي العجوز الذي كان في ألما منذ القدم؟». أظن أنها فهمت مغزى سؤالي. «أنا لا أذكره، وأعتقد أنه مات قبل أن أولد، ولكن الجميع كانوا يتكلّمون عنه، عن كيف وصل إلى الما، وكيف وضعوه في العربة، وكيف هرب واختبأ في الشجر لأنه كان يظن أنهم سيأكلونه». كانت هذه ذكرى قديمة لدرجة أن وجهها تشنّج، كما لو أنها تقوم بجهد لتنتزعه من حيّز النسيان. «نعم، كلَّموني عن كل هذا، وأخبروا والدك، وأخبروك أنت أيضاً، توبسي المعلّق على شجرته، والناس من أسفل يصرخون: انزل، لن يأكلك أحد، لا تخف، توبسي، تعال معنا! لقد كان كقطّة متمترسة على شجرة، ولكنه كان حرّاً. لقد أُخذ من على باخرة

كانت تنقل العبيد في عدن، ولم يعرفوا ماذا يفعلون به، فأعطوه إلى عائلة فيلسن في ألما، وهناك عاش. عندما مات، لم أعرف أين دفنوه، أظن أنهم دفنوه في الغابة الصغيرة قرب المستنقع. كان قد أمضى حياته وهو يصطاد الحمام في الغابة، الكلّ كان يتكلّم عنه، كان جزءاً من العائلة». فكّرتْ قليلاً، فتفتحت ذاكرتها أكثر: «كان هناك الكثير من السود في ألما، وأعرف أنهم في فترة من الفترات كانوا تقريباً بعدد السود في "بو فالون"، مئة أو مئة وخمسون، ولكنها لم تكن قد سُمّيت بعد ألما، كان اسمها "هلفيثيا"، أو "سان بيير"، لم أعد أذكر. كان هناك معسكر بالقرب من بيتنا، زرت المكان مع والدي، وأراني يوماً ما تبقّى من مخيّم السود القديم، بجانب المصنع. كان ما يزال هناك بضعة أكواخ، ولكن كان يسكنها بعض العجائز، يا للبؤس. كل هذا قديم جداً، أعرف. لم يبقَ شيء، سوى الأسماء، مخيّم "كافيتا"، ومخيّم "كافيير"، وبعض الآثار في الحقول، كالصخور السوداء المكدسة على شكل جدران، التي يُسمّونها الأهرامات الكريولية، والتي أريد أن أسميها صرح شهداء زراعة قصب السكر». قامت إميلين بحركة تقصد بها إبعاد هذه الاشباح. «نحن البنات كنا نحلم بالذهاب إلى أوروبا، خاصة باريس، ولكن هذا كان يبقى على مستوى الحلم إلا إذا تزوجنا من ضابط بحريّة أو بورجوازي باريسي. لكنهم لم يكونوا يأتون بكثرة إلى هذه البقعة من الأرض. كنا نسكن ألما، ولكن لم تكن لنا علاقة بصناعة السكر، أو عالم الأعمال، لم يرث والدي شيئاً، كل شيء ذهب للآخرين، لأهالي سيركونستانس. لا بدّ أنك تعرف كل هذا، تعرف أسماءهم، نحن، نحن سكنّا هنا لأنهم أحسنوا علينا وسمحوا لنا بذلك، هذا ما قرّره القرصان العجوز أرماندو، الإحسان، لكيلا نجد أنفسنا في الشارع. أما أنتم، والدك وأجدادك، فكنتم تسكنون في بقعة جميلة، قرب النهر، مع كل الأشجار المثمرة، شجر المانجا، وشجر الليمون الهندي، وغابات النخيل، وبالتأكيد

كانت عين عائلة أرماندو على كل هذا، كانوا يريدون ما عندكم، لهذا عندما أفلس المصنع، أعلنوا أنكم لا تملكون صكّ ملكية المكان، وأن البيت والأشجار هي جزء من الحقول، وأنهم سيستردّون كل شيء ليبنوا بيتاً لإداريين في شركتي "لونرهو" و"شوغار أيسلند"، وهذا ما فعلوه، ولهذا السبب أيضاً تطوّع والدك في الجيش، ليس لأنه كان مدفوعاً لدرجة عالية بشعور وطني، بل لأنه لم يكن يريد أن يكون حاضراً عندما تقع المصيبة... وكما ترى، نحن أيضاً، رحلنا، صارت الحياة لا تطاق، كانوا يضعون تفل السكر ليجفّ في الباحة، والشاحنات، كل ضوضاء الشاحنات الجهنمية. وعندما لم يكن موسم الحصاد كان هناك موسم الفلاحة، أو كانوا يحرقون بقايا القصب في الهواء الطلق وكنا نعيش في الضباب».

بقيت عند العمة إميلين مدة طويلة. لم يكن في بيتها شيء، ولا غرض مألوف. أحببت ذلك، لأن هذا الفراغ يعطي قوة أكبر للذكريات، لأنها تصبح متخيّلة. لقد أعطت كل شيء لبنات إخوتها، ولأحفادها، لم تُبقِ لديها إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه من أثاث، الطاولة التي لم يرغب بها أحد، لأن وزنها أطنان، كراسي مخلّعة، وأدوات المطبخ التي تعود إلى الأربعينيات، قصعات من دون ممسك، كؤوس وصحون أطرافها مكسّرة. لا يعنيها هذا الشيء: «أترى يا جيريمي، وُزعت التركة ولم يعد لألما وجود، وهذا أفضل، تلك القصور التي كانت تعود إلى الأغنياء البيض كانت فعلاً مدعاةً للسخرية!».

على الصوان، كتاب غلافه من الجلد الأسود، متآكل بفعل الزمن والعوامل: «تقليد يسوع المسيح»، ترجمة الأب لامونيه، أتذكر أنني رأيت شبيهه على الطاولة جانب سرير أبي. علّقت إميلين: «كان لجدّة جدّتي سيبيل، وقد أهداها إياه أكسيل، بسبب ميلها إلى التديّن، حسبما

أتوقع». على الصفحة الأولى قرأت الإهداء: «لسيبيل، من أكسيل فيلسن»، والأحرف الأولى من اسمها مكتوبة باللون الذهبي، ألف وفاء متقاطعين.

«يحصل أن أعيد قراءته»، قالت إميلين. «لقد تجاوزه الزمن قليلاً ولكنني أحب بعض الجمل فيه، تقول الكلمات إننا يجب أن نزهد في العالم، وهذا مناسب لي، على كل حال ليس لديّ خيار، أليس كذلك؟». ثم تنطلق في خطابها المفضّل، خطاب عجوز لم يعد لديها سوى الذكريات البعيدة. أظن أنها نسيت من أكون، أو أن الأمر غير مهم بالنسبة إليها». لقد اختفوا، لم يعد أحد يتذكرهم، كيف نقول بالإنجليزية؟ dead as a dodo، ميت مثل دودو، هكذا تماماً.. كوسيني، مينغارد، بوريه، غارنيه.. دوفرين، بروتيت.. مورو دو بيرس، لو فير، تريهوار، بورت باربيه.. كيرغاليو، كيرفين.. لو رو، لو بون، كوشيه.. كونيام، لا روك، مال فيل، لاكومب، مالرو.. فابر.. جيرون، لوريول.. إيبرون.. لو نوفيل.. يا له من تعداد! تُهَمهِم، والعينان شبه مغلقتين. «كل هذه الأسماء، كل هذه العائلات... الحفلات التي كانوا يقيمونها، الأعراس، حفلات التجديف، سلال الزهور، الموائد المليئة بالفاكهة... الولائم. في المطاردات كان العم رافيل، متأنّقاً دائماً بالبدلة السوداء، والعم بيستيل الرجل القوي، كان يحمل أيلاً على أكتافه لوحده، ويضعه على النار للشوي... في حضنه حفيده، كان العم بيستيل يجبره على أكل اللحم النيء تقريباً: هيّا كل، كن رجلاً! كان يدفع بالقطع في فمه، يكاد يخنقه، يا للطفل المسكين!».

إنها تتجه إلى الأشباح، هي الأخرى. «كنا نرقص بعد الظهر، لا أتذكر أي رقصة، رقصة الرباعية، أو الفالس، كانت أوركسترا كريول، تعزف بشكل جيد على الكمان، والقيثارة، حتى على بيانو صغير بذنب، كانت الصبايا يلبسن أجمل الفساتين من الأورغانزا، كنت أضع عصبة زرقاء في شعري، وكنت فخورة جداً بهذا، كنا ننتظر وصول أمير أحلامنا الذي

سيخطفنا، عسكريّاً فرنسياً أو حتى إنجليزياً، شرط أن يأخذنا بعيداً عن هنا، إلى باريس أو لندن، لكنه لم يأتِ أبداً، أو أنه إذا أتى رحل فور مجيئه، هم كانوا يرغبون بالفتيات ولكن لم يرغبوا بعائلاتهن، وأظن أن العائلات كانت تخيفهم بكل مظاهرها وديونها... أتعرف قصة ذلك الإنجليزي، الكاتب، ضابط البحرية، ماذا كان اسمه؟ كونرد كورزينيوسكي، من أصل بولوني كما قيل، كان ضابطاً في البحرية البريطانية، هنا العائلات تحب الضباط البحريين، استقبلته عائلة فيلسن، ورقص مع صبية العائلة، ثم فجأة، ذهب إلى سفينته ولم يعد أبداً! ما زالت الصبية تبكي من جراء ذلك، لا، أنا أبالغ فقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، ولكي أقول لك كامل القصة، إن الصبية هذه كانت جدّتي، حفيدة سيبيل!».

مدفوعة بذكرياتها سارت وهي تعرج نحو الخزنة الصغيرة. سمعتها وهي تتصفّح أوراقاً، عادت حاملة دفتراً صغيراً، كان في الحقيقة ألبوم صور، غلافه جلدي يلمع عند أطرافه. «أتعرف هذا؟ ألم يكلِّمك والدك عنه؟»، وتعطي الجواب من دون أن تنتظر الرد: «بالتأكيد لا، لم يكن هو يذهب إلى الحفلات. لا بل إنه لم يعد هناك حفلات، إنه "الكيبسيك" خاصة جدتي، أي مذكرات الحفلات الراقصة». قلبت الصفحات وفتحته في منتصفه: «انظر، اقرأ ما هو مكتوب هنا، هذا سيذكّرك بشيء ما».

على الورق المصفرّ كان الحبر قد حفر حفراً. ولكنني تمكنت من قراءة الأسئلة، مكتوبة بأحرف مائلة ذات أناقة مبالغ فيها:

بطلك من الجنس المذكر ؟

بطلتك من الجنس المؤنث؟

كتابك المفضّل ؟

موسيقاك ؟

حالتك الذهنية في الوقت الحاضر ؟

ومقابل سؤال: «رقصتك المفضّلة» كتب الشخص المخاطب، جوزيف كونراد شخصياً من دون شكّ، بخطّ يده بشكل حاسم: «لا ترقصي»(*).

ظهرت أولغا أخيراً، شكلها يشبه صوتها، ثقيلة، هائلة الحجم، ترتدي السواد، وشعرها مصبوغ بلون أسود كالغراب، وجهها شاحب جداً، ولكن الشيء المميز فيها، هو أنها تنتمي إلى عالم آخر، لا علاقة له بعالم إميلين كارسيناك. وقفتها، متصلبة نوعاً ما، ليس لديها الليونة التي تميّز أجيال مالكي الأراضي، بل إنها تشبه الناس الذين تعوّدوا أن يُحرموا من كل شيء. ربما هي روسية حقيقة، من عائلة مهاجرين استقرّت في بو، أو أن هذا هو اسمها الفني، عندما كانت تغني في كل مكان إلا باريس، والجزائر، والمكسيك، والأورغواي.

عرّفت إميلين كلاً منا بالآخر: «جيريمي، قريبي، القربة تعود لأجيال، بالمختصر هو من عائلة فيلسن من فرنسا، لقد سبق أن حدّثتك عنه، أليس كذلك أولغا؟». أولغا لا تقول شيئاً. إنها جالسة على كرسي قديم شبه قوطي من الجهة الأخرى من الطاولة الهائلة الكبر، وهي تشرب كأساً من شراب اللوز، تنظر إليّ كما يفترض أن تنظر إلى كل ما يحيط بإميلين. كل هذه القصة، هذه القصص، هذا الضجيج، ضرب الطنبور، بالنسبة إليها، هي التي لا تملك عائلة ولا ماضياً وربما لا تملك وطناً أيضاً.

إن تدحرج المد على الرصيف الصخري، ينطفئ شيئاً فشيئاً في البحيرة المالحة، وصولاً إلى السواحل حيث يدفع بأنقاض لا تصدّق.

«هل ما زال هناك أشخاص من عائلة فيلسن في موريشيوس؟». طرحتُ هذا السؤال لأنه السؤال الأمرّ الذي ستسألني عنه أمي عند عودتي، ولكني أعرف الجواب سلفاً. نهضت إميلين من على كرسيّها، وجهها منفعل، لا

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

بدّ أن هذا أيضاً هو موضوعها المفضَّل: «لا أحد يا جيريمي! أتسمعني؟ لا أحد! آل فيلسن هم لا أحد!»، وتابعت بعد أن احتدّت، أمام أولغا التي بقيت جامدة: «الأرستقراطيون في موريشيوس لا يحتاجون أحداً ليقطع رؤوسهم، لم يكن علينا أن نأخذهم بالقوة، فقد تدبّروا أنفسهم بأنفسهم، الملوك صاروا عاطلين، يعيرون لقبهم لمصنّعي سيارات، وساعات، وبائعي أملاك، باعوا كل شيء، حتى أنهم سمحوا بتدمير منازلهم لبناء دكاكين ومطاعم. الشيء الوحيد الذي احتفظ به الأذكياء منهم هو ثروتهم، وضعوها في مأمن في سويسرا. والآن لم يبقَ أيّ شيء! وهذا أفضل، لأنه سيكون بإمكان هذا البلد أن يتنفس، سيكون بإمكان الشباب أن يجدوا مكانهم». هدأت قليلاً. ها أنا ذا أنظر إليها وهي تتوجّه عرجاء إلى المطبخ، وأسمعها تحرِّك الصحون والحاجيات، تعود حاملة إبريق الشاي، تملأ الكؤوس، حتى كأس أولغا التي لا تشرب شاياً بالحليب أبداً، وهو الأمر الوحيد الذي لم تعتَده في موريشيوس. في اللحظة التي كنت أستعدّ فيها للرحيل، تذكّرت إميلين شيئاً، وعادت إلى خزانة الذكريات، جلبت قصاصة من جريدة الموسيان، الورقة مصفرّة وشبه ممزقة، قرأت ما كتبته على رأس الصفحة، وهو تاريخ ليس ببعيد جداً:

أيلول 1982، آخر سلالة الفيلسن!

ماذا حلَّ بدودو؟

دودو، الذي كان قد أطلق عليه زملاؤنا الناطقون بالإنكليزية في صحيفة التيليغراف بتحبُّب «ذا أدميرابل هوبو» (أي المشرّد الرائع)، ما زال مفقوداً. كل المؤسسات الخيرية التي تواصلنا معها لم تتمكن إلا من تأكيد الخبر المقلق، وهو أن دودو قد اختفى في فرنسا! وبما أنه غير مستعد لهذا، ومع اقتراب فصل الشتاء، فيمكن تصوّر أسوأ

الاحتمالات: أن يموت من البرد، أو من البقاء في الخارج، أو أن يتعرض لجَريمة بشعة. دودو لم يكن يملك شيئاً، ولكنه قد يكون وقع ضحية لمشرّدين آخرين معدومي الضمير أرادوا أن يجرّدوه من القليل الذي يملكه. وبانتظار معرفة الحقيقة، فإن سيرة هذا المشرّد الرائع تنتشر، في جزيرتنا كما في فرنسا. دودو تبخّر في الطبيعة، ضاع بين السكان التائهين. دودو اختفى! ووحدها المعجزة ستسمح لنا بالعثور عليه.

قصة توبسي

هناك في «غراند تير» بالقرب من مجرى النهر ولد توبسي. في طفولته، كان يلعب مع أخته الصغيرة عاريين على ضفة النهر، يصطادان الأسماك وصغار الماعز، يمرحان ككل الأطفال. ثم جاءت الشياطين ممتطيةً الأحصنة إلى ضفة النهر، لون بشرتهم أزرق ويلبسون أثواباً سوداء طويلة ويتسلّحون بسيوف ورماح، قتلوا كل من كان في القرية واصطحبوا الأطفال بعيداً، بعيداً جداً عبر الغابة والصحراء، كانوا يعدون في العشب والأطفال معلّقون على سروج أحصنتهم كخرفان ذاهبة للنحر، يصرخون وينادون لكن لا أحد يسمعهم. اصطحبهم الشياطين حتى البحر.

ما اسمك الحقيقي يا توبسي، الاسم الذي أطلقته عليك أمك، ما اسم أختك، أتذكر؟ لم يعد توبسي يذكر شيئاً، لا اسمه ولا اسم أخته الصغيرة ولا اسم قريته الواقعة على ضفاف النهر. لقد محت الشياطين ممتطية الأحصنة كل شيء وهي تعدو ليلاً نهاراً عبر السهول في طريقها إلى البحر. كلّ شيء اختفى من ذاكرة توبسي، الأمر الذي شكّل ثقباً أسود في حياته.

بات توبسي سجيناً في الجزيرة ومعه العديد من الأطفال والنساء، لكنّه لم يعد يرى أخته، فقد أخذها الشياطين بعيداً ليبيعوها. على الرغم من ذلك، يحلم توبسي دوماً بأنها واقفة عارية على ضفة النهر، تضحك

وهي ترميه بالمياه. هي ما زالت على ضفة النهر تنتظر توبسي. هذا يعني أنها توفيت، ذلك أن الأموات وحدهم لا يتقدمون في العمر. ستكون إذاً على حالها هذا حين يموت هو أيضاً، ويلقاها من جديد، سترميه بالمياه وتضحك.

يشعر الأطفال المأسورون بالبرد في المغارة، على شاطئ البحر. ليس لديهم ما يأكلونه سوى القليل من الفول، يطفئون ظمأهم بلعق المياه السائلة التي تنضح بها جدران المغارة ويلتصقون بعضهم ببعض كي يشعروا بالدفء. لا يتكلم توبسي لغة الأطفال ولا يعرف أسماءهم ولا من أين أتوا. تغلق الشياطين باب المغارة ليلاً بحاجز من الأشواك. وفي الصباح، يأتون لأخذ من مات من أطفال ونساء مرضى. يجرّونهم من أقدامهم ويرمونهم لتأكلهم وحوش البحر.

هل تذكر ما حدث بعد ذلك يا توبسي؟ بعد ذلك، يقول توبسي، نعم، أذكر ما حصل. أتت السفن الكبيرة بسواريها الأعلى من الأشجار وبأشرعتها الأشد بياضاً من الغيوم. قُيِّد الأطفال والنساء أزواجاً في بطن السفينة. كانوا يرتعدون خوفاً، فأتت شياطين سوداء أخرى وراحت تضربهم بحبال وعصيّ كي يكفّوا عن البكاء. استغرقت رحلة السفينة أياماً طويلة، كانت مياه البحر تدخل فيها إلى عنبر السفينة. حين كانت تتوقف العاصفة، كانت الشياطين السوداء تجرّ النساء والأطفال الغارقين في قعر السفينة وترميهم طعاماً لوحوش البحر.

ماذا حدث بعد ذلك يا توبسي؟ تابع! بعد ذلك، قال توبسي، كان الحرّ شديداً في بطن السفينة وفاحت رائحة البراز والبول ودم النساء في المكان. ولكي يغسلوا القذارة، كان الشياطين السود يشطفون المكان بسطول من مياه البحر. لم يقدّموا لنا سوى وجبة واحدة يومياً، عبارة عن عجينة من

القلقاس الهندي وقرعة ماء. كان الأطفال يتصارعون في ما بينهم للحصول على الطعام والمياه. ماذا حصل، ماذا جرى بعد ذلك؟ احكِ يا توبسي، احكِ! بعد ذلك، قال توبسي، وصلت السفينة إلى جزيرة كبيرة، سكانها لا سود ولا عرب، بشرتهم صفراء وقاماتهم قصيرة. قام الشياطين باصطحاب النساء والأطفال إلى الجزيرة، ظننت أنهم أخذوهم كي يلتهموهم. ما زلت أذكر اسم الجزيرة: «مافيا».

عاودت السفينة الانطلاق، لكنها لم تذهب بعيداً لأن قارباً آخر وصل، قارب كبير مع مدخنة تطلق دخاناً. دخل رجال بيض إلى السفينة وحلّوا وثاق كل الأطفال والنساء، واصطحبونا في القارب الكبير إلى بلد موريشيوس، ومن ثم إلى منزل فيلسن في عربة تجرّها ثيران. كانت فرائصي ترتعد لأني كنت متيقّناً من أن الرجال البيض سيلتهمونني. ركضت وتسلّقت الشجرة الكبيرة التي ما زالت واقفة هنا حتى الآن، لكن الشياطين الكبار قالوا لي: لا تخَفْ يا توبسي. أعطوني لباساً لأنني كنت عارياً كلّياً، وقدّموا لي طعاماً. أطلقوا عليّ اسم توبسي على الرغم من أن الكاهن الذي عمّدني أطلق عليّ اسم إيمانويل، فأصبح هذا اسمي إلى الأبد. سأعود بعد وفاتي إلى النهر الكبير حيث ولدت، وسألتقي بأبي وأمي وأختي الصغيرة.

كريستال

غاب طيّارنا الشهير. لا بدّ أنه استُدعي ليحلَّ محلَّ زميلٍ غائب، أو لأن عائلته احتاجته في هولندا، على الطرف الآخر من العالم. اخترع حجّةً ليبرِّر لها سفره العاجل. لا تهتمّي يا حبيبتي! أنا ذاهبٌ لحلّ بعض الأمور وسأعود على الفور. هل هو ذاهب ليطلِّق زوجته؟ أمن المعقول أن يطلِّق أحدهم زوجته من أجل بنت هوى حتى ولو كانت جميلة جداً ويانعة كزهرة سحلب؟ عبرت سياج نزل باتيسون إلى مخيّم «دونغ سو»، حيث وجدت كريستال في الحديقة مستلقية على كرسيٍّ طويل تتشمّس، وإلى جانبها كأس من «الكوكو لوكو» وكومة من المجلات الأجنبية. تلبس كريستال بيكّيني أخضر تفاحياً، وتضع في سرّتها حلقاً من اللون نفسه. تشبه الفتاة في إعلان فيلم «لوليتا»، لكنها أشدّ سُمرةً.

بادرتها بالكلام: «أنا جيريمي».

رفعت رأسها. لم تبدُ مندهشة لرؤيتي وردّت: «وأنا كريستال».

أوشكت أن أقول لها «أعرف» غير أني امتنعت في اللحظة المناسبة، فأنا لا أريد أن تظن أنني أتجسّس عليها، لكني على يقين مع ذلك بأنها على دراية بكل شيء، فنحن نعيش على جزيرة والناس يحبّون الثرثرة.

«رأيتك ذلك اليوم في فلاك وأنت تستقلّين سيارة أجرة».

لم تعلّق كريستال على ذلك. قلّما تحرّكت منذ أن جلست إلى جانبها. شربت بعضاً من الكوكو من الشاروقة. ما زالت طفلة تقريباً فهي لم تتجاوز السابعة عشرة، لكن لديها ثقة بالنفس ما لدى الفتيات الجميلات اللواتي لا يخشين إظهار مفاتنهن. لديها عينان شديدتا السواد، لمّاعتان، مع شيء من البرودة والثقة.

«أتعيشين بمفردك هنا؟».

هي تعرف جيداً بأني راقبتها من خلال نافذة الحمّام على الطرف الآخر من السياج. لم يكن سؤالي نزيهاً ولا جوابها أيضاً. كذبت بجرأة.

«نعم، أعيش وحيدة هنا، لكن والدي يأتي لرؤيتي من وقت إلى آخر. دادي يعمل طياراً ويسافر كثيراً؛ توفِّيت والدتي فبتُّ وحيدةً في هذا العالم».

كانت تحاول إفهامي أن الطيّار هو والدها. تطلق كريستال هذه الأكاذيب بصوت هادئ، لا مبالٍ. تتمدّد في الشمس كحيوانٍ صغير ماكر وبلا عقل في الوقت نفسه. لا بدّ أن لدى الرجل الذي يضاجعها بنات من عمرها نفسه، فتيات تربيتهنّ جيدة، يرتَدن المدارس الثانوية المشهورة في فرنسا وإنجلترا، فتيات شقراوات، مسجّلات في نادي السيارات ويشاركن في السباقات، يذهبن إلى باريس للسباحة في مسبح «موليتور» أو إلى نادي «سبورتينغ» في مونتي كارلو مع فتيات أميركيات.

«متى سيعود دادي؟»

كريستال ليست غبيّة. لقد فهمت جيداً ما أقصد بالسؤال. «دادي لطيف جداً، أتعلم؟». استخدمت التاء عوضاً عن الطاء في كلمة «لطيف». أضافت: «لن يكون والدي مسروراً لرؤيتك هنا. هو يغار كثيراً ولقد رآك تتجسّس علينا من خلف النافذة». شعرت بالحنق لسماع كلمة «تتجسس». أضافت كريستال مباشرة: «لم أقصدك أنت، بل المرأة العجوز هناك التي لا يحبها والدي، ولا أنا. أنا أكرهها».

العجوز الشمطاء هي السيدة باتيسون، مالكة النزل. أجد أن هذا الوصف يليق بها جيداً. أنا متأكد من أنها ترسل رسائل إلى شرطة «بلو باي» كي تشتكي على كريستال. «هي أيضاً لن تكون مسرورة لرؤيتك تتكلم معي. ألا يجدر بك العودة إلى النزل؟».

قالت ذلك بنبرة ساخرة. هززت أكتافي غير مكترث.

«أترغبين بالذهاب للسباحة؟».

وافقت. نهضت بكسل من كرسيها ومشَت حتى البحر. تبعتها وخلعت قميصي القطني، ووضعت نظاراتي على الرمل. كانت أشجار الجازورين قد نثرت بذورها الشائكة في هذا المكان، لكن كريستال مشت حافية القدمين غير عابئة بالبذور. لديها قدمان كبيرتان مسطّحتان وأظن أن نموها لم يتوقف بعد، وأنها ستصبح فتاة طويلة جداً في السنة القادمة. غاص جسدها النحيل والطويل والداكن في المياه، أستطيع رؤية خيالها فقط تحت الماء، بين الصخور السوداء. أسبح خلفها في المياه الباردة، أو بالأحرى أحاول أن أسبح خلفها لأنها سبقتني بسهولة. أراها وهي تلتقط أنفاسها في عرض البحر. كانت تهزأ بي قائلةً بصوتٍ عالٍ: «أنت لا تتقن السباحة، الحَقْ بي إن استطعت!». صوتها جهوري، أجشّ بعض الشيء. كانت تلهو بالسباحة بقربي والغوص تحتي وشدّي من قدمي، وبالتملّص مني في اللحظة التي أقترب فيها من الإمساك بها لتعود سابحة نحو عرض البحر. أفتح عينيّ تحت الماء فأراها تنسلّ بين الأسماك الشفافة التي تبتعد عن مسارها عند مرورها. تأخذ الصخور تحت سطح الماء أشكالاً تبعث على الحذر. يشبه الحيد المرجاني في بعض المواضع غابةً من قرون الغزلان برؤوس مدبّبة بنفسجية سامّة. عثرت كريستال على مكانٍ للّهو، وأشارت لي إلى مكان في البحيرة الشاطئية مياهه صافية. غطست لتُريني

حيداً مرجانياً يخرج منه رأس أحمر يشبه رأس مهرّج، لم أرَ مثله سوى في أحواض السمك. الحركة دفعت الرأس للاختباء بين أصابع المرجان.

لا تشبه كريستال نفسها في الماء، فشعرها أملس يلتصق بعنقها ويصبح لون جسدها كالمعدن الأسود. هي مخلوقة بحرية، حرّة وجريئة، يرتسم في عينيها شيء ما شرس، وفي ابتسامتها أيضاً. هي بحقّ ابنة صياد ماهيبورغ. لقد ترعرعت في قارب، تستطيع أن تمسك بالأسماك بيديها العاريتين لتسحب منها خطّاف الصنارة وتغرز السكّين في دماغها. هي معجونة من مياه وريح ونور. أظنّ أني وقعت في حبِّها.

عادت إلى المخيّم وجلست على العشب تجفِّف جسدها بمنشفة. بقيت أحدّق فيها. أصبحت فجأة خشنة: «أشعر بالجوع وسأبحث عن شيء آكله». ارتدت ثيابها وذهبت من دون أن تنتظرني. لحقت بها وقميصي القطني ما زال مبلّلاً وملتصقاً بجسدي. كانت المحلات بالقرب من الشاطئ تبيع فطائر بالفلفل الحار. أخذت كريستال تلتهم الفطائر الزيتية وتضحك. لقد عادت طفلة. هي فترة بعد ظهر وديعة في مكان سياحي يعيش الناس فيه في الحاضر: سباحة، أكل، عدو. ناداها باسمها أولادٌ على الشاطئ وراحوا يمزحون معها بالكريولية، لأنهم ظنّوني طيّارها، فأنا متقدّم في العمر وفرنسي.

لم أكن أملك سيارة، فذهبت كريستال لتستعير دراجة نارية من صديقها الذي يقيم في دار في الدائرة الثالثة خلف الشاطئ. ركبت خلفها ولففت يديّ حول خاصرتها. قادت الدراجة في الجو الساخن عبر الأحياء السكنية. تطلق الدراجة دخاناً أزرق وهديراً من محركها يجعل الكلاب تنبح. وجب عليّ أن أباعد رجليّ كي لا أحرقهما بعادمها. أحسست بأردافها المشدودة كما لو كانت تلبس مشدّاً، شعرها الذي ما زال رطباً

يتناثر مع الهواء ويدخل في فمي. أغلقت عينيّ كي لا يدخل فيهما الغبار والذبابات الصغيرة، في حين وضعت كريستال نظاراتها الشمسية الخضراء الكبيرة، فباتت تشبه محاربات القصص المصوّرة اليابانية (مانجا). وصلنا إلى الضاحية، فتوقفت قرب محل في «دونج سو» لتشتري كوكا وسجائر. ثم تركت الدراجة على طرف الرصيف، وذهبنا لنجلس على مقعد من الأسمنت أمام البحر. لم نتكلّم كثيراً، تبادلنا بضع جمل غير كاملة لا أهمية لها، للضحك فقط. أحسُّ بشيء من الاضطراب في عمق حنجرتي، نابع على الأغلب من معدتي. هذه اللحظات لا مستقبل لها، فأنا لا أمثِّل شيئاً بالنسبة لها ولا لأحد ربما. أنا لست موجوداً حقّاً.

«هل سيعود دادي؟».

لم تنظر نحوي. عكست عدسات نظاراتها حركة السيارات والمارين على شكل خطوط مكسورة، كأفاعٍ تلتفّ حول نفسها وتستقيم.

«لن تراقبني بعدُ على الشاطئ».

لم يكن هذا سؤالاً بل أمراً لا يترك مجالاً للردّ. حياتها تهرب مني ولا أستطيع إزاء ذلك أي شيء، فليس لديّ ما أقدّمه لها. ليس باستطاعتي إنقاذها من أخطائها. لديها خبرة أكبر مني حتى لو عشت مئة سنة أخرى. هي تحاول أن تُفهمني أني لست صالحاً إلا لمراقبتها.

أنا، من خلال دراساتي عن الطيور المتحجّرة، وتحقيقاتي حول مخيّمات العبودية والمهربين، وكل ما يتعلّق بأشباح الماضي، أستطيع إيجاد دليل الشرطة المتعلّق بجريمة أوقعت ضحايا قبل مئة وخمسين عاماً من دون أن يُقبَض على القاتل. كما أنني أبحث عن سليل عائلة فيلسن المختفي، والذي لم يعد أحد يتحدّث عنه، هذا الشبح الضائع في فرنسا! أما كريستال فتعيش في الواقع.

هي لحظات أخرى بعد وسيصبح كل شيء من الماضي. نحن طفلان نلعب بين بابين، نضحك قليلاً ثم نفترق ولا يعود أحدنا يرى الآخر.

انتهينا من شرب الكولا ومن تدخين سجائر بنكهة النعناع. عاودنا الركوب على الدراجة الزرقاء التي تسعل، والتي انسحق إطارها الخلفي من ثقلي. ما زلت أشعر بحرارة جسدها وبرائحة البحر في شعرها المتجعد. أنزلتني بالقرب من «لا روش أو نويت». راح طبّاخ السيدة باتيسون، وهو شابّ ضخم بعيون شاحبة يراقبني بخبث، لكني لم أستطع أن أفسّر نظرته تلك. قالت كريستال: «لن تحاول رؤيتي مجدداً! اتفقنا؟». انطلقت وأخذت أتبعها بالنظر هي والدخان الأزرق، وضوضاء الطناجر التي تصدرها أسطوانة المحرّك، إلى أن ابتلعها منحنى الطريق.

...دودو...

أستطيع الآن أن أتوقف في الأسفل تماماً، عند نهاية الطريق حيث تقع المقبرة الغربية. ليس في السوق، فهو يعجّ دائماً بالناس الذين يدفعونك ولا تستطيع الإفلات منهم، حتى السيارات والحافلات تريد أن تدهسك. لا، لن أذهب إلا إلى المقبرة، فأنا أحس بالراحة هناك، كأني في منزلي. ألديك منزل؟ في المقبرة يعرفونني، أستطيع العيش هناك. لكن لا أستطيع عيش حياة السيد زان، الذي يكمن خلف القبور كي يباغت الناس حين يشعر بأنه يستطيع أن يشحذ بعض النقود منهم، لا، ليس كذلك. أشعر هنا أني في بيتي، في ملجأ، بعيداً عن الأحياء. إنه مكان خطر بالتأكيد، فالداشرون يأتون في الليل ليدخّنوا الغانجا على القبور. كنت أعبر البستان تحت الأشجار، وأسير بمحاذاة الجدار الحجري الذي تهدّم في بعض مواضعه، ونمت أعشاب وشجيرات في وسط حجارته. يعجّ المكان بالغربان وبطيور مينة الشائع. أبحث عن زاوية هادئة تحت ظل نخلة حيث أستسيغ الاستلقاء. لكن يجب عليّ الحذر، فالداشرون يجولون ويعرفون بأني لا أملك روبّية واحدة، لكنهم قد يرغبون بسرقة ثيابي أو ضربي لينتقموا أو ليتسلّوا. تقول هونورين لي دائماً بألا آتي إلى هنا، لكنّي لا أستطيع كبح نفسي، فأنا أحتاج للمجيء إلى المقبرة الغربية. هنا ليس مثل سان جان. في سان جان حيث

دُفن أهلي، كل شيء نظيف ومرتّب ومزيّن بأحواض زهور على القبور، وبمنحوتات من البورسلين، وباقات زهر، وتماثيل ملائكة ونقوش. أما المقبرة الغربية بقرب البحر فهي وسخة وخالية من الأبّهة. هنالك كومة قاذورات بالقرب من الجدار، والممشى احتلّته الأعشاب وجذور الأشجار. فُتحت القبور في بعض المواضع ربما من قبل خسيسين يبحثون عن مجوهرات أو قطع ذهبية. لكنهم لم يجدوا شيئاً، فمن هذا الذي يدفن أحدهم مع مجوهرات أو قطع ذهبية؟ كل ما يجدونه هو قطط تهوم بين القبور، وجرذان بحجم القطط. لا ينتاب الجرذان خوف، بل تستدير حين أقترب منها وتنظر إليّ، ثم تهرع إلى جحورها تحت أحجار القبور. تقول هونورين إنها تأكل الموتى، لكني أظن أنه مضى وقت طويل لم يُدفن فيه موتى في هذه المقبرة. إنها تأكل العظام والشعر الموجود في القبور. عثرت على القبر الذي أبحث عنه بعيداً قليلاً. استلقيت على الحجر بالقرب من الجدار تحت النخلة، ورحت أنظر إلى السماء وغيومها التي تدفعها الريح نحو البحر. أستمع إلى ضوضاء الطريق السريع القادم من الجانب الآخر للجدار. هي ضوضاء مستمرة، خافتة جداً وتأخذني بعيداً جداً.. لم أنم، أنا لا أنام في المقبرة، لا أستطيع النوم لأن المرض التهم جفوني. لهذا السبب أنا دوماً في النهار ذاته من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح. أنزلق مع الغيوم، فهي أيضاً لا يغمض لها جفن بل تواصل التقدم في السماء، وأنا أسير معها حتى الجانب الآخر من البحر. أتيت إلى هذا القبر لأن أبي حدّثني عنه. إنه قبر أول شخص من عائلة فيلسن جاء إلى هنا من مكان بعيد، من المكان الذي يعلن نهاية رحلة القوارب، مكان هو نهاية العالم. هنا أيضاً في المقبرة الغربية، نكون في طرف الجزيرة التي تنتهي فيها كل الطرق. حين سيأتي يوم أستطيع فيه أن أسافر، سأتجه إلى هناك، إلى البلاد التي أتت منها عائلة فيلسن، تلك البلاد التي تلفّها الغيوم

كما تلفّ المقبرة الغربية ذات الجدار الحجري الكبير والتي يتموضع في وسطها حجر فيلسن المنقوش عليه اسم «أكسيل» وزوجته «ألما». كان والدي يتحدّث عن الأمر أحياناً ويقول: في تلك البلاد، كانت عائلة فيلسن تعيش كالملوك، وليس كالمستعمرين كما يدّعي الناس هنا، وكانوا يقولون عنهم إنهم رجال أعمال بيض. يقولون إني مشرّد لأني آكل ما يعطونني إيّاه في الطريق، ولأن ثيابي هي ثياب أناس آخرين. بنطالي مثقوب وسترتي مهترئة وحذائي كبير المقاس أربطه بكاحلي برباط، الأمر الذي يثير ضحك الفتيات في الطريق. لا يوجد موتى بيض في المقبرة الغربية، أسماؤهم انمحت، وأحجار قبورهم دمرتها الأعاصير، أو الخسيسون الذين يحومون هنا لسببٍ غير معلوم. القبور هنا مهجورة، فلم يعد يأتي أحد ليضع ورودا أو أكاليل من زهور مصنوعة من البورسلين. يقوم السارقون بتكسير القبور وحفر الأرض ليسرقوا المجوهرات والأسنان الذهبية، لكني أسير بمحاذاة هذه الحفر، وأقفز من فوق القبور الفارغة من دون أن أنظر إليها، فهذا يجلب فألاً سيّئاً. تقوم الغربان والخنازير بحفر الأرض بحثاً عن شيء تأكله. أسترق النظر أحياناً نحو الحفر السوداء في الأرض، نظرة واحدة فقط، فأرى قطعاً من العظام وأجزاء من خشب التوابيت، أرى كرة جمجمة رمادية تخرج من بين الصخور. أظل جالساً على القبر الذي يرقد فيه «أكسيل»، هذا ما أظنه، ولكنّي لست متأكداً، أقوم بتمرير إصبعي على الحروف التي مُحِيت وأقرأ جزءاً من اسم، لا شيء سوى جزء من اسم.

... شار ...

هذا اسم مختلف، لا يشبه «أكسيل» ولا «ألما»، اسم يشبه «أشار» أو «غيشار» أو «ريشار». ألفظ كل تلك الأسماء لكن لا يعجبني أيّ واحد منها. ثمّ وجدت «أراسيلي» الذي يعني موسيقا السماء، فجدّتي كانت

تهوى الموسيقا، وربما يكون جدّي أكسيل والسيدة ألما يحبّان موسيقا السماء وهما تحت الأرض. استلقيت على قبرهما عندما حجبت سعف النخلة الشمس الغائبة، واتجهت الطيور إلى حديقة «روبرت أدوار هارت». حلَّ الليل فجأة. هو الوقت الذي يأتون فيه. أسمع كل شيء عادةً، فأنا أتمتّع بأذنَي قطّة، وأستطيع سماع كل شيء حتى ولو كنت أتظاهر بالنوم، لأن عينيّ تبقيان مفتوحتين. تقول هونورين إني بومة عجوز، تقول ذلك علماً بأنها لا تعرف ما هو هذا الطائر. يأتون معاً دون أن يُحدثوا جلبة مع أنهم يمشون على الأغصان الميتة والأوراق، لكنّهم يتعمّدون المشي على القبور قافزين من واحد إلى آخر حتى لا أسمعهم، يقفون حولي مشكّلين دائرة. هم شبّان، هذا ما قلته للشرطة لاحقاً، هم يافعون جداً وإلا لماذا أتوا إلى المقبرة الغربية؟ لا يعرفون من أنا، فوحدهم البالغون يعرفون من هو دودو، في حين أن الشبّان يسألون: «من أنت يا هذا؟!». لم أردّ، وبقيت جالساً رافعاً ركبتي حتى لا يظنّوا بأني راغب في العراك. أريدهم أن يعلموا أني لا أملك شيئاً، لا فكّة ولا شيء، حتى حذائي كنت قد وجدته في القمامة. عرّفتهم على اسمي، فهزئوا مني: «فيلسن! فيلسن!»، وكرّروا: «لا أحد! لا أحد!».

راحوا يضحكون ويرمون حجارة وتراباً جافاً عليّ، فقمت بحماية نفسي بذراعي. «أنت لا أحد! شنيع كقرد المكاك، وجهك كوجه المكاك». هذا ما قالوه، ليس ذنبي أن وجهي يشبه وجه المكاك. آثرت ألّا أقول شيئاً. لقد كانوا ستة وهيئاتهم حسنة، يرتدون بناطيل من الجينز وقمصاناً بياقات مدوّرة (بولو)، وشعرهم مصفّف جيداً عدا الأسود فيهم الذي كان حليق الرأس. أتوا من الأحياء الراقية: «فيوكاتر بورن» و«فونيكس»، هم طلاب في «كارنوجي». رحت أتمحّص في وجوههم وهم يرمونني بالتراب وبالأوراق المتعفنة. باغتني أحدهم عندئذٍ بركلة على ضلوعي، وقام

آخر بضربي برأس جزمته. أحسست بألم كبير وقلت: «أوف»، فأخذوا يضحكون بقوة أكثر. عندئذٍ، أتى الطويل فيهم صاحب الوجه الجميل والعيون السوداء حاملاً مضرب كريكت مدهوناً بالأبيض والأحمر، وانهال عليّ ضرباً مصوِّباً ضرباته نحو وجهي، من دون أن يقول شيئاً. أخذ الآخرون يصيحون: «أَوسِعْه ضرباً! أوسِعه ضرباً!». ضربني مطوّلاً، عشر مرّات، عشرين مرة وأنا أحمي وجهي بيدي. مرّاتٍ عدة، وصلت العصا إلى خدّي وجبهتي وخلف رأسي، لأني كنت أنحني أماماً كي أحمي وجهي. كان يضرب بكلّ ما أوتي من قوة، ولا ينطق سوى بـ «هون! هون!» في حين كان الآخرون يزعقون ويصفّرون: «أوسِعه ضرباً!». دبَّ الألم في ذراعي وفي رأسي، فانطرحت على قبر «أرسيلي»، وهنا ضربت العصا يدي اليمنى، وقام الرجل ذو العيون السوداء برمي مضرب الكريكت الذي ارتدّ عن الحجارة مصدراً صوت زجاج ينكسر. أحسست بالدماء تسيل على عيني وفي فمي، لم أعد أستطيع تحريك يدي اليمنى. ظننت بأني على وشك الموت الآن. توقف الأولاد عندئذٍ وفتحوا سحّابات بناطيلهم وتبوّلوا عليّ، وعلى القبر أيضاً. أقسم إن هذا ما آلمني، ليس من أجلي بل من أجل «أرسيلي» ومن أجل العجوزين «أكسيل» و«ألما» اللذين يرقدان في القبر. عبقت رائحة البول فيّ وفي ثيابي وعلى الأرض المحيطة. انصرف الشبّان بعد ذلك، وبقيت مستلقياً على القبر طوال الليل. في الصباح، وجدني حارس المقبرة الذي يسكن في كوخ موجود في مدخلها، على القبر، وهو يقوم بجولته. ثم هاتف الشرطة كي يأتوا ويسعفوني إلى المشفى.

في المشفى، قام الممرِّضون بغسلي وتضميد جراحي. وضعوا جِباراً من البلاستيك الأخضر، لأن الطبيب وجد من خلال صورة الأشعة كسراً في يدي اليمنى. قاموا بتقطيب وجنتي وجبهتي باستخدام إبرة وخيط. الممرضة جميلة جداً، طويلة وشعرها أشقر وعيناها زرقاوان. اسمها «فيكي» وهي

إنجليزية. ليست بالممرضة فعلياً بل متدرّبة في المشفى تعمل صباحاً فقط. قلت لها اسمي فقالت: «أحقّاً هذا اسمك؟ هذا اسم مشهور!». فأجبتها: «أنا آخر من يحمل هذا الاسم، فأبي متوفّى وأمّي أيضاً منذ وقت طويل». قالت: «نعم يا سيدي، هذا الاسم معروف جيداً في موريشيوس». أعجبني أنها نادتني «سيّدي»، أنا أمثّل شخصاً بالنسبة لها. قالت لي أن أذهب إلى «ماري رين دولا بي» يوم الأحد، إذ إنهم يقدّمون القهوة والحلويات والعصير أيضاً، وأن آتي في الصباح. وعدتها بأن أذهب هناك، لكني لا أعرف متى، بسبب ذراعي والجروح في رأسي وضلعي اليسرى التي يبدو أنها غُرزت إلى الداخل بفعل الركلات، وأصبحت تمنعني من التنفس براحة. لكني لم أقل شيئاً للشرطة سوى أنه مضرب كريكيت ما كسر لي يدي، مضرب أبيض وأحمر. لكنهم لن يذهبوا حتى لجلبه، فليس لديهم وقتٌ كافٍ لذلك، وأنا متأكّد من أني، إن عدت إلى المقبرة الغربية، سأجده هناك في وسط كل تلك القبور. بقيت يومين في المشفى وأتت فيكي في اليوم الثالث دون مريلتها وغطاء الرأس، بل كانت ترتدي ثوباً أبيض جميلاً وقميصاً وشبشب راقصة صغير. رافقتني ودفعت للتكسي الذي أوصلني إلى بيت مدام «هونورين» الواقع على طريق «كافيرن». لم أعد أشعر بالألم على الإطلاق، ولم أعد أذكر ما حصل في المقبرة الغربية، لأنه بفضل هؤلاء الخسيسين تعرّفت على فيكي، أجمل فتاة في المشفى. ولهذا كل ما حصل لاحقاً في «ماري لا رين دو لا بي» تسنّى له أن يحصل.

في الغابة

عدت ورأيت إديتي في «ماكابيه»، في ملجأ «MWF». إنها تعيش جزئياً هناك، في كوخ من الخشب وسط فسحة في الغابة، تتقاسم البيت مع بنات وصبيان آخرين من الفريق، جميعهم غرباء، قدموا من الهند، فرنسا، إنجلترا، وألمانيا. قائدتهم أستراليّة تسمى أليزابيث. إديتي كانت تنتظرني، لكي نتمشى في الغابة.

«سأريك قلب العالم»، قالت هذه الجملة بأسلوب وقورٍ نوعاً ما، ولكنها كانت تؤمن بذلك حقاً، ولهذا فأنا الآخر أؤمن به أيضاً.

إن فسحة «MWF» محاطة بسياج، وللدخول إليها يجب دفع باب حديدي عالٍ. ذكّرني هذا بسجن، أو حديقة حيوان. لم أكن أعرف تماماً ما جئت أبحث عنه. لم أكن أعرف كيف يمكن للقلب أن يكون داخل قفص. ربما كنت فقط أرغب في لقاء إديتي من جديد، تلك الشابة التي تعيش وحدها، إنها نوع من المناضلات هي الأخرى، مثل كريستال ولكن على شكل مختلف.

أخذتني فوراً إلى غابتها. سلكت طريقاً عبر الأدغال، مشت مشية سريعة، تكاد لا تلمس النباتات، من دون أن تنحني لأنها صغيرة القامة ونحيلة، على الرغم من أن بطنها يحمل ابنها. ترتدي بنطالاً عسكرياً عريضاً

وكنزة، وتربط على خصرها سترة من النايلون لتقيها من المطر الذي ينذر بالهطول. في قدميها خفّان من البلاستيك، غير مناسبين عملياً للمشي في الغابة. عندما نبّهتها إلى ذلك، سخرت مني قائلة: «أنت وجزمتك!». في الحقيقة كانت هي التي تلبس لباساً وتحتذي ما هو مناسب للغابة. تقفز من صخرة إلى صخرة، وتعربش على الجذوع المنهارة من دون أيّ تردُّد. عندما وصلنا إلى بركة الماء، خلعت خفّيها، تجاوزت الماء وعادت وارتدتهما في لحظة. تتقدّم كأنها عصفور غابات راكض. فكرت أيضاً بحذائي العتيق، كان مربكاً على رمل الساحل، لكنه لا يضاهى في الركض عندما يتعلّق الأمر بالغابة.

إديتي لا تتكلم، لا تعلّق، ولا تشرح شيئاً. تتركني أزور فسحتها، قلب عالمها كما تسميه، من دون أن تتوقف عند الأشياء. لا أعرف إلى أين نذهب، تتبع خريطة غير مرئية، خطّاً منكسراً بين أوراق الشجر. ولكن من وقت إلى آخر تقول فقط: «هنا، انظر!». توقفت عن الحركة في وسط الأغصان، فتابعت اتجاه نظرها. لم أرَ شيئاً في البداية، ثم تأقلمت عيناي على تعقيد الشجر، ورأيت برقاً زهريّ اللون يطير. إنه «الحمام الزهري»(*). أذكر أني قرأت أنه قد انقرض منذ حوالي عشر سنوات. وجه إديتي يعبّر عن سعادة طفولية.

«إذاً، هل نجا؟». هزّت كتفيها. «غير مؤكَّد، زوبعة يمكن لها أن تخرّب كلّ شيء، ليسوا كثيرين بقدرٍ كافٍ، عشرون زوجاً فقط بين هنا وجزيرة الأغريت. إنهم جنس ضعيف». تابعت سيرها ببطء أكبر. أفهم ما تقوم به، هذا ما يمليه عليها شعورها بالمسؤولية بصفتها بشرية دخلت مملكة الأشجار والعصافير. اقتربت مني وتكلّمت بصوت منخفض: «غريب

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

شعورنا أمام الأجناس التي على وشك الانقراض». التقطت أنفاسها قليلاً: «إنه لانطباع غريبٌ جداً، ألا توافقني؟ عندما تفكر بأن هذا الكائن الحيّ الذي يقف أمام عينيك هو حصيلة تاريخ طويل، وأن هذا التاريخ يمكن أن ينتهي هنا الآن، أو غداً، وأنه بعد ذلك لن يكون موجوداً على الأرض أبداً، وأنت لم تفعل شيئاً لتُبقيه..». كنت أودّ القول لإديتي إن هذا يشبه ما يحصل لها، ولي، لكل الناس، كل واحد منا يعيش نهاية تاريخه. ولكني أحب براءتها، وعملها الطوعي لكي تنقذ الحمام الزهري وغيرها من الطيور النادرة، مثل الببغاء الأخضر، ورئيس البحر أحمر المنقار، والعوسق التي تواجه خراب الحياة المعاصرة. نزلنا منحدراً طينياً في طرف المحمية. هذا هو المكان الذي تريد إديتي أن تُريني إياه، فسحة ضيقة تمرّ بها ساقية. تزيح إديتي الأغصان.

«انظر، أتعرف ما هذا؟».

في وسط شجر الأبنوس، جذعٌ ضعيف، متعرّج، مع أوراق عريضة وقاسية، ملوّنة بلون أخضر مصفرّ.

«إنها شجرة التمبلاكوك».

أضافت إديتي: «إنها شجرة عصفورك المنقرض».

الشجيرة شابّة، عمرها تقريباً أربع أو خمس سنوات. وتجد صعوبة في خرق قبّة الأوراق المتشعبة فوقها بحثاً عن شعاع الشمس. على الأرض المغطاة بالطحالب، وجدت إديتي حبة بقياس جوزة كبيرة طولانية، لونها بني غامق محزّزة ببعض المناطق.

«هذا ما كان يأكله طيرك الدودو. وقد أدّعي بأنه بعد انقراض الدودو، فإن شجرة التمبلاكوك لن تستطيع التكاثر والبقاء، لأن هذا الطائر كان الوحيد القادر على قضم غلاف البزرة، التي يكسرها بحصاة حوصلته،

ولكن انظر، هذه الشجرة جديدة جداً، وهذا يثبت أن الشجرة يمكن أن تبقى حية». أعطتني إديتي الحبة، وضعتها في جيبي، وقد انضمّت إلى الحجرة البيضاء التي كان والدي قد وجدها في الماضي بين القصب، بالقرب من بحيرة «لا مار أو سونج». نخرج من المخبأ عبر باب مشبّك تغلقه إديتي بعناية بقفل يشبه أقفال الدراجات التي تحمي من السرقة. مغلق بوجه من؟ بوجه ماذا؟ إن سارقي «السيدريكسي لون غراندفلوروم»(*) أو الأرليات غير موجودين بكثرة، أما بالنسبة للمكاك، ليس السياج هو الذي سيمنعهم من القدوم وبزر حبوب جوافة الصين. ربما كان السياج موجوداً للحماية من مهرّبي الغانجا الذين يقومون بالزراعة البرية أينما كان في الغابة.

«رأيت القلب والآن سأريك الجسد الحيّ». كانت إديتي ما تزال وقورة، لكني أحب عندما تتكلم عن الغابة. وهي تعرف الاعتراض أيضاً: «صحيح أنه من الوهم محاولة المحافظة على الأشياء كأن شيئاً لا يتحرك في العالم، أنا أيضاً لا أحب فكرة الطبيعة العذراء، وأظنها أحياناً فكرة عنصرية، ألا توافقني الرأي؟

«ولكن مشغّلك هو مؤسسة MWF، أليس كذلك؟». لم تجب إديتي. «عندما كنت طفلة صغيرة، كان جدي يحكي لي أنه يذهب دائماً إلى الغابة، في أيامه لم يكن هناك خرائط ولا محميات، كان بإمكانه التجوّل أينما أراد من دون أن يلتقي أحداً، غير القرود والخنازير البنّية. كان يذهب هكذا طوال النهار، وأحياناً يقضي الليل في الغابة، كان يقول إنه يسمع أصواتاً، بكاءً، وصراخاً، وكان يحكي أنها الجنّيات، التي كانت تبحث عن نقاط المياه، كما كان يفعل الزنوج في الماضي عندما كان جيش المزارعين يلاحقهم. هل تعرف بركة «غراند باسين»، أترى كل تلك المعابد والأشياء، والتمثال

(*) الاسم العلمي للتمبلاكوك.

الكبير للإله شيفا وهو يحمل شوكته الثلاثية؟»، تتردّد وكأنها ستشي بسِرّ، «إنه جدّي الكبير، آشوك. هو الذي اكتشف البحيرة، في القرن الماضي. وهو الذي رآها للمرة الأولى، كان يركض في الغابة مثل كل الأطفال في سنّه، ووصل إلى هنا بالمصادفة، وكانت الساحرات يسبحن في البحيرة، لهذا سمّي المكان بيري تالاوو، أي بحيرة الساحرات، ويسمى المكان الآن غراند باسين...». قلت لها: «لو عاد الآن سيعجب من التغيير الذي حصل...». لم ترد إديتي على ملاحظتي. ليست من الأشخاص الذين يتكلمون ليبدوا أذكياء. في آخر الطريق كان هناك برج مراقبة يطل على الوادي. تسلّقت إديتي السلاسل الصدئة بلحظة وتبعتها لنصل إلى الفسحة. «بنوا هذا لكي يراقبوا الحرائق. والأمير فيليب صعد إلى هنا عندما جاء إلى جزيرة موريشيوس. أظن أنها أيضاً النقطة التي كان فيها الزنوج يراقبون الشاطئ بينما كان أشخاص من عائلتك يحاربونهم». تخليت عن فكرة أن أشرح لها أن عائلة فيلسن لم تحارب أحداً، في النهاية أنا نفسي لم أكن متأكداً من المعلومة، فهم عاشوا في فترة الاستعباد. هبّت الريح بدفعات باردة. ومن خلال فتحة في الغيوم رأيت زرقة البحيرة الشاطئية جزيرة «مورن» السوداء. «هنا أرض المارون»، أعلنت إديتي، «تعال سننزل حتى النهر». الطريق الضيق موحل، حاد، تمسكت بالنباتات حتى لا أنزلق. صارت إديتي بعيدة عني، تحت، إنها تنزل بسرعة، تقفز من صخرة إلى صخرة، تقوم بذلك منذ فترة طويلة، فهي تعرف كل تفصيل من الطريق. وصلنا إلى النهر بينما كان المطر قد بدأ يهطل. الهواء ساخن وثقيل في حلقي، واشعر بأن العرق يتصبب على وجهي وكل جسدي، ويختلط بنقاط المطر الباردة. في البداية صادفنا السرخس، ثم شجيرات متداخلة من النباتات المتسلقة، ثم بعد ذلك ظهرت الأشجار الكبيرة، الأبنوس، البمبوقاوية، الصنوبريات، وشجر السبوتية. إن ماء النهر يجري في سيل

جارف بين كتل الحِمم المصقولة، وهو يصدر صوتاً متعدداً، غير واقعي، يبدو أنه يأتي من كل ناحية. إديتي اختفت، ذهبت بعيداً، وهي تركض، حافية القدمين في النهر. استنتجت أنها في هذه اللحظة ليست موجودة لي، إنما لنفسها، لطقسها، وصلاتها. إن «MWF»، ودفاتر التدوين، الصور، القوائم، كلّها ليست شيئاً بالنسبة لها، مجرّد مبرّر لتعيش في الغابة. لن تكتب مذكّرات، لن تدرس في متحف التاريخ الطبيعي في باريس أو في أي مكان آخر. ولا شيء له علاقة ببحثي عن آثار رافوس كوكولاتوس(*)، الطائر الكبير الأخرق، وحكايتي، ووسواسي الناعم. بالنسبة لها هناك شيء آخر تبحث عنه هنا، شيء يربطها بالزمن، وسرُّ الخلق، شيء بعيد ودائم بقدر ما طرق النجوم هي كذلك. لقد مرَّ من هنا الرجال، والبحّارة المغامرون، المجرمون، والعبيد الهاربون، وعلماء الطبيعة الباحثون عن النبتة النادرة التي سيعطونها اسمهم، وربما مرَّ أيضاً الباحثون عن الكنوز، والباحثون عن القصص. لم يمسّوا شيئاً هنا، لم يتغيّر شيء. الماء ما زال يجري كالشلّال على طول الحجر البازلتي، ويملأ الأحواض، ويهبط نحو البحر عبر الرمل الصَّدِئ. الأشجار واقفة، متمسّكة بالأرض، تشكّل قبّة تخترقها الشمس عدّة ثوانٍ كلّ يوم. وصلت إلى الفسحة الكبيرة التي يلتقي فيها السيل المندفع من جهتين ليشكّل النهر الأسود، وهنا رأيت إديتي. لقد استلقت على صخرة ملساء في وسط المياه، إنها جامدة، تنظر نحو الظلّة، جسدها خفيف وداكن لدرجة أني أشعر وكأنني أرى صورة، أو انعكاس صورتها على الصخرة المبلولة. وقفت لحظات أتأملها، لم أجرؤ على توجيه الكلام لها، لأني خفت أن أزعج صمتها. وها هي ذي تُكلّمني، تكلِّمنا جميعاً، لتقول لنا ما يوجد في هذا المكان، في الغابة، في الجزيرة، ما لا يقتصر على الذاكرة الإنسانية فقط. تقول هذا بصمت، بجسدها المختلط

(*) الاسم العلمي لطائر الدودو.

بالصخرة فقط، بذراعيها العاريتين ويديها المجتمعتين فوق بطنها المنتفخ، ورجليها في تيار الماء. بعد ذلك لم أعد أنظر إليها. وقفت أنا الآخر على ضفة الماء، أسمع أصوات النهر، وأشمّ رائحة الأرض، رائحة الحمض الحديدي للرمل والحجارة، وأرى الحشرات الصغيرة جدّاً ترقص فوق بقع الماء، وأسمع أحياناً صرخة بعيدة، أو صياح رئيس البحر أحمر المنقار الذي يدور قريباً من الصخرة، همس، إنهاك، وإعادة.

ها أنا ذا أقترب من إديتي التي جلست على صخرتها. نظرت إليّ، وانشرح وجهها بابتسامة. «تعال!»، تقول لي، «يجب أن تتعرف على السماء». ولكن السماء مخبّأة وراء الأوراق، والغيوم. تقول بهدوء: «ياد بهيسا فاتا بارفاتا*». إن الخوف من الله هو الذي يحرِّك الهواء، أتفهم؟ حتى الهواء القوي الذي يعصف في فراغ السماء يبقى في السماء، وحتى الكائنات الحية الهاربة هي الله». لفظت هذه الكلمات بصوت هادئ، دون تضخيم. ثم مدّت يدها نحوي كي أتسلّق الصخرة. بقينا جالسين الواحد بجانب الآخر، اليد تمسك باليد. أسمع ضجيج السيل المزدوج، أسمع الهواء، وأشعر بقبّة السماء فوق رأسي، أسمع صوت أوراق الشجر، والحيوانات في جحورها وفي أوديتها. ما جئت أبحث عنه هنا، هو الزمن الذي سبق وجود الناس، في «مار لونغ»، وفي «مار أو سونج». زمن حين كان كل شيء ممكناً، زمن يسبق الموت بقليل. بقينا جالسين طويلاً، في ضوء النهار الذي ينزلق، تحت جدار الأشجار، على ضفة الماء الأسود الذي يسيل من حولنا. بردت يد إديتي. فقامت دفعة واحدة، وعادت إلى الضفة، سارت نحو الأسفل، وذهبت. أتبعها بصعوبة، أخاف أن تضيع مني.

التحقت بها على الطريق، في المكان الذي بنت فيه الإدارة دورات مياه عامة ومركز استعلامات. كانت إديتي قد استعدّت لكل شيء. فقالت:

(*) Yad bhisa vatah parvata.

«أنت تتابع طريقك من هنا، ستجد موقف الباص في نهاية الطريق، وهكذا يمكنك أن تعود إلى بيتك. لا بدّ أن أرجع أنا إلى المخيّم، هناك اجتماع آخر هذا المساء». لا أستطيع تخيُّل أن كل هذا لن يحدث إلا مرة واحدة: «هل أستطيع أن آتي غداً أو في يوم آخر؟ لأسمع نبض قلب العالم». نظرت إديتي إليّ، نظرة مرح في عينيها. بالنسبة لها أنا الطفل وهي البالغة. «بإمكانك أن تأتي متى أردت. عندما يكون لديك وقت». وأضافت بعد لحظة من التفكير: «أو يمكنك المجيء عندما تتعب من اصطياد الأحلام». ثم أضافت: «أنت صياد الطيور. أنت الذي يحقق العدل». إنها تهزأ، ولمّا رأتني مغبطاً، وضعت قبلة خفيفة على فمي، لمدّة سمحت لي بشمّ رائحتها، رائحة عرقها ورائحة شعرها المبلول بالمطر.

استدارت، وذهبت مسرعة. أخذت من جديد الطريق الذي يغرق في حلق الليل المعتم، وصعدت نحو المنحدر الصخري. استطعت أن ألمحها للحظات. عندما وصلت إلى منعطف «لاريفيير نوار»، استدرت، وإذا بالجبل مغطّى تماماً بغيمة بيضاء. ندهت نحو قعر الهاوية: «إديييتي». صرخة غريبة تتردّد، صرخة تُضحك الأطفال الواقفين على طرف الطريق.

بومبونيت

محبّ العدل، مناصر السود. ما زالت جملة إديتي تدور في ذهني. لم أكن قد فكرت بذلك من قبل. لقد نقلوا إليّ جملة قالتها واحدة من بنات باتيسون، كنت قد رأيتها مرّة أو مرتين، بمناسبة تناول شاي بالفانيليا وبعض حلويات النابوليتان، في صالون «لا روش أو مويت». كان الحضور من أولاد وبنات الأعمام، الأصدقاء، المخطوبين، والأكبر منهم سنّاً، من جيل لاسوركوف أو إميلين كارسيناك، كانوا يتحدّثون، لقد أتوا ليروا آخر سلالة الفيلسن، المسمّى جيريمي وهو في النهاية، اسم نبي! بنات طويلات وشقروات، وحتى السمر منهن يبدون شقراوات. ملفوحات بالشمس، رياضيات، يلعبن التنس وركوب الأمواج، جاهلات بأغلب الأشياء التي يُتكلَّم عنها في باريس أو غرونوبل أو نيس، لكنّهنّ بنات طيبات على الرغم من ذلك! لا أعرف كيف دار الحديث عن الأعياد الهندية، والحجّ السنوي إلى «غراند باسان»، وتمثال «شيفا»، والسهم الذي يحمله بيده، «يا للهول إن أصابته صاعقة برق وحوّلته إلى غبار!». لا تزعجني الملاحظات العبثية عادة، على العكس من ذلك إنها تضحكني. على الرغم من ذلك، ارتأيت أن أتدخّل: «كل الأديان فيها شيء مثير للسخرية، لا يمكنكم أن تتخيّلوا كل الأشياء البشعة المرعبة التي نراها في الكنائس الكاثوليكية، في فرنسا

أو في إيطاليا!». عندئذٍ قامت واحدة من البنات، شقراء حقيقية، اسمها أوريلي، بالرد مباشرة: «ولكن الهنود ليس لهم دين حقيقي!». نظرت إليها باستغراب. «برأيك ماذا يفعلون داخل المعابد إذاً؟!». حاولت أن أتكلم عن الكتب المقدسة، عن نصوص الفيدا، عن المهابهاراتا، ولكنني أدركت أن الكلام سيكون من دون فائدة، فالموضوع لا يهمُّهم البتّة. ثم فجأة تصاعدت حدّة النقاش، وتدخّلت العجائز من عائلة البير وفالمر وفيريو ودومونتيو، إلخ... كنّ يتكلّمن عن الحروب، عن الغزو، والجمعيات السرية، والسرطان الذي يلتهم هذه الجزيرة، وذنب الإنجليز الذين تخلّوا عن كل شيء، الذين خرّبوا كل شيء، وذلك بسبب سماحهم للسكان الأصليين بالتصويت والاستقلال. «على الرغم من كل شيء!» قلت في محاولة أخيرة: «تشتكون من الذين كانوا سبب ثروتكم، من الذين أدخلوا الازدهار إلى هذا البلد!». وهنا جاءتني مجموعة من الاعتراضات: «آه، لا، أنا لا أدين بشيء لهم، ليسوا هم من بنوا ثروتي، كل ما نملكه ندين به للأوروبيين، هم من نظموا تطوّر الجزيرة، ومن اخترعوا التقنيات». ثم اشتكين من أننا لم نعد نحترم شيئاً، وأن هؤلاء الذين لا قيمة لهم والذين يسيرون حفاة يمرّون من فوق حدائقهم ليهربوا إلى البحر. قلت: «بصراحة! اشكروا هؤلاء الحفاة لطيبتهم، لأنهم لو قرروا غزو بيوتكم الجميلة، فلن يأخذ الأمر أكثر من عشر دقائق لكي تُدفعوا أنتم نحو البحر». ولهذا السبب تذكرت التعليق الحاسم لابنة السيدة باتيسون الكبرى، أو للابنة الثانية أوريلي: «جيريمي فيلسن عنصريّ، لا يحب إلا السود!».

ليس هذا ما سيوقفني. أريد أن أرى كل الأثر، أريد أن أرجع لكل أصول الحكايات. وهذا ليس سهلاً. إنها مخبّأة، سرّيّة، فضائح عائلية، أكذوبات ثقيلة. غطّى النسيان هذه الجزيرة، غطاها بغشاء طريّ، لكن شفاف، من الوهم.

وضعت خارطة أماكن الذاكرة. خطّطتها من الجنوب إلى الشمال. ما تبقّى منها، أحياناً كانت كومة حجارة سوداء تظهر من بحر حقول القصب، وأحياناً أخرى من البياض الشبحي لمدخنة، أو لفرن الجير.

في الجنوب

مار تاباك، سانت أوبان، لا روز، سورينام
روز بيل، سافينيا، سيباستوبول
غرو بوا، فيرجينيا، لا فلورا
مالاكوف، بو شان، بو فالون
بوا شيري، لا باراك، لا كارولين
بريتانيا
لي مار، سوف تير
لو سوفلور بودوان
مون تريزور
بليزانس
سافاناه، دو برا، بيل أير، ريش ان او
سوليتود، سان فيلكس
بيل أومبر
ومخيّماتهم وهي قبل كل شيء أمكنة لحجز العبيد،
مخيّم أيتيه، مخيّم مارسولان، مخيّم كارول، مخيّم روش، مخيّم باتاي
ثم أحياء العمال الهنود الذين يُنقَلون كلّ يوم إلى الحقول للحراثة أو الحصاد.

حول ألما

لا لورا، بون فين، لافينير، فاليتا
هايلاند

باغاتيل، مينيسي، أيبين، دوبروي
لا كومون، بل روز، سان سوسي
ديب ريفير
والمخيّمات التي انمحت، هنا أيضاً، بالإعمار أو بتقسيم الأراضي، ولكن أسماءها بقيت تُردِّد الضجيج والعرق والمرض والموت: مخيّم فوكورو، مخيّم توريل، مخيّم ماسك، مخيّم ماسك بافيه.

في الغرب

مدينة، تاماران، اليمن، آنا، ألبيون، واهالا، شبل ومخيّم الكريول.

في بور لويس

مخيّم سابلون، مخيّم بنوا، مخيّم يولوف.

في الشمال

بيتيت جولي، غراند روزالي
فيل باغ، مون سونج، بارلو، سان أنطوان
بيل فو موريل، بيل فو هاريل، بيل فو بيتو
مون غو، غراند إيه بتيت روتريت
كونستانس، سوليتود، بون أير، بون أسبوارطلا بودونيه، مون لوازير، فوباخ
يونيون موريل، بيتيه رافريه، بيتيه باكيه
مون أوريب
سوتيز، ذا فال
مون شوازي، بلين دو باباي، غوسال، بو بلان.
والمخيّمات: مخيّم بافيه، مخيّم سيبوين.

سأذهب إلى كل مكان، أريد أن أرى كل شيء، حتى لو لم يبقَ شيء

أراه. هذه الأسماء على الخريطة هي مسلّات تذكارية مغمورة، أسماء تنمحي كل يوم، أسماء تهرب بفعل الزمن.

كيف يمكن معرفة كل شيء؟ كيف يمكن الفهم؟ أين هم المئة وستّون عبداً الذين كانوا في بوفالون، أين يعيشون، وأين ينامون؟ في «سوياك» بحثت عن موقع آخر لأكثر حادثة غرق عبيد مأسوية، تلك التي حصلت لسفينة «لامينيرف» التي استأجرها تاجر العبيد «غوفيليه». بحثت عن أجساد ضحايا الجدري التي قذفها البحر على الشاطئ، بعضهم أُلقي في الماء وهو ما يزال حيّاً لتخفيف الثقل عن السفينة التي كانت تغرق، الأجساد التي دفعتها ومزقتها الأمواج الطويلة، وقطعت رؤوسها الحيتان وأسماك الأنقليس.

المكان جميل، ويحمل اسماً جميلاً، إنه شاطئ «بومبونيت». لكي يهرب تاجر العبيد من الإنجليز الصالحين، الذين أثارت تجارة العبيد سخطهم، دار حول الجزيرة واختار الممر الجنوبي للعبور، في ليلة معتمة، متعرّفاً على الطريق من خلال القناديل الصغيرة المعلّقة على منازل «سوياك» وفي أعلى كنيسة «راينبيل». في آخر لحظة انزاح يساراً بالسفينة في محاولة للهروب من الصخور، ولكي يرسو بشكل أفضل على الضفة الثانية، كان قد سبر فجوة «ديسني» وظنّ أنه ما زال في عرض البحر.

في تلك الفترة من السنة يكون الساحل خالياً من الناس، مخيّمات الإجازات مغلقة، والنوافذ مغلقة بسبب الهواء القطبي، فقط بعض سفن الصيادين راسية على الرمل، والصواري مزالة. المحيط بارد، ورمادي بقدر ما هي السماء. وتنقلب الأمواج على الحواجز المرجانية بصعود وهبوط حسب اتجاه الرياح. كانت الطحالب تشكّل بقعاً سوداء، على الرمل المخلوط بحبّات البازلت، ولم يكن من الصعب تخيُّل أجساد الغرقى. على كل حال، لو حفرنا فسنجد بقايا هياكل عظمية ابيضّت بفعل الرمل

والملح منذ ليلة 10 آذار 1818 المشؤومة. كم نسبة من نجوا من الأمراض والجروح من المئتي ناجٍ، كم عدد الذين خُبِّئوا في بيوت الصيادين، كي يُسلَّموا في ما بعد إلى إقطاعي المزارع؟ كم امرأة، كم طفلاً؟

بومبونيت هو مكان لذيذ، يقضي السياح الفرنسيون، والألمان، والجنوب إفريقيين إجازاتهم فيه، في شاليهات على الشاطئ. في ساعات الحرّ يستسلم بعضهم لمتعة القيلولة، العيون تتجه نحو النوافذ المغطاة بستائر شفافة يزيحها الهواء. وفي عطل نهاية الأسبوع، تعكس الحدائق المعشّبة بالنجيلية، وأجمات الغاردينيا التاهيتية، صدى صراخ الأطفال والعائلات المسترخية تحت المظلات.

غسل أرجل

هذه نهاية الطريق التي أمرّ عبرها كلّ يوم في الباص انطلاقاً من «روز هيل» وعبر الشوارع المستقيمة وصولاً إلى الكاتدرائية. لم أعد أذهب إلى «واردفور» فهو مكان مسكون بالشياطين. هناك أصبت بمرض Σ الذي التهم وجهي وجفنيّ وقفّع يدَيّ. باتت الكاتدرائية ركني الجديد حتى أني نسيت مقبرة «سان جان» حيث دُفن والديَّ المسكينين. مضت أشهر وأسابيع لم أذهب فيها إلى هناك، منذ أن حصل لي ما حصل في المقبرة الغربية. أتخيّل أن أحدهم ينتظرني ليرميني في الحفرة. لأني لا أعطيه نقوداً، حفر السيد زان قبراً لي في مقبرة «سان جان»، وهو يتربّص بي مختبئاً خلف أشجار السرو، متسلّحاً برفش كبير كي يدفعني إلى القبر ويهيل الحصى عليّ ويدفنني. ترجّلت من الحافلة في «كودان» ومشيت على شاطئ البحر الذي يبدو جميلاً مع كلّ تلك القوارب والفنادق الفخمة والمقاهي. الفتيات يضحكن حين يرينَني. أنصت إلى الريح تعزف على حبال أشرعة القوارب. قال أبي إن جدّنا أكسيل، حين وطئ أرض الجزيرة، سكن قبل تشييد ألما وكل ما إلى ذلك في الميناء بالقرب من البازار، حيث كان يعمل في بيع النبيذ والثياب. كل شيء تغيّر منذ ذلك الوقت، حتى منزله هُدِم. لم يبقَ شيء من ذلك الزمن. قال والدي إن جدّنا خسر كل شيء لأنه عمل على تحرير

العبيد مثل جون جيريمي. قال والدي إن أصحاب المزارع كانوا يضربونه ويرمونه بالحجارة، كما أضرموا النار بمتجر النبيذ الذي يديره. لهذا السبب انتقل إلى المرتفعات، ووجد هذه المنطقة الجميلة على ضفة النهر بالقرب من المستنقع واستقرّ فيها. هي دار صغيرة تقع على طريق «كارتييه ميليتير»، لها مزرعة تبغ وليس قصب سكّر، لأنه لم يكن يريد أن يشبه المزارعين الذين ضربوه بشيء. وجد في ما بعد اسماً لمنزله، فأطلق عليه اسم ألما تيمّناً بزوجته، وهكذا بدأت حكاية ألما.

تقع الكاتدرائية في أعلى المدينة، بعد شارع «رويال» و«رامغولام»، بالقرب من الحصن. أيام الآحاد، يأتي الكثير من الناس لحضور القداس المُرتّل، كما يُحضرون الطعام للناس الأشدّ فقراً. الكاتدرائية هادئة في باقي الأيام. أنا أيضاً هنا، لكن ليس للأكل بل لأرى فيكي. جلست في ظل جدار مكاتب الإدارة وانتظرت، فلم أكن أرغب في الوقوف في الطابور مع المشرّدين. انتظرت فيكي بهدوء. جاءت في سيارة زوجها الطبيب «الأوستن» الزرقاء، تتوجه مباشرة نحوي وتعطيني شطيرةً مكوّنة من لبّ الخبز ومن خسّ وطماطم وأحياناً سمك المارلن المدخّن. لكنّي لست هنا فعلاً من أجل الشطيرة. أنا لست بجائع، فإني آكل الرز والخضار المشكّلة كل صباح عند هونورين، أنا هنا لأني بحاجة أن أرى فيكي ذات العينين الزرقاوين والابتسامة الجميلة. تمشي مباشرة نحوي ولا تعير الآخرين اهتماماً، تعطيني شطيرة وتقول لي بلكنتها الإنجليزية: «هل بتَّ أفضل حالاً اليوم؟». أجيبها لكني لا أستطيع استخدام صيغة المفرد في مخاطبتها، فهي شابّة وأنا متقدّم في السن. قلت لها: «جيد! وأنتم كيف حالكم؟». تحدّثنا قليلاً، هي واقفة وأنا في الظل والشطيرة في يدي. قالت لي: «كُلْ، إنها لذيذة!». قضمت الخبز لكني لم أجرؤ على مضغه أمامها، أقوم دوماً بوضع يدي أمام فمي عند الأكل. انتظرت أن تنصرف، أن تعود إلى الكنيسة لتوزّع

الشطائر على الآخرين. أنا دودو، دودو فيلسن ولست متشرداً أو متسكعاً، حتى وإن كان حذائي مصنوعاً من جلد أموات وثيابي تعجّ بالثقوب. والدي قاضٍ، وأمي، راني لاروس، مغنّية كبيرة حتى وإن كنت لا أحفظ أغانيها. نملك منزلاً في ألما مبنيّاً من الأخشاب، وأحراجاً كبيرة، ونهراً، وطريقاً مبلّطاً يؤدي إلى المستنقع. يقف المشردون الآخرون بالقرب من الشاحنة، يأكلون شطائرهم ويمدّون أياديهم كي يحصلوا على المزيد من الفواكه والحلويات أو شراب الصودا. يصيحون قائلين: «أعطِني، أعطِني يا آنسة!». يريدون سجائر وثياباً، أيَّ شيء، لكن شاحنة الكنيسة لا تزوّدهم بالسجائر أبداً، لأن السيدة التي تدير كل شيء، مونيك أو فيرونيك لم أعد أذكر، ضد التدخين، وتقول إن التدخين يساوي الموت. معها حقّ فوالدي توفّي لتدخينه كلّ تلك السجائر.

كنت قد أتيت في أحد الصباحات إلى الساحة، من غير هدف محدد، فقط لأرى ما يحصل. كان هنالك الكثير من الناس في ساحة الكاتدرائية المليئة بمقاعد خشبية صغيرة يشغل كل واحد منها مشرّد ينتظر. لم أجد فيكي؛ لم يكن هنالك سوى فتيات شابات يلبسن ثياباً قديمة مؤلفة من بنطال جينز وقميص بياقة مدورة (بولو) قطني، أما الرجال فكانوا يلبسون أطقماً سوداء وربطات عنق لأنهم يعملون في مكاتب شركة «لونرو» الموجودة بالقرب من هنا.

لا أعلم ما يجري. بقيت واقفاً متظلّلاً بجدار المكاتب أنتظر مجيء فيكي. لكن امرأة أخرى أتت وأمسكتني من يدي، واصطحبتني إلى مقعد صغير حيث طلبت مني الجلوس. المقعد المنخفض آلمني، فالمرض يمنعني من ثني ركبتيّ جيداً، أستطيع المشي والعدو لكني لا أستطيع الركوع. كانت الفتاة سمراء شابّة، ولها شامة على وجهها وأنفها، تتكلم بهدوء وبصوت منخفض. أنا معتاد على صوت فيكي ولكنتها الإنجليزية،

لكن هذه المرأة تتكلم الكريولية. قالت لي: «اجلس هنا وانتظر قليلاً(*)». تكلّمت معي كما لو كنت طفلاً فلم أردّ عليها. انتظرت جالساً على المقعد الصغير. المشرّدون من حولي جالسون هم أيضاً دون حراك بانتظار توزيع المواد، لا يتكلمون بل يبتسمون بسخرية من وقت إلى آخر. أنا لا أعرفهم فهم مشرّدو حيّ البازار في المدينة، ينامون في الزوايا أو في حديقة «كومباني» بالقرب من الحصن ومن المقبرة الغربية. هم سود، وجوههم سوداء، أياديهم سوداء وثيابهم سوداء، يتدثرون بأغطية قديمة على الرغم من الشمس الحارقة. لا أعرف أسماءهم لكنهم يعرفون اسمي، يستديرون ويصيحون: «دودو يا دودو، أين كنت تختبئ؟!». هم لا يذهبون إلى المرتفعات إذ إنهم يخشون البرد، وتشكّل الشوارع المهدمة في «كاسيس» و«كولين دو هوسار» حتى «باي»، النطاقَ الذي يعيشون فيه. منهم من يوجد على الجانب الآخر من الطريق السريع، في «روشبوا»، «كاردلالو» و«كارو كاليبتوس» وفي حيّ «لاكور» أيضاً حيث لا يمكن للمرء الدخول إن لم يكن من سكان المنطقة. حتى نيافة المطران لا يمكنه الذهاب إلى هناك.

عند حوالي الساعة الحادية عشرة، تجمّع الرجال المرتدون اللون الأسود وبدأت النساء والشابات بالتقدّم ضمن الصفوف، بين المقاعد الصغيرة، حاملات دلو سقاية من القصدير ومنشفة بيضاء على الذراع. شعر عندئذٍ المشردون بالخوف وهمّوا بالفرار. جاء الكاهن في سيارته، ارتدى ثوبه الكنسي، فانتفض المشردون من كراسيهم وهرعوا بسرعة حتى أن بعضهم كان يترنّح من السكر. صاحت النساء: «انتظروا، لا تخافوا، ابقوا، ابقوا!(**)». مع ذلك تابعوا هروبهم.

توقفت شاحنة الكنيسة في الساحة حاملة الشطائر والصودا. لكني

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

متأكد من أن المشردين لا يشعرون بالجوع ولا العطش لأنهم كانوا يفضِّلون الهروب على أن تُغسَل أرجلهم. اقترب الكاهن حينئذٍ مني، بقيت جالساً على المقعد الصغير لأني كنت ما أزال آمل أن تأتي فيكي. توقف الكاهن أمامي، هو طويل وضخم، أصلع قليلاً، يلبس ثوباً أخضر وأبيض. هو لا يعرفني لكني أعرفه جيداً، اسمه الأب شوسون وهو لا يخدم في الكاتدرائية بل في كنيسة «لوكاب مالورو» في الشمال. أعرفه لأنه يقوم بتزويج الفتيات الكريول من المسلمين. لهذا السبب يرتدي ثوباً أبيض من جهة يحمل صليب المسيح، وأخضر من جهة أخرى يحمل هلال محمد. انحنى الأب نحوي وقال بصوته الدافئ: «ما اسمك يا بنيّ!؟». أحبُّ صوته كثيراً، فهو يشبه صوت الكاهن الذي قام بمراسم جنازة والدي في «سان جان». «ما اسمك يا بني؟». كان بوسعي الردّ بالقول: «دودو»، كما أفعل عادةً، ولكني آثرت استخدام اسم العائلة «فيلسن». تفحّصني بنظره وتابع دورته على المشرّدين الذين فضّلوا البقاء جالسين على مقاعدهم الصغيرة. قدمت امرأة كريولية، ليست تلك التي أمسكت يدي، نزعت حذائي وباشرت بغسيل قدمي ومن ثم مسحتها الواحدة بعد الأخرى بمنشفتها. في هذه الأثناء، كانت النساء الأخريات يغسلن أرجل المشردين ويمسحن أقدامهم بمناشفهن البيضاء. شعرت بالخجل لأن رجلي شوّهها التهاب المفاصل الذي لوى أصابع قدمي الواحد فوق الآخر. لكن المرأة كانت لطيفة ولم تقل شيئاً، بل ابتسمت لي. لديها أسنان تشعّ بياضاً من بين شفتيها السمراوين.

أحب أن أرى أسنان الفتيات لأن أسناني ليست بيضاء، بل منخورة، والكثير منها سقط، لكن ذلك ليس بسبب المرض بل لأني، كما تقول هونورين، آكل الكثير من قصب السكر وموز جينجي. ألقى الأب شوسون خطاباً أثناء غسل الأرجل. تراجع قليلاً إلى الخلف وظهره نحو

الشمس وراح يتكلّم بالفرنسية قائلاً إن هذا اليوم مهمّ لأن يسوع المسيح حاضرٌ معنا، يقوم هو أيضاً بغسل الأرجل في خميس الأسرار اليوم الذي يسبق صلبه. نهضت فتاة ووقفت أمامنا، وأدارت ظهرها للشمس، وبدأت تقرأ من كتاب أسود: «الإصحاح الثالث عشر من إنجيل يوحنا». إنها تملك صوتاً حادّاً يرتجف قليلاً. أظن أنها ليست معتادة على القراءة أمام الناس. وجدت المقطع جميلاً. توقف المشردون عن السخرية حتى أن أحدهم أخذ يبكي، ولكن ذلك لأنه شرب الكثير من العرق، أو لخجله من الجلوس على المقعد بثياب وسخة، فيما تقوم الفتاة الشقراء بغسل أرجله السوداء.

> أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالمٌ أنّ ساعتهِ قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحبّ خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى...

صبّت المرأة السمراء الماء البارد على رجلي العارية بهدوء. راقبتها وأنصتُّ إلى صوت الفتاة الصافي، صوت يشبه رقرقة الماء المنسكب من الدلو. مرّرت المرأة السمراء يدها الناعمة جداً على قدمي وأصابع قدمي، الأمر الذي بعث في نفسي رغبة بالضحك، فهذا يدغدغ ويداعب. يصدر الماء صوت انسكابٍ خافت وناعم ويتابع الصوت الصافي قراءة الكتاب الأسود. صمتت كل الأصوات إلا أصوات المدينة والدراجات النارية والحافلات والأطفال الذين يلعبون في ساحة الكنيسة ويضحكون ويسخرون قائلين: «يقوم بغسل أرجلهم»(*).

> قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وأخذ منشفة واتّزر بها.

(*) باللغة الكريولية في النص.

بعض المشرّدين كانوا مطأطئي الرأس، ويعطون انطباعاً بأنهم لم يكونوا على دراية بأن لديهم أرجلاً، أو بأنهم لم يكونوا قد فكّروا فيها من قبل.

ثم صبَّ ماءً في مغسل، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متّزراً بها.

توقفت الفتاة الشقراء كي تبعد خصلة شعر أسدلها الهواء على وجهها. أنصتت إلى صوتها الرقيق الذي تردّد الساحة صداه.

فجاء إلى سمعان بطرس. فقال له ذاك: يا سيّد، أنت تغسل رجلي.
أجاب يسوع وقال له: لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم في ما بعد.

يشبه بعض المشرّدين سمعان-بطرس إذ إنهم لا يريدون نزع أحذيتهم ويصيحون: «ما من حاجة إلى ذلك، أرجلي نظيفة، ما من حاجة إلى غسلها يا آنستي(*)». ينتظرون الشطيرة والصودا، فهذا ما أتوا من أجله، لكن الأب شوسون يقوم بوضع يده على رؤوسهم، ويدفعهم للجلوس، فهو كبير وقوي. يتباعد طرفا ثوبه الأبيض والأخضر كجناحي طير.

قال له بطرس: لن تغسل رجلي أبداً. أجابه يسوع: إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب. قال له سمعان بطرس: يا سيّد، ليس رجلي فقط بل أيضاً يدي ورأسي.

لمّا انتهى كلّ شيء، أكلت شطيرتي مستنداً على الجدار في ظل المكاتب. لم تأتِ فيكي، لكنّي مسرور ولم أنسَها. أنا هنا وقدماي نظيفتان أيضاً.

(*) باللغة الكريولية في النص.

كريستال (تتمة)

اختفت. خلال أيام كاملة، راقبت حديقة «دونغ سوو»، والعشب الأخضر المقروض، المدخل، الطريق، وحتى الحيّ في الصف الثاني، حيث يسكن الخدم. لم تعد كريستال. منذ أيام، سمعت ضجّة في البيت، فظننت أنها جاءت أخيراً، هي وطيّارها. ولكن الضجة كانت من العجوز الشرّيرة التي تقوم بمهام البوّاب للبيوت التي ستؤجّر، كانت تشبك في زنّار على خصرها كلّ مفاتيح البيوت المحيطة، وهي البوابة المقيتة التي تفتح الأبواب للزبائن، في موريشيوس تُسمّى الباتشيارة batchiara(*). وهي من رافق الطيار وقدّم له الشابة. ولكن هذه المرّة لم يكن «دادي» (أو مهما كان اسمه الملعون) هو الذي جاء في زيارة. الرجل كان نحيلاً، بشرته صفراء، لباسه أسود، نظر قليلاً إلى الحديقة، ثم قليلاً إلى الداخل أيضاً، ورحل. طيّار كريستال لن يعود أبداً، أنا متأكد الآن من ذلك. إما أنه قد غيّر مسار رحلته، أو أنه يقوم بطيران داخلي في أوروبا. هذا إلا إذا كان قد وُشي به من قبل السيدة التي تؤجّرني البيت، وهو خاف أن ينتهي به الأمر في السجن بتهمة التحرّش بالأطفال. من خلال شفرات زجاج النافذة الخشن، نظرت إلى العشب الخالي الذي تقفز عليه طيور القرلى. هذا المكان التي كانت

(*) الشيطان المسكين.

تتشمّس فيه، مرتدية لباس بحر «بيكّيني» أخضر اللون وبجانبها شراب الكوكو لوكو ومجلات الطائرة خاصتها. إنها كريستال، الطفلة، المرأة، التي كانت تتمطمط تحت الشمس كأنها حيوان كسول، أو تركب الدراجة النارية مع أحد أصدقائها وتقود بسرعة الريح، عبر الطرقات الهادئة لـ«بلو بيه».

قرّرت الذهاب للبحث عنها. المرور في كلّ الطرقات التي مرّت بها، في «فلاك»، و«فينيكس»، و«باغاتيل»، حتى «غودان». أنزلتني الحافلة عند مدخل «مايالاند»، كان الطقس جافاً، السماء تخرش العيون. وبدت لي القبّة التي على شكل زهرة اللوتس أو زنبق الماء أكثر قباحة تحت ضوء الشمس: بصلات الزهر المتفتحة كانت تشبه فقاعات الصابون التي ترتجف في الهواء المشبع بالحرارة. في الداخل كان الجوّ خانقاً. على الرغم من وجود تيارات التكييف الباردة، إلا أن الناس كانوا فاتحين أفواههم، بحثاً عن الهواء. في المركز كانت القبة المتعددة الألوان تدور ببطء ناشرةً بقع ألوان متعددة، الأحمر القاتم، والأصفر، والأخضر، والبنفسجي. وربما لأن قلبي كان يخفق بسرعة كبيرة، تولّد لدي انطباع بأن الجميع يدور حول نفسه بالحركة الدائرية نفسها وهو يلاحق بقع الألوان حول النافورة الجافة (كان جهاز ضخّ المياه قد تعطّل في اليوم التالي لافتتاح المركز من قبل الوزير). عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، كان جمع المرتادين مؤلفاً من طلاب هربوا من «أيبين» أو من «ريدوي»، وطالبات إعداديات في لباسهن الموحّد الأزرق. لم أتخيّل وجود متوحشتي الأمازونية في وسط هذه المجموعات الصاخبة، بين هؤلاء الفتيات المهذّبات والثريّات، مع أحذيتهن الرياضية من نوع «كونفيرس» وهندامهن من نوع «بينك»، وشعرهن المصفّف، وهؤلاء الطلاب الذين يدرسون القانون أو المعلوماتية، موظفو البنوك المستقبليون، والصحفيون المستقبليون،

فكريستال التي أعرف، الهاربة المتحدرة من «المارون»، الضائعة، التائهة، الهاربة من عائلتها، من المدرسة، الذكية وعلى الرغم من ذلك لا أمل منها، غريبة للأبد عن هذا العالم. أعرف أني أخترعها، أخترع لها قصة، هي التي لا تاريخ لها، جئت حتى «مايالاند» وأنا أعرف أنها لن تعود إلى هنا. إنها منذ الآن تنزلق إلى عوالم غامضة، شوارع ممنوعة، كهوف منطقة «بروجيكت»، الحواجز الرمادية في «روشبوا»، ومدينة «لاكور»، و«فاليه دي البرتر»، وجوانب الطريق السريع الذي يتجه نحو «ذا نورث».

في الليل، تسير سيارة الأجرة ببطء على طول الطريق البحري. فهم السائق أني أبحث عن شيء ما، أو شخص ما، يتخيّل أني أبحث عن طريدة سهلة، أو تخيّل أني أنا الطريدة، أجنبي في عمر ما بين الشباب والكهولة، يضع حقيبته الموزية الشكل المعلّقة على خصره، حيث خبّأ عملته الأجنبية وبطاقاته البنكية وجواز سفره، وشهادة السياقة. يحاول أن يتكلم، لا أجيبه، عندئذٍ يركّز اهتمامه على المحطة الأولى على الراديو، تغمر الموسيقا والضجيج السيارة، وعلى الرغم من أن النوافذ مفتوحة إلا أنني أشعر برأسي يتصدّع، «هل أنعطف من هنا أو من هناك يا معلم، هل أتابع إلى الأمام؟»(*). إني لا أترقب شيئاً محدّداً، الأضواء تنزلق على الجانب، فلاشات، شلالات النيون، أبواب محاطة بنجوم صغيرة، وأسماء غير كاملة، غير مفهومة،

آزار

ليونز

لا كامبوز

أوريون

أنوشكا

(*) باللغة الكريولية في النص.

فقاعات تنفجر، تختفي، أسهم، مثلثات، دولاب مدهش، خيوط رقيقة، زخرفة، الأسطح الكبيرة الزهرية للجدران، زهور غريبة، غبيّة. لقد ثملت.

على طرف الطريق، خلف القصور، منطقة مجذومة، عوراء، ليست أطلالاً كالتي نراها في «أبيركرومبي» أو «فاليه دي برتير»، إنما واجهات من ديكور من الكرتون، أبواب وهمية، وسقيفات كاذبة، مغاور من البلاستيك المذاب، ثم الضجيج الذي يخرج من كل هذه الفوهات، من هذه المغاور، صوت صندوق الموسيقا، ضربات صمّاء تزعزع أرضية الطريق، تفقأ طبلة الأذن، وأصوات الناس، التي هي أحياناً خشنة وأحياناً أخرى حادة، والحادة منها هي التي تحفر أكثر. ألتقط أجزاءً من ألحان، من مقطوعات، من إعادة، أو لازمة تقع عليّ كضربات عميقة في الرأس، وأنا أمشي على طول هذه الطريق على غير هدى. وجدتهن أمام نادي «غوغو» الليلي، مصطفّات على الجدار على جانبي الباب، لكي يدخلن يجب أن يُبرزن هوياتهن، أو أن يكون هناك رجل مرافق، ليس شابّاً صغيراً، رجل له مقام، بنطال الجينز ممنوع، وهذا مكتوب على المدخل على ورق مقوى: «نحن لا نحبّ الجينز»(*)، يفضِّل البنطال والقميص الأسود المخصّر، اللامع، وذو الأطراف المزيّنة باللون الفضي، الياقة مفتوحة، مع خاتم في الإصبع وحجر كريم مزروع على طرف الأذن، شخص سيصرف في سهرة واحدة ما يكسبه أهل الفتاة في ثلاثة أشهر، وبعد ذلك قيادتهن في سيارات من نوع «تويوتا كامري»، «شوفروليه افالانش»، إلى حقل قصب السكر، نواحي «ألبيون»، وفي النهاية وقبل أن تبزغ الشمس، إيصالهن إلى الأماكن التي ينتمين إليها، «بوانت أو سابل»، «كاسيس»، «كوروманديل»، «بامبو»، «غرو كايو». نظرت إليهن بطرف عيني وأنا أعبر، لكنّهنّ لم يرينني. لا يشبهن

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

كريستال. هن صغيرات القامة محشورات في بناطيل ضيقة، ويرتدين من فوق سُتَراً قصيرة بحيث تظهر السرّة، قزمات على الرغم من الكعب ذي السنتيمترات العشرة، الوجه مبرَّج أكثر من اللازم، والعيون مغطّاة بالشحّار أكثر من اللازم، الرموش سميكة، كأنها أقدام فراشة، هيئاتهن تعطي انطباعاً بأنهن شابّات وعجائز في آن، يتأرجحن ويهززن أوراكهنّ بينما تمرّ السيارات ببطء على طول الرصيف، وفجأة تنسلخ واحدة منهن عن المجموعة وتصعد من الباب الخلفي المفتوح لسيارة، وترحل، بينما تقوم البقية بخطوة جانبية لأخذ مكانها. أراهنّ وأنا أعبر الطريق، بعضهن لم يصلن إلى سن الخامسة عشرة، ما زلن طفلات لكن وجوههن تعبّر عن قلقٍ ما، إنهن جدّيّات، لا يضحكن، ولا يبحثن عن الإغواء، ينظرن إلى دائرة السيارات الليلة، لا شيء غير هذا بالنسبة لهن، لا لعب، ولا فرح، فقط رقصة المال، وعنف الرغبات. أظن أن كريستال ليست بينهن، ولا يمكنها أن تختلط بهن، على الرغم من أنها هي الأخرى تعرف عنف المال. كريستال امرأة وفي الوقت نفسه طفلة، تعرف بالغريزة كلّ شيء عن هذه الليالي الحيوانية، وتهرب منها، إنها في مكان آخر، في عالمها الخاص، بين البحر والأرض، تبتكر ماضيها كما ابتكرت اسمها، والمدينة التي ولدت فيها، وسفرها. أنا أسير إلى آخر الطريق، أبتعد عن ضجيج النوادي والبارات، ولكن شيئاً ما يجبرني على العودة إلى هناك. أين هي كريستال؟ أودّ أن أراها، الآن، وهي جالسة على الشاطئ مع أطفالٍ من سنّها، تنظر إلى لهب نار ألواح الخشب وهي تستمع إلى موسيقا الغيتار. ربما كانت هناك في الأسفل، في البناء الذي يقع فيه بيتها، عند قريبتها، وحيدة في الباحة تشرب علبة صودا وتدخن سيجارة، وتنظر إلى السماء الخالية من النجوم. أتابع بحثي، من ضوء إلى ضوء، من نادٍ إلى نادٍ، دون توقف، دون أن أنظر إلى الداخل، إلى أن أُنهَك فلا أستطيع المتابعة. تجعل الحرارة قميصي

يلتصق بظهري، وأشعر بطعم الملوحة في فمي وعلى شفتيّ. ولكنْ لأني أمشي، أشعر بأني أقترب من كريستال، أقترب من حياتها، أضع قدماً في زاوية عالمها لمدة تسمح لي بأن أفهم بلمح البصر المسافة التي تبعدني عنها. وهي في لحظة لم تعد هناك. أنا أيضاً، أتوقف عند دكان لأشرب الصودا، وأنا جالس على مقعد مقابل البحر غير المرئي. أتنشّق الهواء الساخن للمغيب، الهواء الأحمر الآتي من قرص الشمس المختفية. تأخر الوقت على العودة إلى «روش أو مويت». على كل حال، أشعر بأني مربوط بوُثُقٍ هشّة وشفافة كتلك التي كانت تشدّ «غوليفر»، مربوط بهذا المكان، بهذا الخليج الخانق، بهذه النجوم من النيون، بالنظرة الفارغة للعاهرات الصغيرات الحزانى الواقفات على طول الجدران، وحتى بالأفعى المعدنية التي تشكّلها السيارات الزاحفة على الطريق التي لا تنتهي أبداً. حتى بزوغ الفجر الرمادي، لن يكون هناك نوم.

رهان

أنا من ربح رهان الرجال البيض(*)، رهان السيد هانسون، مدير كيستريل. يعود الفضل في ذلك إلى صديقتي فيكي، وربما أيضاً لاسم عائلة الفيلسن. قرأت لي هونورين من الصحيفة، يقولون: «دودو سفير التشرّد»، وبالإنكليزية: «المشرَّد المثير للإعجاب». قرأت العجوز ذلك واحتفظت بالصفحة الأولى، طوتها ووضعتها في دفترها الذي تكتب فيه وصفات الطعام والحسابات. تتخيّل هونورين أنها ستسافر يوماً إلى فرنسا وإنجلترا، ومن ثم إيطاليا لرؤية بابا روما. لم أودّ تصديقها في البدء، قلت إن هذه دعابة، مزاح يهدف إلى إثارة ضحك الناس، كما في الملجأ الكاثوليكي حين يعطونك تاجاً ورقياً احتفالاً بعيد الملوك المجوس الثلاثة دون أن يجعل ذلك منك ملكاً. قام السيد هانسون بهذا الرهان مع رجال بيض آخرين يقيمون في «فلوريال»، حيث راهن قائلاً: «إن سافر مشرَّدٌ إلى فرنسا فسوف يصبح سفير كلّ المشرّدين». قام على إثر ذلك موظفو كيستريل بإعطائي أوراقاً تحوي معلومات، وجعلوني أوقّع على طلب للحصول على تصريح بالمرور. لحسن الحظ كان والدي قد أرسل كلّ مستنداتي إلى هونورين. اصطحبتني فيكي لعند المصوّر الكبير ليو بيتر في

(*) باللغة الكريولية في النص.

بور لويس ليأخذ لي صورة بالألوان، أو بالأحرى بالأبيض والأسود، لأنه لم يعد لي لون منذ أن أصبت بالمرض. طلب مني السيد بيتر ألا أتحرك إطلاقاً وألا أبتسم ولا أرفّ بجفوني، ولهو أمرٌ سهل، فأنا لا أبتسم مطلقاً لأن مرض السيجما الكبيرة كما قلت سابقاً قد التهم شفاهي وجفوني. قالت فيكي إني سأسافر بالطائرة الكبيرة إلى فرنسا، فقام السيد بيتر بالبحث في درج مكتبه وأخرج صورة لوالدي بالأبيض والأسود عندما كان في السادسة من عمره. كان فتىً جميلاً، يلبس طقماً مع ربطة عنق وحذاء أسود، يستند على طاولة وينضح الشرّ من نظرته. قال السيد بيتر إن جدّه أخذ له هذه الصورة، فقد كان هو أيضاً مصوّراً يعمل هنا في شارع «كوميدي»، رقم 2. أراني الاسم المكتوب على ظهر الصورة: أنطوان فيلسن، والتاريخ: 1909، وتوقيع المصوّر، جيو بيتر. لكنني لا أستطيع أن أؤكد أنها صورته حقاً فأنا لا أتذكر هذه الصورة. احتفظ السيد هانسون بجواز سفري لأنه سيسافر في الطائرة نفسها لكن في الدرجة الأولى، لقد حجز غرفة في فندق باريسي. أرغب حقاً في أن ترافقني فيكي، لكنها مجبرة على البقاء هنا في الجزيرة مع زوجها وطفلها. في أحد الأيام كان لي موعد معها في «ماري رين دولا بي». انتظرتني في الساحة وتبادلنا الحديث جالسين على مقعد في ظل الأشجار. قالت لي: «ستتعرف على أشياء جديدة كثيرة يا دودو، وستلتقي بأناس كثر». أضافت شمس ما بعد الظهيرة لوناً ذهبياً على شعرها الأجعد، وأظهرت النمش الذي يغطي بشرتها. انتابتني الرغبة بأن ألمس بشرتها كي أشعر بزغب الفاكهة على وجنتيها، رغبت في تقبيلها كي أشتمّ رائحتها التي كرائحة الفاكهة. لم أتابع الحديث في ذلك السياق، إذ إنه لا يمكنني قول الحقيقة أني لا أكترث لمقابلة أشخاص جدد، وأنها هي من أرغب أن أقابل، لكنها لا تستطيع السفر معي إلى باريس. أضافت قائلة: «لا تقلق يا دودو، كل شيء سيسير على ما يرام، الكثير من الأصدقاء ينتظرونك في

باريس!». للسفر في الطائرة، أحضرت فيكي لي حقيبة ساعي بريد زرقاء مكتوب عليها «كيستريل» بأحرف بيضاء مع رسم لطائر أبيض، قالت إنها حقيبتها وإنها تستعملها للسفر إلى موريشيوس حين تعمل كممرضة متدربة في المشفى، وأرتني هداياها التي وضعتها في الحقيبة: فرشاة أسنان مغلّفة، ومشط يُطوى، وأنبوب كريم للبشرة ومرآة لا أستطيع الاحتفاظ بها، فهي تجلب الأباليس. وضعت فيكي في الحقيبة أيضاً كنزة من الصوف تعود لزوجها، فالجوّ بارد في باريس، وجوارب طويلة سوداء، وحذاء رياضياً جديداً اشترته من البازار. كما أهدتني قلم حبرٍ ناشف، ودفتراً صغيراً كُتب في أعلى أول صفحةٍ فيه: «إلى دودو من صديقته فيكي أوجيلفي»(*). أثار ذلك فيّ الرغبة بالبكاء لأنها كانت المرة الأولى التي أقرأ فيها اسمها كاملاً، ولكني أدرك أنها تحمل نسبة زوجها. تابعت فيكي قائلة: «هذا الدفتر كي تكتب لي عن رحلتك. ستكتب لي، أليس كذلك؟!». أنا مسرور بهذه الهدايا عدا المرآة التي أعدتُها لها دون أن تطرح عليّ أي سؤال. أحب الكتابة في دفتر لأني أكتب عادة على قطع من صحف أو على معاملات البريد بقلم رصاص أسود، وكل شيء يذهب أدراج الرياح، لأني لا أملك نقوداً لأشتري بها دفاتر. بقينا جالسين على مقعد أمام «ماري رين دو لا بي» تحت شمس غاربة وفي مجرى هبوب الهواء الساخن. لا أرغب لهذه اللحظة أن تنتهي. أنا مسرور جداً لأني مسافر، فحتى وحش فقير يمكنه الذهاب إلى آخر العالم في طيارة كبيرة، وبهذه التحضيرات تبدأ الرحلة. بقيت جالساً بالقرب من فيكي كي أستطيع شمّ رائحة بشرتها وشعرها الأشقر، وأن أنظر إلى عينيها الزرقاوين الواسعتين.

تخيّلت أني مسافر إلى هناك، إلى فرنسا في الطائرة الكبيرة، وارتعدت

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

خوفاً، كما لو كان ذلك حفرة أمامي سأقع فيها وأنا أمشي في حقول القصب ليلاً. منذ أن ربحت رهان السيد هانسون، أذهب كلّ يوم مشياً أو بالباص إلى الأماكن التي لن يعود بإمكاني رؤيتها، أظن أن هذا ما يجب أن يفعله المرء قبل أن يموت. أزحت الستار في بيت هونورين عن المرآة الكبيرة الصدئة، ورحت أحملق في قدري الذي بدا كنقطة بيضاء تغور بعيداً، بعيداً في طريقٍ لا نهاية له، تحيط بها من الجانبين أيادي الشياطين السوداء. صحتُ لهونورين: «غَطّي، غطّي هذه المرآة! أنا أنظر إليها وهي تنظر إليّ»(*). تظن أني أمزح ويثير ذلك ضحكها. تركت على إثرها منزلها، فلم أعد أستطيع أن أنام على الأرض أمام باب المنزل. توجّهت إلى ألما، وكانت تلك المرّة الأخيرة. ذهبت إلى النهر والبحيرة، ذهبت إلى الغابة كي أرى بقايا منزلنا الذي التهمته الشجيرات. من خلف سياج قصب البامبو، بحثت عن المكان الذي كانت تقوم فيه دار أرتيميسيا، حيث كانت تقصّ عليّ الحكايات والحزازير، والتي هدمها بلدوزر عائلة أرماندو، فتوفّيت وانتقلت إلى الفردوس. عبرت الحقول حتى وصلت إلى «كريف كور» حيثِ توجد شجرة مانجا يايا العجوز، أشعلت شمعة ضمن الجذور، وأخذت أدندن في ذهني موسيقا شوبان وشوبيرت من أجلها، غنّيت «أولد لانغ سين» لذكرى جدّتي بيث ووالدَيّ. حين أغني تأتي سيمنور وتراقب من خلال الأغصان. هي ليست جميلة لكنّي أحبّ عينيها اللواتي تشبهان عروة أزرار قميص. لم تعد تخاف مني، فقد أصبحت تعرفني، لكنها لا تقترب حين أومئ لها بيدي، بل تبقى تراقب من خلال أوراق الشجر كقطّة بريّة.

وضعت على قبر يايا البسكويت وكعكة البهار والبابايا المغلفة بصحيفة وبضع سجائر، لأنها كانت تحبّ التدخين. وضعت كل شيء بين جذور

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

شجرة المانجا وتراجعت بضع خطوات، فأتت سيمنور لأخذ العطايا إلا السجائر. اقتربت بهدوء وعادت إلى مخبئها لتأكل الكعكة والبابايا. أنا مسرور، أتخيّل أن يايا ما زالت تعيش في جسد المنغولية، أتخيّل أنه في هذه الليلة تحديداً حين يحلّ الظلام، وبعد أن تطفِئ الريح الشمعة، ستدخّن يايا السجائر في بيتها الشجرة. أشعر بسلامها يغمرني. حين كنت طفلاً، كانت تحملني بين ذراعيها وتغنّي لي تهويدة: «لا غراند تير رو رو رورو، رو...». في «كريف كور»، نزلت الشارع المؤدي إلى «باسان لولو» من جهة نهر «كلوباس». حين وصلت إلى ألما حلَّ الظلام وأصبح الجوّ بارداً. أتذكّر الليلة الشتائية التي توفّي فيها والدي، كان المطر يهطل على خشب التابوت مصدراً صوت طبل، والأشخاص المرتدين الأسود يقومون بإنزاله في الحفرة إلى جانب والدتي، ثم يغلقون القبر بالأحجار. لا يوجد أحد في «سان جان»، البوابة مغلقة لكني أعرف موضعاً أستطيع منه العبور من خلال السور المتهدم. وصلت إلى قبر والدي. لم يتدخل السيد زان، ربما لأنه يخاف مني أو لأنه كسول لا يتحرك إن لم يُدفع له مسبقاً. وبواسطة القلم الأسود الذي أعطتني إياه فيكي، أخذت أخطّ الأسماء مرّةً أخرى، فبعد رحيلي لن يقوم أحد بكتابتها. المطر والهواء سيَمحُوان الأسماء والتواريخ، ولن يعود لوالديّ وجود على الأرض. استلقيت بالقرب من القبر ووضعت سترتي على وجهي حتى لا يراني أحد، وحتى لا يسيل ماء المطر في فمي. أصبح كلّ شيء مختلفاً الآن، كلّ شيء تغيَّر. هذا المساء سوف أسافر إلى باريس.

قصة ماري مادلين ماهيه

لم أعِش مع والدي. ولدت في شهر كانون الأول من عام 1738 من والدتي المسمّاة جولي، وهي غسّالة، عبدة عند الحكومة، ومن والدي «فرانسوا ماهيه دو لا بوردونيه»، حاكم «إيل دو فرنس إيه دو بوربون». في السنة التي ولدت فيها في «إيل دو فرانس»(*)، توفّيت زوجة أبي الشرعية، «ماري آن لوبرون دو لا فرانكيري»، في 9 أيار 1738 لإصابتها بالجدري. لم يعترف والدي بي رغم حقّي في حمل اسمه، وذلك بقرار من بنت عمّه المباشرة، العمّة «بيرت ماهيه تاباري»، التي استطاعت إقناعه بعدم الاعتراف بي.

ولدت في منزل أبي، لكن أمي عادت بعد ذلك مع طفلتها إلى ملحقات سجن «بور لويس» القريبة من القلعة، حيث كانت تقيم، وقيل لي إني قُدِّمت لوالدي بعد أيام من ولادتي، ليست والدتي من حملني إليه، وإنما المرأة التي حملتني فوق جرن المعمودية الذي تموّجت فيه. عُمِّدت باسم أمي، جولي، واسم إشبينتي، ماري مادلين، التي لم تكن عبدة، وإنما مجرد خادمة في مطابخ أبي. حلمت أن الرجل الكبير انحنى فوقي، أنا

(*) اسم جزيرة موريشيوس لمّا كانت ما تزال تحت السيادة الفرنسية، قبل أن تنتقل إلى السيادة البريطانية وتُسمّى باسمها الحالي.

قطعة اللحم الصغيرة الداكنة الملفوفة في قماطي، وسأل عن اسمي. عندما سمعه، هزّ رأسه فقط، لأن هذا كان بالنسبة له خبراً ثانوياً.

لم يتسنَّ لي التعرّف على أمي، لأنني عندما بلغت العام الأول تقريباً من عمري، قرّر والدي العودة إلى فرنسا على أمل أن يتزوج من جديد، وأخذني معه. لا أحتفظ بذكريات عن هذه الرحلة، حتى لو أنهم حكوا لي أنها دامت عدة أشهر، وأنه، خلال عاصفة هبّت في البحر قبالة «رأس إفريقيا»، أوشكت على الموت غرقاً حين قذفتني موجة من بين ذراعَيْ مربّيتي، لولا أن بحّاراً التقطني في اللحظة الأخيرة. ذكرت هذه الحادثة، لأني عندما أعاود التفكير فيها، الشيء الذي يحصل مرات عدة في حياتي البائسة، ألعنُ هذا البحّار الذي منعني من معرفة عالمٍ أفضل.

أول ذكرى احتفظ بها من طفولتي كانت في بيت جدّتي ماهيه، في «سان مالو». حتى لو تمتّع والدي برفاهية كبيرة خلال حياته في «إيل دو فرانس» حيث عاش مثل ملك، وفي فرنسا في قصر «بيبل في بواسي سان ليجيه»، إلا أن والدته رفضت دائماً أن تترك بيتها المتواضع في حيّ «رامبار» في «سان مالو» حيث عاشت دائماً، وحيث ربَّت أولادها الذين كان أكبرهم والدي. أستطيع القول إني كنت سعيدة في هذا البيت بقدر ما يمكن للمرء أن يكون كذلك في سنٍّ يجهل فيه خِسّة المجتمع. السيدة «ماهيه»، اسمها الأول «لوديفين سيرفان»، لم تُظهر لي الاحتقار والأفكار المسبقة التي يُظهرها أغلب الناس تجاه ذوي البشرة السمراء، أو الأطفال غير الشرعيين. كنت أقضي وقتي بين مساكن الخدم برفقة مربّيتي، وفي الطابق الأرضي حيث تبقى السيدة ماهيه خلال النهار، جالسة على كنبة مليئة بالوسادات، واضعةً قدميها على مدفأة القدمين التي تعمل على الفحم. إن كنت قد اكتسبت تربيةً ما فإن الفضل يعود لها في ذلك، فلقد وجدتني حيوية ومستعدّة أن أتعلّم: الآداب بقدر الخياطة. في ما بعد، نُقل

إليّ أنها قالت هذه الصفة عني، وهي أني لست أقلّ قيمةً من الآخرين، وأن بإمكاني أن أنافس أولاد أبي الحاكم الآخرين.

سنوات السعادة تلك انتهت سريعاً، لأن صحة السيدة ماهيه تدهورت، وارتأى كبار العائلة أن يعهدوا بي لابنتها «دام دو تو لي سان» الراهبة في دير «ليزورسولين» في «دينان». في سنّ التاسعة انقلبَت حياتي رأساً على عقب. كنت قد كبرت بحرّيّة في دفء بيت، وسط نساء يُدلِّلنني ويتسلَّين برفقتي، يُلبِسنني كأنني لعبة، ويعطينني حلويات كان والدي يستقدمها من أملاكه في الجزر. لم يكن ينقصني شيء، وإذا بي فجأة أجد نفسي في عتمة برد دير، وسط فتياتٍ يتيمات، تحت سيطرة راهبات يرتدين الأسود الذي كان في البداية يُرعبني تماماً. لم تكن «دام دو تو لي سان» تملك حنان جدّتي وتسامحها. كانت طويلة وجافة، بشرتها شمعية، وكانت تمارس سلطة لا حدَّ لها على المجموعة. لم تُظهِر أيَّ شعور تجاهي، حتى ولو كنت ابنة أخيها، لا عاطفة ولا عداء. بالنسبة لها كنت يتيمة مثل الأخريات. كنا نلبس ثوباً من الصوف الرمادي، ونضع على رأسنا طاقية، وننتعل أحذية خشبية. لم يعد هناك مجالٌ لي لأقرأ أو أتعلّم، فالنهارات في الدير مخصّصة للصلاة والأعمال المنزلية. وُضعت في ورشة الخياطة، ربما لأن أمي العبدة من جزيرة «إيل دو فرانس» كانت غسّالة. هنا في القاعة المشتركة المدفَّأة بموقد، كانت الفتيات يقضين وقتهن بالخياطة، وقصّ القماش، والرتق لصالح الدير الذي كان يمدّ أهم دكاكين المدينة بالمواد. كان الهدف هو تحضير اليتيمات (اللواتي كنت منهن رغم أصولي) لمهنةٍ تسمح لهن أن يتدبّرن أمورهن. ولكن الواقع كان مختلفاً، لأن العتمة والبرد في قاعة الخياطة كانا بلا شكّ السببَ في مرض العيون الذي أعاني منه اليوم، والذي دفعني إلى التسوّل. لم أكوّن إلا القليل من الصداقات ممّن يشاركنني حظّي العاثر: فنظام الدير كان يمنع أي علاقة،

والثرثرة العادية بين البنات في مثل هذا السن كانت تعاقَب بحرمانات، وأحياناً بضرب الأفخاذ بالعصا. صداقتي الوحيدة نسجتها مع صبية تجهل الفرنسية، آتية من مقاطعة بريتانيا، علّمتُها بدائيّات لغتنا. اسمها سوزان واسمها يلفظ «سوازيغ» في لهجتها. كنا جارات في المهجع، السرير بجانب السرير، وكلمة سرير مبالَغ بها لأننا كنا ننام على فراش مهترئ على الأرض. مرّت السنوات هكذا في هذا السجن، سنوات عادة ما يتفتّح فيها الأطفال على الحياة ويكتشفون فيها المشاعر، بينما تعيشها اليتيمات في الدير حبيسات البؤس والخوف، يعتصرن من الجوع، ويجمِّدهن البرد. وعندما بلغت الرابعة عشرة أو ما يقارب ذلك -فأنا ما زلت أجهل التاريخ الدقيق لمولدي، وليس لديّ أي وثيقة مكتوبة، لا في «إيل دو فرانس» ولا في «سان مالو»- توفّي أبي. حصلت على المعلومة في شهر تشرين الثاني من عام 1753 من «دام دو تو لي سان» التي لم أجرؤ يوماً على أن أناديها عمّتي، بينما هي كانت كذلك في الحقيقة. تدهور وضع عائلة أبي الجديدة، لأن السيدة «شارلوت اليزابيت كومبولت» التي تزوجها أبي بعد عام من مولدي، وجدت نفسها فجأة مفلسةً، بسبب الوصيّ على أولادها الذي سرق أموالها وهرب إلى الخارج. وبالنتيجة فإن المساهمة المالية التي كان والدي يدفعها لمعيشتي في الدير انقطعت، ولهذا السبب كان لا بدّ من أن أجمع أغراضي وأن أذهب إلى باريس، لأكون تحت رعاية السيدة «بيرت تاباري»، ابنة عمّة المرحوم والدي، التي استقبلتني فترة عندها قبل أن تجد لي مكاناً في مؤسسة للفقيرات، بنات «سان توما» في منطقة «سان جرمان أن ليي». كان رحيلي عن «دينان» المرة الوحيدة في حياتي التي بكى فيها أحدهم عليّ: افترقت عن سوازيغ، شريكتي في البؤس، وكنا نعلم أننا لن نلتقيَ بعد الآن. وهكذا انتقلت إلى البيت الآخر الذي كان فاتحة تدهور أموري، ذلك لأن بيت بنات «سان توما» كان يستقبل أسوأ وأبأس من وُجد

من النساء. كانت تجتمع في المهجع نفسه نساء مريضات، مجنونات وحتى بنات الهوى والقاتلات. من خلال السيدة «تاباري» عرفت بإفلاس عائلة والدي، وبيع كل ممتلكاته، ومنها قصر «بواسي سان ليجيه»، وبأن رغبته التي أبداها تجاهي، في أن أحصل على نفقة مقدارها ثمانمئة جنيه، لن تُحترَم. وهكذا وجدت نفسي، وأنا في السن الذي تأمل فيه أي فتاة بأن تتزوج وتكوِّن عائلة، سجينة في مأوى البنات الضائعات، أنا التي لم أرتكب أي جريمة سوى أني ولدت غير شرعية لأبٍ مشهور. على الرغم من بؤسي هذا، اعتقدت بأني بلا شكّ أوفر حظاً من والدتي التي بقيت مستعبدة في جزيرتها، والتي سُلختُ عنها دون أي تعويض. على الأقل، أنا أحمل اسم «ماهيه» المحترم، بينما هي لم تحصل يوماً على اسم. في تلك الفترة أيضاً، عرفت بوجود أخٍ لي غير شقيق في فرنسا، يدعى «جان جاك سانتير»، وهو مثلي ابن غير شرعي للسيد «بوردونيه»، ولكني لم أعرف أين هو، ولا مَن كانت أمّه. في ليلة حلمت أني ذاهبة إلى الجزيرة التي ولدت فيها، وأن أمي استقبلتني هي وكلّ أولادها. تبادلنا، ونحن نبكي، التقبيل، والوعدَ بألّا نفترق بعد الآن مهما حصل. ولكن هذا الحلم الوحيد لم يتحقّق. الجزيرة بعيدة جداً، إضافة إلى أني عندما فكرت بالأمر وجدت أن أمي لا بدّ قد توفّيت الآن بعد حياة من العمل والشقاء والمعاملة السيئة، وأن أولادها لا بدّ قد بيعوا عدّة مرات، وعلى كلّ حال، أنا لا أعرف أسماءهم. لفترةٍ من الزمن، بثَّ فيّ هذا الحلم شعوراً بالحزن لم أكن أستطيع تجاوزه. توقفت عن الأكل وانهارت صحتي، وجرّني ببطء نحو الموت. وحدهما: إيماني بالله، وذكرى الطّيبة التي أظهرتها جدّتي ماهيه تجاهي، هما ما ساعدني في البقاء على قيد الحياة.

ولهذا أردت أن أهرب من قدري. كانت السنوات التي قضيتها في «سان مالو» بالقرب من جدتي، ثم في دير «ليزورسولين»، قد نحتت

طباعي. حاولت أن أقاوم القدَر السيّئ. أغلب الفتيات في «سان توما» كنّ أميّات وجاهلات. استطعت الحصول على ورق وريشة وكتبت أول رسالة من سلسلة طويلة من الرسائل وجّهتها في البداية إلى السيدة «أليزابيت كومبولت»، الزوجة الثانية لأبي، مغفلةً ذكر وجه القرابة معها، أرجوها فيها أن تحترم الالتزام الذي أخذه والدي على عاتقه، وأن تدفع المال الضروري لاستمراري في الحياة. وجهت الرسائل إلى عنوان شارع «أنفير» في باريس حيث تقطن تلك السيدة مع أولادها. هل استلمَتها؟ أجهل ذلك، ولكنني لم أستلم أيّ ردٍّ على طلباتي. أصبحت الحياة في بيت بنات «سان توما» لا تطاق، ذلك أن السجينات هناك، رغم بؤسهن، لم يتخلّين عن شرّهن الغريزي، وعندما أدركن اختلافي في التربية عنهن، لاحقنني وهن يطلقن عليّ لقب السوداء، الزنجية، أو أحياناً عاهرة الجزر. ولاحقنني بالضرب أو بالأذى، يسرقن ملابسي والقليل من الأكل المتوفر لديّ. حاولت أن أشتكي، موجّهةً رسائل إلى السيدة «تاباري»، ولكن الأخيرة تركتني لمصيري، وكأن موت أبي وإفلاس عائلته محَوَاني من الوجود للأبد. في أوقات فقدان الأمل هذه كنت أقيس الهوّة التي تفصل ابنةً بشرتها سوداء عن الرجل الذي أنجبها وأعطاها اسمه، الرجل الذي كان في زمنه الأكثر احتراماً والأقوى بين حكّام المملكة.

العلّة التي أُصبت بها في ورشة «ليزورسولين» تفاقمت في «سان جيرمان إن ليه»، لدرجة أني بعد مدة قصيرة لم أعد أستطع العمل، لأني صرت عمياء تقريباً. وجدت نفسي في حكم النساء الضائعات، محكوم عليّ أن أتوه في الممرّات لكي أشحذ لقمتي، ولم أكن لأبقى على قيد الحياة لو لم تكن بنيتي قوية ولو لم أكن شابّة. لم أستردّ بصري تماماً، فقد فقدت البصر في العين اليُمنى. عندئذٍ قررت، بناء على نصيحة راهبة من البيت رغبت في أن تساعدني، ومن دون شكّ أيضاً، في أن تساعد البيت في

التخلّص مني، قرّرت أن أكتب رسالة إلى وزير البحرية، السيد «سارتين»، لأخبره عن البؤس الذي أعيش، وأطلب مساعدة الحكومة:

إلى السيد سارتين، من قبل ماري مادلين ماهييه، ابنة غير شرعية لبرتران فرانسو دو لابوردونيه، الحاكم السابق لإيل دو فرانس وبوربون.

عند ولادتي تعهّد والدي صراحة بأن يدفع لي مبلغ 800 جنيه سنوياً لأقضي بها حاجاتي، كذلك بمنحة تبلغ 12000 جنيه مخصّصة لتعليمي. هذه المبالغ لم تُصرَف قطّ، رغم مطالباتي المتكرّرة. ومنذ موت والدي، لم يقم أصحاب الشأن بالردّ على طلباتي، رغم أنهم ورثوا أموالاً مهمّة وعمارات. وأنا، كابنةٍ غير شرعية، يحقّ لي بعض المساعدة نظراً للحالة الهشّة التي أنا عليها، خاصة أني أُصبت بمرضٍ في العيون يمنعني من العمل.

الموقّعة أدناه، أطلب بتواضع المساعدة باسمي وباسم والدي، السيد «ماهييه دو لابودونيه»، الذي كان بحّاراً ماهراً، انتصر في الهند وحكم «الإيل دو فرانس» حيث ولدت.

انتظرت الجواب، ووصلني الردّ، ليس من قبل الوزير وإنما من قبل السيد «لونوار» نائبه. كان الردّ على شكل بطاقة للفقراء تسمح لي بالدخول على حساب الدولة إلى مستشفى «لاساليتريير» في باريس. الرسالة التي وجّهها إلى إدارة بيت «فتيات سان توما» كانت قطعية، فقد كانت توضح أن قضيتي هي قضيّة خاصة، وحده محامٍ يمكن أن يقدّم الشكوى وأن يرفعها أمام المحاكم، إن كان يمكن قبول هذه الشكوى. أمِنْ محامٍ كان ليهتمّ بزنجية، حتى لو كانت الابنة غير الشرعية لرجل مهمّ؟ هذا الردّ ملأني باليأس لدرجة أني فكرت أن أرمي نفسي في نهر «السين»، الذي

يجري قريباً من بيت «فتيات سان توما»، ووحده الإيمان الديني الذي أعطتني اياه جدتي سيرفان ماهييه، وذكرى سوازيغ المسكينة منَعاني. أدّى الضرر النفسي الناجم عن اليأس إلى دخولي إلى مشفى «أوتيل ديو» حيث بقيت لأشهر بين الحياة والموت. بعد ذلك ومثلما تحدَّد سابقاً، انتقلت إلى مشفى «لاسالبيتريير»، حيث ما زلت حتى الآن، بين العاهرات، والمجرمات والمجنونات. هنا ينتهي الفصل الأخير من حياتي.

كل يوم أجلس في الباحة، حتى في البرد والمطر، أجلس على حجر أنظر إلى دائرة الأشباح التي تحيط بي. هنا لا مجال إلا للشرّ الإنساني. لو أردت وصف تفاصيل ما يحدث هنا من أنين وضرب بالكرباج وحرمان، فسيكون من الصعب تصديقي بالنسبة لمن هم من خارج المكان. إن قسم الأطفال المشرّدين هو مكان الجرائم الأكبر، إذ يقال إن عدة أطفال يختفون في كل شهر، دون أن يُعرف ماذا حدث لهم، وتجري إشاعات حول جرائم غير طبيعية يتعرضون لها، كأن يسلَّموا من قبل حراس فاسدين إلى أغنياء ونبلاء فاسدين، أو يشكِّلوا مادة لتجارب الجرّاحين، أو يصبحوا حتى قرابين على مذبح الشيطان. أنظر إلى الأشباح الإنسانية التي تدور في باحة المستشفى، وأعود إلى الذكريات الحنونة التي عرفتها في بيت جدتي ماهيه في «سان مالو»، عندما كانت الحياة مشرقةً أمامي، وأجهل ما يخبّئه لي المستقبل. أظن أني ولدت لهذا السبب، لهذا فقط، لأن أكون شاهدة على آلام العالم، لأن الأشخاص الذين عاشوا حياة استثنائية فقط، أولئك الذين حالفهم حظٌّ وفير، يستطيعون أن يعيشوا اليأس إلى أبعد حدّ. أُصلّي لله والعذراء وكلّ القدّيسين لكي يعطوني القوة لأصل إلى النهاية، آمين.

باريس

إليكم كيف جرت رحلتي، إن كان الأمر يهمّكم: أقلعت الطائرة مساءً تحت المطر، وطارت طوال الليل حتى هبطت صباحاً في إفريقيا، قبل أن تعاود الانطلاق إلى باريس، والسماء ما زالت ممطرة. لم تمطر السماء خلال الرحلة، اكتشفت ذلك حين ذهب المسافر الجالس إلى جانبي إلى الحمّام ليبول، فسنحت لي الفرصة أن أنظر من خلال النافذة وأرى الكثير من النجوم. أكثر ما أحببت في هذه الرحلة هو رؤية النجوم من النافذة، فالطائرة تطير عالياً لدرجة أن النجوم لم تعد تعلوني، بل أصبحت إلى الأسفل مني، بالقرب من الأرض، وهذا لم يُثِر خوفي. لا يأبه ركاب الطائرة للنجوم، فهم ينامون جالسين في مقاعدهم، رؤوسهم محنيّة ويشخرون. لم أنَم، بل رحت أفكر وأغني في ذهني بمرافقة ألحان البيانو، خصوصاً «الأليجرو» و«الآداجيو» التي ألّفها «شوبير»، ثم ختمت بأغنية «أولد لانغ سين» القديمة، لأنها المقطوعة الوحيدة التي أستطيع عزفها بأصابعي الملتوية. الجو كان بارداً حين وصلت إلى باريس. الكثير من الناس كانوا ينتظرونني، لكن ليس فيكي التي ودّعتني في «ماري رين دولا بي» وقبّلتني للمرة الأولى، فشممت رائحة البنفسج الفائحة من عنقها وشعرها. قالت لي: «لا تنسَ أن تراسلني من فرنسا». أجبتها: «لا تقلقي، سيدة فيكي، لن

أنساك أبداً!». ضحكت قليلاً، فقد ظنّت أن الأمر كله مزحة، أسافر لبضعة أيام وأعود إلى موريشيوس. لم أقل لها إني مسافر دون عودة. سأرحل عن هذه الديار التي لم يعد فيها أحد يعرفني، بعد أن رحلت يايا وأرتيميسيا، ولا أحد غيري يعرف مكان قبر يايا تحت شجرة المانجا في «كريف كور»، وقبر أبي وأمي لاروس في مقبرة «سان جان»، اللذين لن أستطيع بعد الآن أن أخطَّ اسميهما بالطبشور بعد أن يمحوهما المطر. ضممت فيكي لأشعر بجسدها الغضّ كحمامة حقول قصب السكر، ولأشمّ رائحة الفاكهة التي تنبعث منها. أخذت الهدايا التي أعطتني إياها للرحلة: حلوى المايي والكعكة المبهرة وعجينة التمر والبابايا المجففة، الكل موضوع في سلّة مصنوعة من أوراق كاذي نافع، وضعتها بأسفل المقعد بالقرب من حقيبة كيستريل، كي لا تغيب عن نظري. لم أتحدث مع أحد، لا مع الأب شوسون ولا مع مونيك، على الرغم من أنهما ودّعاني وأخذا صوراً بالقرب من البوابة. لم أبتسم بل قمت بالتلويح بيدي، وانسحبت دون أن أنظر إلى الوراء. لم ينتبه لي أحدٌ في الطائرة، فالجوّ معتم. نظرت إلى مسند المقعد أمامي، الأضواء الزرقاء في الممرّ، المسافرين الجالسين، العائلات والأطفال. لكني لم أشاهد الفيلم المعروض، فالمرض يجعلني أرى شياطين في الشاشات. رغبت في إخفاء وجهي بسترتي، لكنّي فضّلت خفض رأسي والنظر إلى المقعد. لمعت الشاشة للحظة بعد ذلك وانطفأت، وأخلد الجميع إلى النوم.

السفر يعني أن تُبقي عيونك مفتوحة في الوقت الذي ينام فيه الآخرون. خبرت ذلك جيداً، فهذه هي حياتي. مساءً، ليلاً، وحتى صباحاً، لا أتنقّل سوى للذهاب إلى الحمّام، لا أنظر في المرآة، بل أبقى أتخيّل وعيناي تنظران نحو الأرض، أتخيّل كل ما يحدث دون توقف، دون نوم، دون

نسيان. ما الفائدة في أن أحلم؟ يتكلم الآخرون عن أحلامهم قائلين: هذا رائع لقد حلمت أني أطير، أسبح مع الأسماك، أقبّل امرأة. أنصت إليهم لكن بماذا يفيدني ذلك؟ أنا أرى كل الألوان وأشعر بكل الرعشات واللمسات، صوت الماء وصوت الهواء، لكن ليس في الأحلام، فقد فتح المرض لي عينَيّ إلى الأبد. حين سافرت، حضرت فيكي والآخرون إلى باب المطار. الجميع حضروا ليرى دودو البطل. أردت إبعادهم كي أمرَّ لكنهم تعلّقوا بذراعي، راغبين بأخذ صورة معي. بقيَت فيكي في الخلف، شاحبة، تعتمر قبّعة لتحمي شعرها من المطر، لا تبتسم ولا تلوّح بيدها. نظرت إليها، أدرت رأسي، عدت أنظر وإذ بها قد رحلت. لم أُفصح عن ذلك لأحد، وما من أحد سألني لكني أعرف أني لن أعود، كما هي الموسيقا وأغنية «أولد لانغ سين» التي إن غنّيتها، فهذا يعني الوداع.

في باريس الشوارع باردة والسماء ممطرة، لكنها ليست الشوارع نفسها ولا المطر نفسه. أسير ليلاً لكنه ليس الليل نفسه. الليل هنا ليس حالكاً، نسماته ليست حارّة، ولا تحوم فيه فراشات مجنونة؛ الليل هنا ورديّ اللون لا حشرات فيه، أضواء المدينة تشعّ كحلقاتٍ متموّجة، وتعكس الساحات ذلك الضياء الأصفر. تسير المركبات حول المدينة مصدرةً ضوضاء بلل، ليس لها هدفٌ معيّن فلا شيء يوقفها. في الجزيرة، تعبر السيارات «لا لويز» باتجاه البحر أو الطريق «رويال» أمام الكنيسة؛ الأمر مختلفٌ هنا، السيارات لا تنتظر، ولا تصل، ولا أحد يقودها. سرت في الليل وانتابتني الرعشة على الرغم من الكنزة البنفسجية التي أعطتني إيّاها فيكي والمعطف المطري الذي أعطاني إيّاه الأب سوشون. ماء المطر يسيل على وجهي ويتسرّب إلى فمي، تذوّقت بلساني الماء البارد والصافي، الماء عديم الرائحة. أعرف أني سافرت بعيداً لأني لا أستطيع تذوّق الماء ولا أحسُّ برائحته، الأمر الذي

يشكِّل غصّةً لي، لأني أتخيّل رائحة المياه في الجزيرة. أسير في كلّ هذه الشوارع بعيداً أكثر، حتى وصلت إلى النهر. هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها، ماؤه ليس ساكناً كماء نهر «كودان»، ولا مائجاً كمياه البحر، بل مياه دائمة الحركة، تنزلق وتسيل ولا أحد يعرف إلى أين. نزلت الدرج الحجريّ المؤدّي إلى النهر، دمعت عيناي من الهواء البارد وسالت دموعي على خدّي حتى رأس لساني. يداي باردتان أيضاً، وضعتهما في جيوب المعطف المطري. رصيف النهر عبارة عن طريق طويل مرصوف بالحجارة، يحاذيه جدارٌ حجريّ أسود حتى مع الضوء الذي تبثّه عواميد الإنارة. يُصدر النهر صوتاً لم أعرفه من قبل، ضجّة خفيفة. شاهدت الدوّامات تدور ساحبةً أوراق الأشجار الميتة، الأغصان الساقطة والنفايات الصفراء اللون. كما أني رأيت حيواناً نافقاً، هو كلبٌ غارق، بطنه منتفخة وأرجله متيبّسة، جعله التيار يدور حول نفسه إلى أن اختفى. هذه المرة الأولى التي أرى فيها هذا النهر، لكنني شعرت بأني عرفته من قبل، هي المياه نفسها التي تسيل على طول شطآن جزيرتي. ركعت على درجات حافة الرصيف وأخذت بعضاً من الماء في راحة يداي لأشمّه، ليس له الرائحة نفسها هنا، رائحته تشبه رائحة الرماد، رائحة البول، رائحة الموت، لكن ليس رائحة مقبرة «سان جان». تشبه ربما رائحة المقبرة الغربية أكثر، فهي رائحة ثقيلة، رائحة بول الناس، فضلات المدينة والبلد. قرّبت يدي من وجهي وتخيّلت عائلة الفيلسن التي أصولها من هنا، قبل والدي وقبل أكسيل، قبل كل الرحلات. أستطيع أن ألتقيهم في ماء هذا النهر، أستطيع شمَّ رائحتهم. هنالك العديد من المقابر في العالم وأعرف أني لا أستطيع أن أجد منزلهم، ولا قراءة أسمائهم، لكن النهر يحوي قطعة صغيرة من كلّ واحدٍ فيهم، فمياه الأمطار سالت على قبورهم قبل أن ترفد هذا النهر الكبير الذي يجري مُحدثاً دوّامات. أستطيع أن أحمل في راحتي بضعاً من قطراتهم، هنا، على الرصيف النهري. ينام

المشرّدون على مقربة من هنا في أكياس من البلاستيك الأسود. راح الكلب الشرّير ينبح بالقرب منهم، فنهض أحد المشرّدين وصاح: «اذهب من هنا أو سأطلق الكلب عليك!». أردت أن أردّ عليه بالقول: «أنا أيضاً أتيت من بعيد، أنا سفير!»، لكن بماذا يفيد ذلك؟ التفت إذاً وتوجّهت صعوداً نحو الحديقة الصغيرة أمام الكنيسة. ليل باريس مرتبط بنهار، الكنيسة بالكنيسة، الشوارع بالشوارع، النهر يمر من هنا ليصب هنالك على الشاطئ، إنها المياه ذاتها، الهواء ذاته والأرض ذاتها.

أبحث عن رائحة هذه المدينة، أرغب بمعرفتها، حارةً حارة. ذلك هو السبب الذي دفعني للخروج من شقتي. رآني الحارس الليلي ولم يعترض. منعني الأب أنطوان الذي يهتمّ بشؤوني من الخروج ليلاً خوفاً من أضيع في الطرقات أو أن ألتقي بأناس سيّئين. لم أعد طفلاً، أنا بالغ، ولديّ الكثير من القوة في ذراعي ولا أخاف أحداً، إلا من الذين يختبئون في مرآة الغرفة. أعلّق معطفي المطري على الخزانة، لكنه يبدأ بالتحرك وحده حين أستلقي على السرير، فأخرج وأمشي. أحبُّ كثيراً هذه المدينة في الليل، فالشوارع مهجورة وتشعّ الإنارة من أعالي المنازل. أنتظر أن تستيقظ المدينة وأترقّب ضوضاءها. يقول الأب أنطوان إنه بإمكاني لقاء أصدقائي الجدد، مشرّدي باريس، وأن أتحدّث إليهم، وسيستطيعون التحدّث إليّ وضمّي إلى صدورهم، فنحن جميعاً أبناء الله. يقول الأب أنطوان إن جميع الرجال والنساء من ذوي النوايا الحسنة شعبٌ واحد، الرجال والنساء هم أنفسهم هنا وهناك، وإننا نعمل كي يسود السلام. يرتجف صوت الأب أنطوان حين يتكلم، وتدمع عيناه، فهو مُسِنّ ويضع نظارات بعدسات سميكة تكبِّر عينيه. لا يشبه هذا المكان «ماري رين دولا بي»، لا سماء زرقاء هنا، ولا أشجار المكاتب، ولا فيكي، ولا السيدات

السمراوات ذوات الأسنان البيض اللواتي يضحكن دائماً، ولا رائحة الفواكه، البابايا وموز الزينزي والجوافة والليتشي، لكن هناك رائحة النهر الكبير الأصفر، ورائحة دخان السيارات التي لا تشبه رائحة الزنبق الحلوة، بل هي رائحة حامضة تبعث على السعال. أشمّ الآن رائحة الخبز الطازج والزبدة التي تخرج من شبابيك الأقبية، وتنتشر في الشوارع لتغمر كلّ شيء. عرفت الآن أنّ هذه هي رائحة باريس.

لا يشبه هذا المكان «لا لويز»، لكنّي سأتسكّع حتى أجد مكاناً لي. لا شيء مميّزاً هنا سوى محطة المترو، والسيارات، والناس الذين يمرّون جيئة وذهاباً. حين كان والدي يتكلّم عن هذه الأماكن، كان يقول: «يأتي ويذهب، كإفريقيا!». لا أعرف كيف يمكن لذلك أن يكون إفريقيا، ربما كان ذلك يشبه باريس أكثر. ليس للشمس مكانٌ هنا، إنها تشبه حبة الأسبرين. هذا ما كان والدي يقوله كلّما تكلّم عن باريس. كان يقول أيضاً: «هناك في باريس، الشمس ليست شمساً، بل حبّة أسبرين يتداوى الناس بها من الصداع». ينعكس نور الشمس من على زجاج نوافذ البناء المقابل، طابعاً بقعة من نور دافئ على الرصيف جلست فيها، سانداً ظهري على الجدار الحجري المحيط بالحديقة العمومية. أغلقت المعطف وثنيت ركبتي ووضعت يديّ في جيوبي، فلم يعد أحدٌ يراني. هنالك الكثير من الأماكن في باريس، لكن لا يجدر بك الذهاب إلى الأماكن الجميلة، أمام مخبز أو مقهى أو سينما، لأنها أماكن يوجد فيها المشرّدون المحلّيّون الذين يهدّدون بضربك، لأنهم يعتقدون بأن هذه الأماكن تعود لهم. لكن هنا، في هذا المكان الذي وجدته، لا يوجد سوى المارّة والسيارات. حنيت رأسي قليلاً نحو الأرض حتى لا يستطيع الناس رؤية أنفي المقروض وعينيّ اللتين تفتقدان جفنيهما وفمي البلا شفاه. وجهي عبارة عن بقعة مظلمة. يداي الملتويتان مختبئتان في قعر

جيوبي. أرقب كل شيء حولي: النساء على عجلة من أمرهن في تنانيرهنّ المكويّة، وأحذيتهنّ ذوات الكعوب العالية التي تطقطق، والرجال المتدثرين بمعاطفهم المطرية وقبّعاتهم الصوفية، والعجزة الذين يترنّحون، والفتيات اللواتي يمررن محضونات، وفي بعض الأحيان، كلباً أسود يجرّ أحدهم بالحبل. هنا «لا لويز» خاصتي، لا أحد يعرفني وليس لديّ من تاريخ.

فخّ

حدث هذا في الليل، في منطقة فيها كلّ أنواع الأخطار، في «غران بيه». لماذا أتت كريستال مساء السبت هذا بالذات، إلى الطريق الساحلي حيث السيارات التي تجول بلا توقف؟ ماذا كانت تتخيّل؟ ماذا كانت تأمل وهي تسير بتماس خفيف مع هياكل المركبات ذات النوافذ اللمّاعة والأضواء المشرعة، والتي تتحرك ببطء بالاتجاهين في غمامة من رائحة دخان العوادم الحامضة، ومن أصوات الآليات التي تعلو على صوت البحر؟ السيارات تتقدم، تخفّف من سرعتها، ثم تعود وتسرع، وهي تمشي وحدها على حافة الطريق، دون أن تنظر. يلحق بها الصبيان عن بعد وهم داخل سيارة تويوتا. إنهم خمسة في السيارة، يتقدّمون والنوافذ مفتوحة، يتوقفون ثم يتابعون. الموسيقا تملأ الداخل الخانق، فالمكيّف لا يعمل منذ مدة طويلة. موسيقا أغنية «سيجا(*) روليه، سيجاييه، وهيب هوب هوريبيي» تتعالى من داخل السيارة. ربما تسمع كريستال نوتات موسيقاهم رغم ضجيج الطريق، وهي تقول لها: هيّا سيري، سيري، تعرفين لماذا، لهذا فهي تمشي دون غنج، قدماها مفتوحتان، وهي ترتدي بنطالها الجينز الممزق الذي تلبسه أيام العراك، وقميصها مربوط فوق السرة، والحلي الأخضر يرقص مع

(*) أغنية لرقصة فلكلورية «غير محتشمة» في جزيرة موريشيوس. كلمة Séga تعني «اكشف عن جسدك» بالكريولية.

حركة وركها، وشعرها مائل إلى جانب واحد باتجاه الهواء البحري. إنها تعرف إلى أين هي ذاهبة، إلى موعد منتصف الليل على الطريق، أمام النادي المضاء بأضواء النيونات الصاخبة، إلى شجرة النخيل الخضراء والصفراء التي تشتعل وتنطفئ على برج من الورق المقوى، إنها تعرف المكان، وهي تتردّد عليه منذ أن بدأت الخروج ليلاً، اسمه يتغيّر بشكل دائم، يُسمّى «رويال بالم»، أو «بالم بالمز»، أو «بالميرز»، الموضوع لا يهمّها، إنه مجرد اسم، ليس حقيقياً، إنه اسم كي تحرق الفتيات أجنحتهنّ. فتيات «روشبوا»، أو «لا فاليه دي برتر»، أو «غرو كايو»، يأتين إلى هنا بحثاً عن المال، والمغامرة، وأحياناً الموت. في الليالي الحارة، ترجرج أجهزة تضخيم الصوت الأرض، مخرجةً نبضاتٍ صمّاء من هياكل السيارات، وتهزّ مكبّرات الصوت صناديق السيارات، وتخلخل ضربات القلب. تسمع كريستال هذه الأخيرة جيداً، فهي ترنّ بصوت أعلى من نقر كعاب حذائها العالية على الأسفلت، وتصدر صدىً يصل إلى حلقها، ينبض في صدغيها وأطراف أصابعها دون أن تعي ما يحصل لها. كريستال تتعرّق، العرق بلّل ظهرها وقميصها الذي التصق بكتفيها؛ وهي تشعر بقطرات العرق وهي تسيل من تحت إبطيها وتحرق جسدها. هل هي خائفة؟ حتى ولو كانت فلن تعترف بذلك. إنها المرة الأولى، إنه تدريبها على العنف وانتقامها كامرأة. هذا ما يقوله لها الشباب الذين يلحقون بها في السيارة: «هيّا! عندما تجدين طريدتك لا تتخلّي عنها، ستأخذينها إلى الأدغال، أو حقول قصب السكر وراء مابو في فون دو ساك. أينما ذهبت، سنكون وراءك، نتبع السيارة. لا داعي لأن تلتفتي». تشعر كريستال بهم خلفها، وهي تسمع الموسيقا القوية التي تحوّلت الآن إلى نمط الديسكو الهندي تغنّيه فتاة بصوتٍ يئنّ ويرتجف، آه، أوه، ها. تسمع أيضاً أصوات الصبيان: «أليكس» الذي يشرب البيرة من الزجاجة، «رامزي»، «ليو»، و«بن» الذي

يقود بيد واحدة وهو يدخّن حشيشته، والملك «ديريك» الذي يدير كل أنواع التهريب في «بلو باي» كالمشابك، وحبوب النشوة، وكلّ ذلك صُنع في موريشيوس. سمعت الصبيان يضربون بكفوف أيديهم إيقاعاً على بوابة السيارة، وصراخ الرجال الذين يمرّون ببطء أمامها. اختلطت موسيقا النادي الليلي بهدير المحركات، وتلألؤ أضواء النيون عبر الهواء الساخن كان يشبه حوَمانَ سربٍ من ملايين الفراشات فوق حقول القصب. في النادي، رأت كريستال فوراً الرجل الذي تبحث عنه، ليس طويل القامة، ويتأنّق بطقمٍ من قطعتين من اللون الرمادي الفحمي، هيئته تشبه هيئة ممثل في بوليوود، وهو يرتدي أيضاً قميصاً جميلاً أبيض اللون لكن من دون أن يضع ربطة عنق. هو الآخر قد رآها من المكان الذي كان واقفاً فيه وحده بالقرب من البار. لكن كريستال لم تتجه نحوه، بل بقيت ترقص وحدها في وسط البار، لا تنظر إلى أحد، لا تعرف أحداً، هي وحدها هنا، ترقص بعنف يجعل جدران النادي تدور مع إيقاع الموسيقا. لم تعد تخاف الآن من شيء، الليل بقي في الخارج، والجو يلمع بجسيمات كهربائية. تيّار المكيّف البارد يخترق القاعة، البرد هو الثمل. اقترب الرجل منها وهو يرقص بثقلٍ مثل كلاب السيرك. بدأ يتعرّق فخلع سترته الحريرية الجميلة، وفتح ياقة قميصه. لم يتكلم، أو ربما الضجيج ابتلع كلامه. نظرت كريستال إليه، هي أطول منه برأس لكنها تبدو كطفلة، لقد كحلت عينيها ووضعت أحمر الشفاه. نظر إلى فمها. إنه حتى لا يعرف اسمها وهي لن تقول له، لن تقول له شيئاً، لكنّهما سينسلّان معاً خلف ستارة الليل. اتجها إلى السيارة السوداء، فتح لها الباب لكي يبدو لبقاً، ولكنه في الحقيقة يريد أن يرى ساقَي كريستال، شغّل المكيّف قبل أن يدير المحرّك، ووضع موسيقا هادئة أكثر من اللازم، عادية وسخيفة. لم تعلّق كريستال بشيء، أخذت السيجارة التي أشعلها بولّاعة السيارة، وسحبت نفساً مُحلّى. اتجهت

السيارة نحو الحقول، كل شيء الآن صامت، فتحت النافذة لكي تسمع نقيق الضفادع في برك الماء. تتعرّج الطريق بين حقول قصب السكر وأكوام التراب والحجارة. سارت السيارة ببطء والغبار الذي يثيره الهواء يتصاعد على الجانبين. انزلقت كريستال على مقعد الجلد، الهواء القادم من جهة القصب حارّ، أمّا الهواء القادم من المكيّف فيبرِّد أقدامها، شعرت بقشعريرة في ساقيها، وعلى بطنها، وانتظرت.

هي تعرف ماذا يريد. أوقف السيارة في وسط القصب ومال نحوها، شمّ رائحة شعرها، وهي ترى قمة رأسه حيث الشعر خفيف، ربما فكّرت بأبيها، فهو الآخر أصلع بعض الشيء. الرجل وديع ورائحته زكية، لكنه متعجّل، مدّ يده إلى ما بين فخذي كريستال، أصابعه واثقة ومصمّمة، تبحث عن الأزرار، والمشابك، والعلائق التي تغلق حمّالة الصدر. أزاحت اليد الدافئة مطّاط اللباس الداخلي، وزحفت كحيوان فظّ ومستعجل. أدارت كريستال وجهها ولكن سهل حقول القصب أسود مظلم، ليس هنالك من كائنٍ حيّ على بعد كيلومترات. شعرت بطعم سائل حمضي في حلقها، سعلت، أصبح الرجل فوقها الآن، وهو ثقيل، لم يعد يمثّل الدور الذي كان يلعبه في النادي. نفَسُه حادّ ويقول كلمات فاحشة، عنيفة، كلمات لا تفهمها، وضع يده على رقبة كريستال وشدّ نحو الأسفل، فشعرت بقلبها يخفق داخل عينيها، لم تقل شيئاً لكنّها حاولت أن تنزلق نحو الخلف، حاولت أن تفكّ وثاق العُقَد التي انعقدت على رقبتها، على بطنها، التي تجدل شعرها وتبرمه كحبال مبلولة. فجأة انفتحت بوابة السيارة وقفزت كريستال، إنها حافية القدمين، لقد أضاعت حذاءها الذهبي الجميل، لا تستطيع الركض، ساقاها يرتجفان، وفي هواء الليل تُصدر أوراق قصب السكر صوتاً حادّاً. السماء مزروعة بالنجوم، وفي الطرف الآخر ظهر وميضٌ أحمر اللون في النقطة التي تنطفئ الشمس وتضيء المدينة فيها. انهارت كريستال على

الأرض، الألم يعصر بطنها، أو أنها علامة يد الرجل على ما بين فخذيها، قميصها المفتوح يخفق في الهواء الحارّ. شعرت بشيء في حلقها، بحثت بيدها، فإذ بها تجد شريط الحمالة المفكوك، حاولت بشكل آلي أن تضع حمّالة صدرها كما لو كان الأمر مهماً، وانتظرت أن تلحق بها خطوات الرجل، فهي تعرف أنها لا تستطيع أن تفلت منه، ارتجفت، ولكن هذا لم يحصل، سمعت حفيفاً فقط، الصوت الناعم للسيارة الجديدة التي تبتعد، وشمّت رائحة الغبار في فمها. شعرت بطعم الدم على شفتيها في المكان الذي عضّها فيه، وبالفراغ الذي يضرب صدغيها، وبالشعر الذي يلتصق على خدّها بفعل لعاب الرجل. صرخت. إنها واقفة في فسحة وسط حقول القصب وتصرخ. تقف جامدة في وسط القصب الذي يتداخل بعضه بالبعض الآخر، فراشات الليل تقف على بشرتها ولكنها لا تملك القوة لطردها. سمعت صوتاً آخر على الطريق، إنها سيارة «ديريك» التويوتا، لا يمكن أن تخطئ، إنه صوت قِدرٍ قديم، صوت تراكتور صدئ، ليس هناك أصوات بشرية مجرد صوت المحرك، والبوابات التي تصفق. بعد ذلك سمعت صرخة زمور، صرخة تشقّ ليل القصب، وتصعد حتى مركز السماء المليئة بالنجوم، صرخة غضب وتهديد، ليست هذه سيارة الصبيان نفسها، لقد أضاعت التويوتا صوتها، إنها صرخة سينمائية تدعو للّحاق بالسارق، بالقاتل، بعيداً عن القصب، نحو الطريق الساحلي حيث تستمر السيارات بالجريان. بدأت كريستال السير، الآن تعوّدت شبكية عينيها على الظلمة. لمعت أوراق القصب، وشعّ الطريق الترابي ببلّورات فوسفورية صغيرة. سارت نحو سيارة الصبيان، سارت نحو وميض النيونات فوق الحقول. شعرت أن النعاس غطّى عينيها، وأرادت رمل الشاطئ. اتكأت برأسها على كتف «ديريك»، واستمعت لموسيقا السيجا الناعمة في انتظار النسيان ربما، إن كان ذلك ممكناً.

إديتي

الغابة تفتح أبوابها كل يوم عند الفجر، بالنسبة لإديتي. أزاحت قطعة النسيج القطني التي تغطي سريرها. في الغرفة، كان الطلاب ما يزالون نائمين، كلٌّ في سريره المعلّق، كما لو كانوا شرانق تنتظر التحوّل إلى فراشات. في النجيل، تتعلّق الأشجار بغيمة قطنية كلّها بياض، والمطر يهطل رذاذاً ناعماً، لا يُعرف من أين أتى، كأنها كانت معلّقة بالسماء. الطيور بكلّ أنواعها استيقظت هي الأخرى، وهي تغلي غلياناً: ببّغاوات الدرة الكبيرة تقفز من غصن إلى آخر، والحمام الزهري يهدل، والأزواج الحرّة تطير نحو الأغصان المرتفعة. صدى الأصوات الحادة ينتشر حتى حدود الحديقة الوطنية، وحفيف الأجنحة يُسمع بخفّة. إديتي تحبّ هذا الوقت من النهار، تشعر في داخلها بفرحة، لا يمكن التعبير عنها بالكلام، تأتيها من كلّ ناحية. مَشَت في طريق البارحة نفسه، متّبعة الأغصان التي كسرتها داخل الأدغال. إنه طريقها الشخصي، وهي تغلقه كل مساء بأغصان شوكية، لكي تستطيع إيجاده في الصباح. لم ترتدِ اللباس شبه العسكري الذي تؤمّنه لها «MWF»، وإنما مجرد قميص وبنطال جينز ممزق، وتنتعل نعال الشاطئ المفضّلة لديها التي جلبتها لها صديقة من البرازيل. سارت باتجاه شمال الصخرة التي تطلّ على مضائق الوادي، المكان الذي يُرى

منه، من بين الغيوم، البحر، وزرقة البحيرة الشاطئية، ومن بعيد، الخيط البنفسجي للمحيط الذي ما زالت تلفّه العتمة. إنه المكان الذي اختارته لتُحيّي الشمس، حتى لو تأخرت بالشروق على هذه الجهة من الجزيرة. يزداد بزوغ الضوء الحارّ من دقيقة إلى أخرى، ويغزو السماء بموجات غير مدركة، يشعل قمم الجبلين، «بريزفير» إلى اليمين، و«لي دو بيتون» إلى اليسار، ينسكب بين الأشجار فينعكس سواداً على الصخور، وأخضر غامقاً على أوراق الأشجار، وأحمر وأصفر حيث تكون الأرض عارية. لا تتكلم إديتي بصوتٍ عالٍ. جلست على أعلى المنحدر، مواجه البحر، ساقاها مطويتان تحتها، الجذع مستقيم، ويداها على جانبي بطنها الكبير. ردّدت بصوت منخفض الكلمات التي حفظتها منذ نعومة أظفارها:

فايورا نيلامام تاميتيدام بهاسسمانتام شاريرام

«لتنتقل هذه الحياة إلى الروح الأزلية وهذا الجسد إلى الرماد».

دخل الضوء فيها وأدفأها حتى الأعماق. تنفست إديتي ببطء ووجهها يرنو نحو السماء. الضوء الذي يكبر في مضائق الوادي يلغي كل مقاومة، يحلّ كل الروابط، ويدفعها نحو الفضاء. لم تعد تفكر بحياتها، ولا برغباتها، ولا بمخاوفها، نسيت كلّ ما ذلّها. هي فقط هي، أديتي. لم تعد البنت التي فقدت أباها، العاملة في المنطقة الحرة، التي تربّص بها رجلٌ ذات مرّة على طريق المعمل لكي يغتصبها في أرض مهجورة. إنها إديتي، الأولى من سلالة جديدة، تحمل في أحشائها الطفل الذي لم ترغب به، ثمرة عنف. تنتظره، لا تعرف ما سيكون، بنتاً أم صبيّاً، لن يكون له اسم. سيكون طفل الغابة، هذا ما قرّرته.

تعرف إديتي كلّ شجرة، وكلّ شجيرة، وكلّ نبتة متعرشة، دوّنت أسماءها في دفتر دراستها مع رسوم لعروق الأوراق وتشعّباتها وأزهارها

وثمارها. دوّنت روائحها ومذاقاتها وكل الحكايات التي تدور حولها، والأرواح التي تسكنها، والتي تكون على شكل حشرات أو سحليات، والرحلات التي عرفوها قبل انتقالهم إلى الجزيرة. تعبر الغابة كل يوم لكي تتعرف على التحوّلات من ظهور وانقراض، غزو الغرباء، مرور الحيوانات، آثار الطيور. للأساتذة والطلبة طريقهم، هم يتنقّلون في شاحنة تابعة للـ«MWF» من معلم إلى آخر. يبحث رجال الشرطة عن مزارع الغانجا ويلاحقون المهرّبين. حرّاس الغابة يصطادون القرود المكاك والخنازير السوداء البرية، ينصبون الأفخاخ، ويضعون السُّم. أما إديتي فهي تلحق أثر قدميها، دون البحث عن مرجعيات، تثق بغريزتها، تتذوق الأوراق، وتتنشق الهواء. مخطط طريقها محفوظ في ذاكرتها: هنا النبتة المتسلّقة ليان باوهين، وهنا التمبول، وهنا الغرموش، وهنا سنجب سبويا، وهنا خشب الكاف كاف، وهنا باقة الموزيّة. كلّمت كلّاً منها، ليس من خلال الكلمات ولكن بعيونها، بنفَسها، بلمسها بطرف أصابعها، وبطرف شفتيها. جلست على أوراق الشجر المتحللة في وسط الغابة لكي تشمّ رائحة الإشنيات البيضاء التي تغطي سطحها، وأرجعت رأسها إلى الوراء لترى الشجرة الضخمة العالية التي يلتصق بها الضباب. تنفست بعد ذلك رائحة القلفونة التي تفرزها أشجار الصنوبر الكبيرة ذات اللحاء الأحمر التي يسير عليها النمل. وجّهت لها صَلاتها الصامتة، صلاة الحيوانات الصغيرة نفسها، التي تزحف على الأرض كدودة الأرض وقملة الخشب والعنكبوت.

أصبحت الشمس في كبد السماء، انقشع الضباب، مُزيحاً الستار عن مناظر زرقاء باهرة. الأوراق وتويجات الزهر ثابتة الآن في الضوء، دون أيّ فراغ أو اضطراب. إنه عالم متكامل، هذا ما تفكر به إديتي. توجهت نحو طرف المنحدر، ثم نزلت عبر دربٍ ضيّق لا يمكن لأحد غيرها أن

يراه. كانت تلمس الأرض لمساً خفيفاً وهي تمشي بين الحجارة، ذرّات قليلة تتدحرج عند دعسات قدميها. تقفز من صخرة إلى صخرة، دون تردُّد. غطّت حرارة الشمس في الهواء الساكن جسدها بقطرات من العرق، والتصقت بلوزتها على ثدييها وكتفيها. شعرت الآن بضرورة الماء. لقد بدأت تشعر به على شفتيها وبشرتها آتياً كبخار بارد يتصاعد من الشلال بين جروف المنحدر الصخري الأسود. طرق قلبها بشدّة، ركضت نحو الماء كأنها تتجه نحو موعد غرامي، كانت روحها قد وصلت إلى هدفها في الوقت الذي كان فيه جسدها ما زال يشقّ طريقه عبر الشجيرات التي سلخت جلد قدميها بمخالبها. هذا ما تنتظره كل صباح، الهروب من الملجأ بينما ينام الطلاب ملفوفين بالأغطية في أسرّتهم المعلّقة، شعرهم أشعث وأفواههم مفتوحة باتجاه السقف. «أليكس» و«سيمون» و«ناتالي» و«ريغولا» و«ليزبث»، يقولون لها أحياناً: «أنت يا إديتي حرّة، حرّة مثل...»، لا تجد ريغولا الكلمة المناسبة، تجيبها إديتي على سبيل المزاح: «حرّة مثل كُمّ؟». لم تفهم ريغولا مقصدها. ضحكت إديتي، وبينما كانت تكمل نزولها نحو شلالات «تاماران»، فكرت أنه معها حقّ، هي حرّة مثل لباسٍ من دون جسد، يأخذ شكله بحرّية ويهتزّ في الهواء مثل كُمّ. اليوم، في شهر حملها السادس، ذهبت إديتي لتبحث عن الماء الذي سيُغسل به طفلها. هي لا تعرف اسمه، ولا جنسه، ولكنه عندما سيولد، سيولد هنا في مياه الشلال الباردة. ستهَبُه للشمس المشرقة، وبعدئذٍ تغسله في الماء النقي. في الليل، سيهبّ هواء الغابة على جسده، ويعطّره برائحة الأوراق والنسغ.

رافقت العصافير إديتي. لقد لمحت اللمعان الأسود لجناح، وانعكاساً أحمر على صدر. سمعت بعض ضحك، وبعض زقزقة. على طول المنحدر، فوق الوديان، ترى مرور بياض زوج من رئيس البحر أحمر المنقار. سمعت صراخ الذكر المزعج: كو، كو، كو، صوت يشبه زعيق عوسق يدوي في

الفراغ. وصلت أخيراً إلى الحوض، كانت قد اشتمّت رائحة الماء وسمعت صوت هبوط الشلال قبل أن تراه. الطريق ليس ببعيد، نحو «هنريتا»، «كامب روش»، حتى مدينة «فاكوا». تسير الشاحنات وسط غيمة من الغبار. سمعت إديتي صراخ أطفال، وديكاً يصيح، ونباح كلاب. تعرف إديتي المكان الذي يمكنها منه أن ترى دون أن تُرى. على صخرة مستوية ملّستها المياه، زلقة بفعل الطحالب، خلعت إديتي ثيابها وغطست في المياه ببطء. البحيرة سوداء، ضوء الشمس لم يدخل إليها بعد، ويرتجف سطحها بفعل أسماك الدامسل. أطلقت إديتي العنان لجسدها لينجرف على طول الشاطئ بين النباتات، دون أن تسبح، تستلقي على ظهرها مبيّنة بطنها الكبير المشدود، يزيّنه خطٌّ من زغب أسود ارتسم على بشرتها الداكنة. انحرف حتى تغضّنت راحة يدها، حتى يدخل البرد فيها، فينكمش الطفل داخلها. بعد ذلك، تتمدّد عارية تحت الشمس على الصخرة، والطفل ينام في بطنها، إبهامه في فمه، وعيناه مفتوحتان على الضوء الأحمر.

قصة أشوك

إليكم قصّتي كما أرغب في أن أرويها، فليس جميع سكان الجزيرة يعون الحقيقة. سأروي لكم كيف، في أحد الأيام الشتائية، لمّا كان عمري ستة عشر عاماً، اكتشفت بحيرة الجنيّات في غابة «بيري تالاو». أدعى أشوك، ابن «أبهيمانيو» و«كونتي»، جئت إلى هذه الجزيرة لمّا كنت طفلاً، على ظهر سفينة حملتني من أرض أجدادي إلى موريشيوس سعياً وراء الحياة الجديدة التي أرادها والدي. لم يبقَ لي أيُّ ذكرى من تلك الرحلة، سوى ما رواه لي والدي عن موت والدتي لدى وصولها إلى المرفأ، وكيف حُرق جثمانها في سهل بالقرب من مدينة «فاليه دي بريتر» الذي أصبح الآن يعجّ بالبيوت وتخترقه الطرقات. لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لوالدي الذي اضطرّ أن يربّيني بمفرده على الرغم من عمله في الحقول، حقول «باي» في البداية و«لاديكوفيرت» من بعدها. اختار والدي لتعليمي أن يرسلني إلى مدرسة الكاهن الهندوسي، لأتعلّم نصوص الهند المقدسة واللغة الإنكليزية أملاً في أن أجد عملاً أفضل من الفلاحة، فبنيتي ضعيفة ووالدي يخشى أن يفتك بي العمل في حقول قصب السكر. في ذلك الحين، كان العمل في المزارع قاسياً جداً، إذ كان عملاً يدوياً يستمرّ من شروق الشمس حتى مغيبها، في القيظ أو تحت الأمطار. كان القصب يُنقل بعد قصِّه في

عربات تجرّها الثيران، وكان عملي أثناء العطل المدرسية يقوم، كما هي حال أطفال آخرين من جيلي، على المشي خلف الحمولات والتقاط ما يسقط من العربة.

كان والدي يصحبني أيام الأعياد إلى معبد «تريرليه» الكبير للصلاة ولتقديم القرابين للإله «شيفا» والإلهة «دورغا».

بعد استقرارنا في «كانز كانتون»، انتقلت للعيش في الغابة. كنت في عمر يبحث فيه المرء عن المغامرة، وكنت أتملّص من مراقبة أبي وألج الغابة بالقرب من المنزل. كما أني توقفت عن الذهاب إلى المعبد، وآثرت أن أسبر غياهب الغابة، دون رفيق وبعيداً عن الدروب المعروفة، على الرغم من ملامات والدي. لم أكن أقوم بذلك حبّاً بالتحدي أو بإهانة الدين، بل أظن أني كنت ألبّي نداء الغابة كما أحسست به لدى قراءتي في الكتب لأسطورة «دامیانتي» التي انطلقت بحثاً عن زوجها «نالا». كنت أسمع صوتاً يقول لي في كلّ لحظة: اترك كلّ شيء واذهب بحثاً عن أرض الآلهة والأجداد. لم أُفصح عن ذلك إلا بعد فترة، لأن ما من أحد كان ليستوعب أن بوسع طفل الابتعاد عن منزله وعن أمان قريته، ليَتوهَ في الغابة وحده. حذّرني والدي ورفاقه أكثر من مرة من مخاطر هذه المغامرات الحراجية. حدّثوني عن المارون الذين كانوا ما زالوا يعيشون فيها، وعن «ساكلافو» الذي نجا من الحروب ويعيش مختبئاً في الغابة. كانوا يصفونه بشيطان متوحش، أسود كالليل، قوي لدرجة أن باستطاعته اقتلاع شجرة من جذورها ورميها كرمح في وجه كل من يصادفه. ادّعت إحدى العجائز أنها صادفت «ساكلافو» أثناء ما كانت تتنزه مع بنات أخيها في أطراف الغابة. لمّا وصلت إلى فسحة سماوية، سمعت جلبة كبيرة، وإذ بالعملاق يظهر لهن. نظر إليهن لبرهة، ثم عاد إلى عمق الغابة دون أن يقول شيئاً. كنت

أستمع لهذه الحكايات التي ترويها النساء دون أن أصدّقها؛ وعوضاً عن إخافتي، كان لها الفضل في إثارة فضولي لاكتشاف هذا العالم الغامض.

دامت مغامراتي في الغابة كل تلك الفترة من طفولتي، حتى أصبحت في السادسة عشرة من عمري. في شهر كانون الثاني من ذلك العام، هطلت أمطارٌ غزيرة عصفت معها رياح شديدة اقتلعت أشجاراً وهدمت مداخن أفران الكلس وبضعة منازل في القرى. قرّر أبي عندئذٍ أن يهجر «نوفيل ديكوفرت» التي تتعرّض دوماً للأمطار، وانتقل ليبحث عن عمل في مدينة «تريرليه»، الأمر الذي سمح له بأن يصبح على مقربة من كاهن المعبد، السيد «موهانبسراد». أحزنني هذا القرار الذي أبعدني عن الغابة. لذلك، قرّرت، قبل الانتقال ببضعة أيام، أن أزور هذه الأماكن التي أحب للمرة الأخيرة، لأنه لن يعود بمقدوري رؤيتها. انطلقت باكراً قبل أشعة الفجر الأولى، متسلّحاً بمطرة ماء وبعض الكسافا. قررت أن أتجاوز الأثلام التي خطّتها أقدامي سابقاً. مشيت طوال اليوم وحين حلَّ الليل فجأة، كنت قد وصلت إلى عمق أعماق الغابة. استهلكت مؤونتي من المياه ومن عجينة الكسافا، وكان عليّ أن أستريح قبل أن أعود أدراجي. جهّزت سريراً من أوراق الأشجار وملجأً من سعف النخيل، فالطقس كان سيّئاً والأمطار بدأت بالهطول. في حوالي منتصف الليل، استيقظت على صوت أنغام غريبة تشبه الأصوات البشرية، لكنّها تتكلّم بلغة غير معروفة. اتجهت نحوها بحذر، فقد تذكرت قصص النساء حول المارون والعملاق «ساكلافو». كنت كلّما اقتربت أكثر، ازداد همس الأصوات الذي كان تارة بهيجاً وتارة حزيناً، كان يغنّي لحناً لم أسمعه من قبل. وكان يرافق تلك الأصوات ضحك وصوت سيلان مياه قريبة، الأمر الذي شجّعني على التقدّم، فالظمأ كان قد تمكّن مني. أحسست برطوبة المياه على جلدي ورحت أتنفس عبير النباتات. دقّ قلبي بقوة، حثثت الخطا على الرغم من

عوائق الأغصان ولسعات الأوراق الشائكة. فجأة، من أعلى التلة التي كنت عليها، رأيت البحيرة للمرة الأولى، وهي لم تكن كبيرة جداً، لكنها بدت عميقة وتامّة الاستدارة، يتموضع في وسطها جزيرة صغيرة. ضياء النهار الوليد عكس صورة الأشجار المحيطة على سطح مياه البحيرة الساكنة. رفرف الضباب على وجه المياه مشكِّلاً سحابة فضية تنزلق على طول شواطئها. رأيت على شاطئ أسود مجموعة من نساء يسبحن في الماء. كان صوتهن هو ما قد سمعته في الغابة، لقد كنّ يتحدثن ويغنين بلُغتهنّ السلسة والصافية، ويضحكن دون أن يعبأن لوجودي. لقد كنّ سبع نساء، يلبسن أثواباً طويلة بألوان مختلفة، بعضهن يضعن أوشحةً وأخريات أظهرن شعورهن المتلألئة بقطرات الماء. أخفاهن الضباب للحظة قبل أن ينقشع، وبقيت أنا مستلقياً على الأرض بين الشجيرات أراقبهن بلا حراك، كما لو كنت في حلم. ما زال قلبي يخفق بقوة، لكن لم أكن أشعر بأي خشية، لقد وصلت إلى المكان الذي أبحث عنه، بحيرة الجمال التي أوحِيَ لي بها. هؤلاء النسوة، في الحقيقة، كنّ جنّيات الأساطير، وأنا لست سوى ابن فلاح بسيط سنحت له الفرصة للقائهن! شاهدتهنّ دون حراك. قامت إحدى الجنّيات بنزع ثيابها فجأةً وتقدّمت في المياه حتى وصلت إلى خصرها. لحظت جمال جسدها وبشرتها الذهبية اللون. فهمت، حين أشاحت بشعرها الأسود اللامع كلمعان الألماس، أنها قد رأتني، فدبّت القشعريرة في جسدي. شعرت بأني أنزلق نحوها، بأني أحلّق على غيمة. انبثّت أشعة الشمس على قمم الأشجار بعدئذٍ وأغلقت عيني، وحين عاودت فتحها كان الشاطئ مهجوراً ومياه البحيرة تتألّق بقوة. لقد اختفت الجنّيات.

عدت إلى «ديكوفرت» عدْواً دون أن أتوقف لألتقط أنفاسي. لمّا وصلت، علمت أن والدي قد غادر القرية منذ يومين، وأنه يئس من عودتي،

فالجميع قد ظنّوا أني أُسِرت والتُهمت من قبل المارون. لم أبُح بما رأيته في الغابة، لكن في «تريوليه»، بعد أن حضنت والدي، أخبرته عن المغامرة التي عشتها في الغابة. لم يقم بتأنيبي، بل أخبر كاهن المعبد الذي أتى لرؤيتي، وأخبرني بأنه على علم بوجود «بيري تالو» أو بحيرة الجنّيات، لأنه رآها هو في منامه. أضاف أيضاً إن مياه البحيرة مقدّسة، لأنها ليست سوى مياه نهر جانجا الذي يسير من تحت المحيط وينبثق في قلب الغابة التي هي جزء من مملكة «هاستينابورا»، مدينة «الباهاراتا». في ما بعد، قُدت مجموعة تشمل الكاهن «موهانبراساد»، والكاهن «جومون جيري» من معبد «تريوليه»، ووالدي، ومجموعة من المساعدين عبر الغابة حتى وصلنا إلى البحيرة، حيث كانوا أول من بنى مذبحاً وقدّم القرابين. في هذا المكان بُني في ما بعد المعبد المهدى لآلهتنا بشكله الحالي على ضفة البحيرة، وهؤلاء هم الكهنة الذين يعود لهم المجد باكتشاف بحيرة الجنّيات. إلا أن أعداد المؤمنين الذين أمّوا هذا المكان كان يزداد عاماً بعد عام لدرجة أنهم خطّوا الطريق الذي يمرّ عبر الغابة. لقد سلكته بعض المرات في حياتي حاملاً القرابين للآلهة، لكني لم أرَ الجنّيّات مرة أخرى.

دودو يسافر

يدير الأب أنطوان اللقاء مع مشرّدي باريس. جرى اللقاء في قاعة كبيرة في مدينة منعزلة اسمها، كما قيل لي في القطار، «سان جرمان أن لاي». صُفَّت الطاولات الموسومة بعلامة الكوكا كولا بشكل مرتّب، ووُضع حول كل واحدة منها أربعة كراسي بلاستيكية قابلة للتكويم، وفوقها أربع كؤوس بلاستيكية من عصير البرتقال. يبدو أنه بالإمكان طلب قهوة بالحليب لكن الشاي غير متوفر. وصل المشرّدون تباعاً أفراداً أو أزواجاً، النساء أيضاً وصلن يرتدين كنزات صوفية قديمة وبناطيل مثقوبة. شابّات هن، بشرتهن حمراء أتلفها البرد، تظهر لثاتهن الوردية حين يبتسمن. أتت إحداهن تلبس معطفاً من الفرو الصناعي مرقّع ببقع سوداء كجلد الفهد. الرجال كانوا يلبسون سترات وقبّعات وبناطيل جينز، بشرة بعضهم كانت شديدة السمرة، هيئاتهم عربية ويشبهون مشرّدي البازار في «بور لويس». قرأ الأب أنطوان أسماء الحاضرين، أسماؤهم الأولى بالأحرى، لأنه من المستحسن ألا يعرف أحدٌ نسبهم أو مسقط رأسهم. وقف الأب أنطوان على منصة المسرح، ممسكاً ميكروفوناً في يده، وراح يقرأ الأسماء من القائمة ببطء. على حامل الاسم أن يقف ويؤشّر بيده مبتسماً حين يسمع اسمه، وعلى الجميع في القاعة أن يحيّوه بأيديهم وأن يبتسموا له، فنحن جميعاً

هنا إخوة وأخوات في عائلة الذين لا يملكون عنواناً ثابتاً، عائلة مشرّدين بلا حدود. هذا ما شرحه لنا الأب أنطوان قبل أن يباشر بقراءة الأسماء:

علي، مومو
شارلي
جو
هيلين، لويز
بوريس
بيتر
جان جاك
عبدو
ميراي
قابيل، علي
فرانك
بيير بول
دافيد
نعمان
جانيت، أنغريد
رايسا
ماتياس
جاكي، جان بيير
ستيف
غليوم
فيليبير

أنصتُّ للأسماء. وقفت لكن لم ألوّح بيدي ولم أبتسم، لأنه ليس لديّ شفاه أبتسم بها. نظرت إليهم الواحد تلو الآخر. ربما كنا إخوة وأخوات حقّاً، إن لم يكن الأب أنطوان يكذب وإن كان الأب «شوسون» صائباً.

لكني أعتقد أنهم هنا من أجل الوجبة التي تقدّم فقط، عصير البرتقال والقهوة بالحليب وقطعة الكاتو. أنا أيضاً أرغب في ذلك، لكن ما يميّزني أني جئت كرمى لرغبة فيكي. لو لم تكن تلك رغبة فيكي، ما كنت سافرت لا لفرنسا ولا لأي مكان آخر. أعتقد بأن هذا الاجتماع لن يحصل سوى مرة واحدة، اليوم فقط. سينصرف بعده كل واحد إلى شارعه ولن يلتقوا مجدّداً إلا من كان منهم على صداقة مثل علي وقابيل ولويز وهيلين. ربما يمكن لهم أن يلتقوا مجدّداً بالمصادفة، فالشوارع والمدينة لا نهاية لهما، هم يمشون طوال الوقت، ثم يجلسون أرضاً حيثما يكونون، ومن ثم يقفون ليتابعوا مسيرهم. قدّمني الأب أنطوان لمشرّدي مدينة باريس. عرّفني باسمي الأول، دودو، الأمر الذي أثار سخريتهم، فأكّد لهم قائلاً: «نعم، اسمه دودو!». قام أحد الحاضرين بقول شيء في لغته أثار حنق الأب دون أن يثيرني، فأنا معتاد على أن يبعث اسمي على الضحك، هذا شيء طبيعي. قام شاب بعد ذلك بالصعود إلى المنصة وقام بالقراءة من ورقة. طلب الأب الصمت من الحضور وراح الشاب يتلو قصيدة. أنصتُّ للكلمات وللجمل، أحببت القصيدة رغم أني لم أفهم كل ما قاله، ولكن إيقاعها الموزون ذكّرني حين كنت أعزف فيما مضى، وتقوم جدتي «بيث» بضبط الإيقاع بيدها: واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة.

من كل الأحزان ومن الآلام كلها...
من جوائح الكفر الأكاديمي المقيت... خلِّصنا يا ربّ!
من الصولجان الذي يشبع غرور الرعاع الذين يسخرون من المجد والحياة والشرف.
من خنجر الرحمة، خلِّصنا يا ربّ!

أحب أن أستمع لكلمات هذه اللغة، فإنها توقظ ذكريات مبهمة

وعلامات موسيقية، ألحان الجانب الآخر من الوجود. توقف الشاب عن القراءة، أخفض ورقته ولفظ اسماً لن أنساه، اسم رنّ صداه في القاعة أكثر من كل أسمائنا نحن، «روبن»، اسم الشاعر الذي أثار بي الرغبة بالبكاء لكن من دون دموع، فأنا لا أمتلكها. ربما كنت الوحيد الذي ينصت، فمشرّدو باريس لا يشيحون بنظرهم عن صحونهم، ويحشرون الكاتو حشراً في أفواههم التي لا أسنان لها، يرطّبونه برشفات من قهوة وهم يصدرون طقطقة باللسان. تكلم الأب أنطوان الآن عني. أخذ يتكلم عن جزيرة بعيدة جداً، على الجانب الآخر من العالم، حيث يوجد البحر وأشجار جوز الهند والفنادق الفخمة التي يرتادها الأغنياء من الناس، وحيث يوجد أيضاً المشردون الذي لا يمتلكون ما يسدّون به رمقهم، والذين يفترشون الشوارع بالكراتين، والذين يمرّ بجانبهم الأغنياء دون أن يروهم، أو إن رأوهم يرمون إليهم بقطعة نقود أو كسرة خبز وينسونهم. حين فرغ من الكلام، تمخّط الأب أنطوان الذي بدا عليه التأثر ومسح عدسات نظارته الضخمة. نظر باتجاهي فقد كان ينتظر مني أن أتكلّم، لكن لم يكن لديّ أيّ شيء أقوله. أنا لست مشرّداً، بل دودو، دودو فيلسن كو دو روس. الآن أنا موجود في فرنسا ولن أعود بتاتاً إلى هناك، إلى الجزيرة. لقد جئت هنا لأجد مكاناً أستطيع الموت فيه. ربما كانوا إخوة وأخوات، لكنني لست متأكداً بعد. بقيت جالساً على طاولتي، لم أقرب الكاتو ولم أشرب عصير البرتقال أو القهوة، ففمي لا يستوعب، ولا أرغب في أن تسيل السوائل من فمي أمام الآخرين. لماذا اختاروني من بين كل الحاضرين؟ لست سفير المشرّدين ولست المشرّد الجوّال المثير للإعجاب؛ أنا دودو، دودو فقط، لا شيء سوى دودو.

حضرت في ما بعد امرأة شعرها أسود تدعى «ميراي». رفعت غطاء مفاتيح البيانو وأخذت تعزف. لا أعرف هذا اللحن الذي رنّ صداه في أرجاء

القاعة وجعل المشردين يتوقفون عن الأكل والشرب للاستماع له. عزفها أنساني كل شيء: الشوارع التي يهيم فيها الرجال دون هدف، الأرصفة القاسية، الأقواس المسودّة تحت الجسور، حتى رائحة البول والمياه الآسنة. أعود في مخيّلتي إلى ألما بصحبة جدتي «بيث» قبل أن يصيبني المرض، وأنا أجلس على المقعد الصغير المصنوع من المخمل الأحمر، البيانو يناديني، فأعزف دون ألم «أليجرو شوبير»، «رومانس دون كلام لماندلسون» و«انعكاسات على الماء لدوبيسي». لم أنسَها، تسترخي يداي وتنساب أناملي على المفاتيح، وجدتي تقف بلا حراك على عتبة الصالون. لقد أتت كي تستمع لي لأني لم أعزف جيداً كهذا من قبل. تتابع ميراي عزف اللحن. تقدّمت أنا نحو البيانو في القاعة الكبيرة دون أن أنظر إلى المشردين. أصبحت أمام البيانو، لم تنظر ميراي إليّ. أعرف أن المشردين والأب أنطوان ينتظرون أن يروا ما سيحدث، أشعر بنظراتهم تخترق ظهري. توقفت ميراي عن العزف، نهضت وابتعدت، ربما لأنها خافت من منظر وجهي؛ لكنها دفعت بالمقعدَ الصغير نحوي كي تدعوني للجلوس. قمت بعزف مقطوعتي، كنت قادراً على العزف، على عزف «أولد لانغ سين» القديمة من كل جوارحي. أصابعي الملتوية تداعب المفاتيح البيضاء، فتنبثق الموسيقا من أناملي وتملأ القاعة. عزفت كي أقول وداعاً، لن أراكم مجدداً، وداعاً، وداعاً، هذا ما تعبّر عنه أغنية «شوبير»، وداعاً للحب. راح المشرّدون يغنون بمصاحبة الموسيقا، يصفقون بأيديهم، يصرخون ولا أعرف ما إن كان ذلك «هورا» أو «هو!». لقد عزفت، ولمّا فرغت من العزف، نزلت عن المنصة وعبرت القاعة، ورحلت قبل أن يبادرني الأب أنطوان بالكلام. ذهبت بعيداً في الشوارع وفي الطرقات. أسير الآن على طريق «بالما» الذي يصل إلى البحر مروراً بـ«فليك أن فلاك». أسير حتى نهاية الطريق، حتى نهاية رحلتي.

ليه مار

عدت. لكن ليس للبحث عن الطائر الشبح هذه المرة، ولو كنت ما أزال أحمل في يدي الحجر البيضوي الذي وجده أبي في الحقول منذ أكثر من ثمانين عاماً، والذي يشكّل الأثر الوحيد الباقي من الحياة التي سبقت عصر البشر على هذه الجزيرة. لم أسلك طُرقاً متعرجة، بل ذهبت مباشرة إلى المصنع ماشياً في منتصف الطريق الذي تزنّره الأشجار الضخمة، والذي كان مرصوفاً في ما مضى، وأصبح الآن مليئاً بالحفر كما لو أنه كان ساحة حرب. علامات الزمن المعاصر حاضرة في المكان، فقد أوصلتني سيارة أجرة «روز بيل» إلى بداية طريق «لا كامبوز»، وها هو ذا هدير طائرةٍ تقلع كسهمٍ في السماء يهزّ الأرض قبل أن يعود خمول الصباح ويسود من جديد. خرائب المساكن التي شغلها العمال المزارعون، ما زالت تُرى، في بعض المواضع، وهي عبارة عن دور متواضعة مبنية من الأسمنت يعلوها سقف من التوتياء، أغلبها كان مهجوراً، نوافذها مكسورة وأبوابها مخلوعة. نُهب كل ما يمكن إعادة استخدامه من تمديدات صحية ورفوف ومقاعد حمّام، ودُمِّر السور الحديدي الذي يحيط بالمجمّع، فاستحال إلى شراذم معلّقة بعواميد الأسمنت. الدخول إلى معمل سكّر «ليه مار» متاح للجميع، فغرفة البوّاب خالية والبوابة مشرعة تماماً. عبرت الباحة المغبرة المحاطة بمكاتب الإدارة القديمة. على باب أحدها كتب: «مكتب

المدير». القليل من المارّة يعبرون الساحة، فيما تشقّ الشاحنات طريقها بين الحفر. ما يجذبني في هذا المكان هو الهيئة الشبحية لمعمل السكّر المتموضع على علوّ مثل قلعة مدمّرة في طرف الساحة. كل ما بقي من «مون ديزير لي مار»، والذي كان في زمن ولّى من أهم مصانع السكر في جنوب الجزيرة، يضاهي في أهميته «بو فالون» أو «بيناريس». هنا أمضى والدي، أثناء العطل المدرسية، جزءاً من طفولته يركض في رحابة حقول القصب حتى البحر، بعيداً عن ألما ومتاعبها.

مشيت ببطء نحو المباني ذات السقوف المنهارة وجدران القرميد الرمادي العالية التي باتت سوداء في بعض مواضعها. ترتفع مدخنتا الفرن من رحم قطع الصفيح الصدئة، كبرجي كنيسة مكسوّين بنباتات خضراء. في وسط باحة المصنع التي لا يحميها شيء من هطل الأمطار، استقرّت قدور الطبخ وأجهزة الطرد المقلوبة رأساً على عقب، كما لو أن موجة مدٍّ ما قد حملتها ورمتها كيفما اتفق. ما زال الكروم المدهون به معدنها يلمع في بعض المواضع، في حين تستخدم السحالي والجرذان الثقوب التي ثُقبت فيه للعبور بحرية. سكك الحديد تظهر وتختفي في أرض الساحة المكسوّة بالحطام وقطع أخشاب وبراغي وشظايا من حديد صدئ. النباتات كست المستودعات والغرف، وامتدّت عبر النوافذ التي تحطّم زجاجها. نمت الأشجار داخل الغرف وضربت الشجيرات جذورها على أعالي الجدران والمداخن. السكون آسِر، يتخلّله للحظات نعيقُ غربان أو حفيف أجنحة الحمام الذي استوطن المصنع. لم يعد يمرّ أحدٌ من هنا. من عاصروا المعمل وما زالوا على قيد الحياة يعيشون في أسفل التلة، في المنازل المحاذية للطريق. حين مررت أمام المكاتب، كانت هنالك امرأة تكنس الغبار تحضيراً لاستقبال أحدهم. حركتها كانت ميكانيكية بعض الشيء، تلبس ثوباً طويلاً من قماش كاحت، وتلفّ عمامة من قماش أحمر

حول رأسها، نظرت إليّ دون أن تتوقف عن العمل. لم أستطع معرفة ما إن كانت شابّة أم عجوزاً، ولم تردّ على السلام الذي لوّحت لها به بيدي. توقفت أمام آلات صناعة السكر الضخمة في وسط الخرابة، التي تبدو وكأنها تنهار ببطء وتدفن نفسها تحت التراب. بإغماض عيني، أستطيع تخيّل الضوضاء التي كانت تصدرها حين كان المصنع ما يزال يعمل، صفير البخار المتصاعد من القدور وارتجاجات أجهزة الطرد. أسمع قرقعة العربة على السكة الحديدية، هدير المحرك البخاري، شخير العنفات التي تحوّل عصير القصب السميك إلى دبس سكر يدور حول نواة من سكر مبلوَر. أنصت لصوت العمال الذين ينادون بعضهم بعضاً، والحمّالون الذين يُفرغون حمولات القصب. أشعر في فمي بطعم عصير القصب، وأشمّ دخان تفل السكر وهو يحترق في المرجل والرائحة اللاذعة للكلس الذي يختلط مع السكر. أسمع الصرير، والبقبقة، والنقر على النحاس، والضرب بالأدوات الحديدية على الأنابيب التي تنسدّ، أشعر تحت رجلَيّ باهتزازات المصنع العامل بكامل طاقته، ارتجاج خفيف يحمل معاني الحياة والقوة والمال. فتحت عينيّ، فانقشع كل شيء ولم يعد هناك سوى السماء الزرقاء، الأشجار السامقة الثابتة، والجدران المهدمة لهذه القلعة التي لا فائدة منها، لم يعد هناك سوى الشمس التي تشعّ وحيدةً والغبار الذي تنقله الرياح.

اسمها «ليفيا» وليس لها عمر حقيقةً، ليست شابّةً وليست عجوزاً. هي من رأيت قبل قليل وأنا أتوجّه صعوداً نحو المصنع، تقوم بدفع الردم، الذي يعود دوماً، بمكنستها المصنوعة من ورق الأشجار. خاطبتها فأجابتني بالكريولية: «انتظر، فالسيد جاغان سيأتي بعد قليل!»(*). فهمت أن السيد

(*) باللغة الكريولية في النص.

«جاغان» هو المسؤول عن الخرابة. انتظرته في قاعة كبيرة فارغة كانت تُستخدم في الماضي كمطعم للعمال. وسط القاعة هناك طاولة خشبية كبيرة، وكرسيّين من آثار ماضٍ ولّى. جلبت «ليفيا» لي بصمتٍ كوب ماء فاتر. لا أعرف ما جئت أسأل عنه هنا. كيف كان هذا المكان في الماضي، في زمن إمبراطوريات السكر؟ أستطيع أن أسمّع سبحة أسماء القصب كما كتبها والدي على ورقة وجدتها بين صفحات معجمه، حفظها كذكرى من شبابه في موريشيوس.

فوتيوجو
ساندال
رين
غروس بلانش
مينيون
تاماران
ميرا
بينانج
بلاك جافا (حلوة المذاق جداً)
أوتاميتي
فيجي المخططة
مابو
كونيكيني
ترينيداد (الأكثر حلاوة)
ماك كاي
جامايكا البنفسجية
فرازر
ناتال

متى كان إنتاج السكر في أَوجِه، يُشحن إلى المرفأ بأكياس خيش، مصنّفاً حسب اللون والنوعية: أسمر، دقيق، نقي، حبة كاملة، حبيبات؟ متى كانت الرائحة الحلوة الحادة تملأ الجو كله في الجنوب حتى شاطئ البحر؟ متى كانت حركة الشاحنات المكوكية لا تتوقف؟ وأفواج النساء والرجال وحتى الأطفال تتدافع على بوابة المصنع أملاً في أن يتم تشغيلهم؟

أُخطِر جاغان من قبل، لا أعرف من قدم بسيارته وصعد إلى الشرفة المحاذية للمكاتب. طويل القامة هو، نحيف، أسمر البشرة وعيناه شديدتا السواد. يلبس على الطريقة الإنكليزية، بنطالاً خاكي اللون وحذاء أسود وقميصاً أزرق سماوياً. عرّفته باسمي فلم يُبدِ اهتماماً ولم يطرح أسئلة. تكلّم بلغة إنكليزية أنيقة فيها لكنة موريشيسية. يقوم بدوره مديراً للعلاقات العامة على أكمل وجه، فإن كنت صحفياً، أو وكيلاً سياحياً، أو شخصاً فضولياً بكل بساطة، سيقوم بعرض مشروع مدينة ملاهي «ليه مار أستيت سلو سيتي» بالطريقة نفسها: سيكون هنالك فندقٌ في الغابة ومسلك تعليمي في حقول القصب ومحمية نباتية. أراني صورة بدت لي حديثة يظهر فيها مجموعة من رجال الأعمال وبعض النساء، البعض من موريشيوس، والبعض الآخر هيئته جنوب إفريقية، يحملون كؤوساً بأيديهم في ما يشبه اجتماعاً حول مشروع «ليه مار». كان جاغان في وسط الصورة، يضع نظارات شمسية أضفَت عليه هيئة رجال المافيا، أو ربما رجل كفيف ضائع. استثار ذِكري لِـ«مار أو سونج» جاغان قليلاً. اصطحبني إلى غرفة مجاورة لمكتبه وأراني عظاماً سوداء مصفوفة في علب بلاستيكية ضمن خزانة، على كل واحدة منها ملصق يحمل رقماً. بعض العظام غليظة تعود لحيوانات كبيرة كغزال جافا أو الخنازير البرية؛ البعض الآخر بدا أكثر خفّة ويميل لونه إلى الزرقة: عظم ترقوة، شظايا من عظم فخذ، حطام أجنحة تعود من دون شكّ للقطرس البحري الكبير أو ربما كانت لطائر الأطيش.

في إحدى العلب الموضوعة جانباً أراني جاغان كنزه: عظام دودو مؤلفة من قدم مكسورة وبعض الفقرات وقلنسوة جمجمة. بدت هذه العظام أقدم مقارنة بالأخرى، تغطّيها طبقة من الورنيش الشفّاف تجعلها تلمع في ظلام الغرفة لمعاناً معدنياً. أهو القرب من ساكن الجزيرة القديم هذا ما جعل جاغان يخفض صوته؟ روى لي حياة المصنع في الماضي، في الزمن الذي كان فيه طفلاً. كلّمني عن حقول القصب التي كان يخوض فيها في مغامرات مع أصدقائه، ومطاردته لطيور الذيال الهاربة من مداجنها، وعن والده الذي عمل في هذه المكاتب محاطاً برؤساء العمال ونوابهم وممثّلي البنوك ومندوبي شركة «لونرو» و«الشوكار إيسلاند». على جدران مكتبه، رأيت صوراً قديمة معلّقة ضمن إطار من زجاج وخشب أسود يشبه الذي توضع فيه صور الموتى: «مون ديزير لا مار» في بداية القرن العشرين. تظهر في الصور الباحة الكبيرة وهي تعجّ بحزم القصب الذي ينتظر أن يوضع في أسطوانات المطحنة. ميّزت المدختنين المبنيتين بالقرميد الرمادي وسقوف الصفيح وجدران المصنع العالية المدهونة بالكلس. أمام الباب الرئيسي لمعمل السكر، وقف عمال حفاة يرتدون لباس الهند التقليدي وقمصاناً بيضاء طويلة أمام عدسة المصوّر وقد خطّت من خلفهم سُحب الدخان المتصاعد سيلاً في السماء. إنه المنظر ذاته لكن بعد قرنٍ من الزمان. لا بدّ أن والدي عرف هذا المصنع كما يبدو في الصور. أتخيّله عندما كان مراهقاً يستقلّ القطار من أعالي الجزيرة حتى «روز بيل» ليزور المباني ويسير في الحقول بعد الحصاد، حتى وصل إلى البيضة الحجرية البيضاء التي كانت تنتظره في الأخاديد. كل شيء قد تهدّم اليوم. حدّثني جاغان عن توقف العمل في المصنع وعن موته البطيء قبل عشرين عاماً. توقفت الآلات بالتدريج وغارت في الأرض، هُجرت البيوت المحيطة ونهبت. لقد عاصر جاغان كلّ هذا ولم يستطع أن يمنعه من الحدوث.

غادر العمال منطقة المزارع وأصبحوا فقراء عاطلين عن العمل. ظنوا بأن كل البيض، ملّاك المزارع، كانوا شرّيرين وفاسدين، فلعنوهم ثم نسوهم. ذهب الشباب منهم إلى المدينة بحثاً عن المال وأصبحوا عمالاً وسائقين وبستانيين. البعض منهم لم يرضَ بذلك، فاختاروا العمل في التهريب أو جنحوا وشتموا أهاليهم. معمل السكر بات كالأرض المهجورة التي لا تطؤها قدم بشريّ. نما العشب على السقوف وفي داخل المباني، قلبت الريح والأمطار الآلات وخلعت الأبواب. قريباً لن يبقى شيء من هذا الزمن الماضي، من هذا الزمن الذي دام طويلاً. في حين كان هو يتكلم بصوته الدقيق الذي يكاد لا يظهر عليه التأثر، تابعت المرأة ليفيا كنسها الأرض محاولة بلا جدوى كنس غبار متخيَّل إلى طرف الشرفة، إلى الأرض الجافة.

زواج

الأغصان الملتفّة ممتدّة كأنها سقف كنيسة. اجتمعت قبيلة دوكاس كلها في الحديقة. كان البيت صغيراً جداً، ومزرياً ربما، تجري شائعة بأن عائلة دوكاس -هذا الاسم الذي ساد في الماضي على مزارع قصب السكّر في جنوب الجزيرة من «بي دو كاب»، و«سوياك»، حتى «يونون فال»- تلفظ أنفاسها الأخيرة في الوقت الحاضر، فأزمة السكّر التي حلّت في عام 1974 دفعتهم للهجرة بعيداً. حاولوا أن يجنوا ثروة في أمكنة مختلفة، إفريقيا الجنوبية، وأستراليا، ثم عادوا إلى هنا. وبشقّ النفَس، وجد أنطون دوكاس عملاً مكتبياً في «لورنهو»؛ في حين بدأت زوجته أديل صنع الحلوى في البيت، وكعكة الليمون التي تصنعها باتت معروفة لدى كل الناس. ليس لأولادهم أيّ آفاق مستقبلية، فالدراسة في الخارج مُكلِفة جداً، ولا مكان لهم بين طبقات الجزيرة الراقية، فقد غابوا لفترة طويلة والناس نسوهم. ولهذا كلّه فإن زواج ابنتهم البكر ماتيلدا برجل أعمال أمريكي يسمى روب روسكو -يتحدّر من أصول يهودية أوكرانية ولكن، لله الحمد، هذا الأمر غير ظاهر بشكل كبير، فهو أشقر بعيون خضراء، وشكله لا يحمل أي علامة تدل على يهوديته- جاء في الوقت المناسب بالنسبة لكل أعضاء العائلة. التقى روب ماتيلدا في النادي البحري حين قصده من أجل مشروع

بناء فندق ضخم مع حمّامات ومسار غولف في «ماكونديه»، في جنوب الجزيرة مقابل البحر القطبي. من أجل تنفيذ هذا المشروع، كان لا بدّ من تغيير مسار طريق وإفراغ قرية من الصيادين الكريول الذين يسكنونها. روب أمريكي، هو إنساني إذاً، لهذا وضع شرطاً قبل البدء بالعمل: أن يؤمّن لكلّ السكان سكناً بديلاً على حساب ائتلاف الشركات القائمة بالمشروع، حتى لو كلّف ذلك الملايين.

استقبلني أنطوان دوكاس المسمّى بـ«تونيو» بنفسه. إنه مارد حقيقي، أطول من الجميع بمقدار رأسين، يداه تشبهان مضارب البيسبول وقياس حذائه 48، مليء هو بعض الشيء على مستوى البطن، لكنّه يوحي بالقوة والطيبة، وجهه عريض لفحته شمس المزارع، تضيئه ابتسامة كلّها طيبة. أمسكني بيدي كما لو كنت من العائلة، وقادني نحو العرسان من أجل التصوير. وبقدر ما يبدو تونيو ضخماً وقوياً، يبدو صهره صغير الحجم وهزيلاً. من أجل الصورة، اختار روب أن يندسّ تحت جناح حماه. من الجهة الثانية، كانت ماتيلدا، الصبية الرياضية الشقراء الطويلة الجميلة، تضحك بلا تكلف، وقفت بقربها وقت التقاط الصورة. شدّني تونيو من يدي مجدّداً بعد ذلك ليأخذني في جولة في الحديقة. توقفنا عند كلّ مدعوّ ليعرِّفه بي، يقول الأسماء، يصافح، ثم ينتقل إلى التالي:

جاكي سيمار، وهنري ولويس لو مور، وأديلاييد ونينون. أعرِّفك أيضاً على شون أوكونور، أهو قريبك من جهة والدتك؟ وهذه سيلين غورو، عائلة الغورو من «سوياك»، لا، من مكانٍ بالقرب منها اسمه «رامبل»؛ بيير فانسان من «لا لونرو»؛ وتلك الصبية الجميلة هناك، تعال سأعرّفك بها، اسمها بول غرونييه، وهي فنّانة رسّامة عاشت في أستراليا؛ وهنا أيضاً فنانة، تغني سوبرانو في جوقة «لا فاليت»، اسمها هيلين لا بار؛ تعال من هنا، أعرّفك بعلَم تاريخي في الجزيرة، أوديل دو كيرفيل، لقد كتبَت نصوصاً

مسرحية، وقد عُرضت في المسرح الكبير في «بوباسان» عندما كان في أوج مجده. تعال، سأعرّفك على كلّ العائلة، فهم لم يروا في حياتهم أحداً من عائلة فيلسن، أنت عصفور نادر، يجب أن تتأقلم مع ذلك، ولو أردت أن تقوم بجولة على كلّ الجزيرة سيتطلب منك ذلك أشهراً أو سنوات.

لمّا حان وقت مأدبة الغداء وقفنا كلّنا، وكلٌّ منّا يحمل صحناً من الكرتون بيده، وقدّموا لنا شطائر من سمك خليل البحر، وخضار مشكّلة، والكاتو الحار الذي لا يمكن الاستغناء عنه، والشامبانيا، تشكيلة واسعة تضمن لك الإصابة بوجع في الرأس مع حلول الساعة الثانية من بعد الظهر. ثم قدّموا لنا نبيذاً أسترالياً من الأنواع الرخيصة لم أكن قد سمعت به، «ريد تروك»، «بوتاني بي»، «أيرز روك». لم تشرب ماتيلدا، الرياضية المثابرة، سوى العصائر، ولكن زوجها شرب بكثرة وثمل قليلاً، وراح يُطلق نكاتاً بالأميركية تظاهر الجميع بأنهم فهموها. صدحت الموسيقا في المكبّرات، ولحسن الحظ لم تُدعَ جوقة «لا فاليت»؛ الجوقة الموجودة هنا مكوّنة من موسيقيين كريول محترفين، يبدو أن عقداً يربطهم مع أحد فنادق «غراند بيه»، ويأملون أن يكونوا في البرنامج الذي سيقدّمه «ماكوديه ريسورت» في المستقبل، اسمهم «ذا براس» أو «سان براس»، لقد نسيت. عزفوا موسيقا سيجا-أوتيل مائعة، فطلب روب أن يُقدَّم لهم شراب البانش كي تعود الحياة وتدبّ فيهم.

استمعت إلى ضجيج الأصوات، وأنا أقف منفرداً، في فيء الأغصان. انسحب المارد تونيو بعيداً عني. كان يقف على مرتفع، على طرف حقل القصب، يده مفتوحة كأنه في حالة ابتهال. فجأة، ظهر من بين النباتات عصفور صغير أحمر من نوع كاردينال. وقف على اليد الواسعة وأخذ يلتقط بذر «الكالاباش» التي حضّرها له تونيو. كان هناك شيء مذهل وغير متوقع

في هذا المشهد، وهذا الشيء هو الخلفية التي يشكّلها المحتفلون بالعرس الراقصون على أصوات مكبّرات الصوت، بينما هذا المارد الطيب يطعم العصفور الصغير. تذكرت فجأة كل ما يُقال حول هؤلاء الناس الإقطاعيين وذرّيّتهم، هؤلاء الناس العنيفون والمتكبرون الذين مارسوا سلطتهم على هذه الجزيرة لأجيال، والذين ينظر إليهم أهلها الآن وكأنهم أشباح عائدة، غيلان، أو يسخرون من مبالغاتهم ويعتبرونهم من رتبة أدنى. كيف يمكنني أن أشعر بنفسي غريباً، أنا الذي أنتمي إلى هذه العائلة، إلى هذا الإرث، إلى هذه الحكاية؟ هل يشكّل قرار والدي بالذهاب والابتعاد بكل بساطة عن كل هذا صكّ براءة؟ في هذه اللحظات تذكّرت ملاحظة زميل لي في الكلية، شيوعي مناضل، كنت قد أسررت له في لحظة سذاجة، بأصولي الإثنية، وعندئذٍ أشار لي بحركة رفض قائلاً: «أنتم من قام باستعباد البشر! كما لو كنا غير موجودين، كما لو كنا لا نملك الحقّ بأن يكون لنا مشاعر، ولا ذكريات، كأننا لا يمكن أن نسخر من أنفسنا!».

كنت ما زلت أقف بعيداً عن الجميع. لقد أتوا لملاقاتي. كنت أحمل كأس عصير جوافة بيدي، وقمت بوضع الصحن الكرتوني على كرسي. لا بدّ أني كنت أوحي بأني العنصر السيّئ، العنصر المنبوذ. تركت الصبايا شركاءهن في الرقص ليُكلّمنني. «تعال ارقص، ألم تعجبك الموسيقا؟». وددت لو استطعت أن أجيبهن بالجملة المبهمة التي استخدمها «جوزيف كونراد» متوجهاً إلى جدة إميلين: «لا ترقصي!»(*). ولكني فضّلت ذريعة وجع رأس حقيقي. هل يهتممن بي أم أنهن جئن لرؤية ذلك الذي تتداول اسمه العائلات في «كوربيب»، في «فلوريال»، أو في المخيّمات على شاطئ البحر، آخر سلالة هذا الاسم المثير الفضائحي قليلاً، والمستهجن

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

قليلاً أيضاً، الذي أكل عليه الدهر، والمرتبك مثل آخر طائر دودو؟ هل لديّ شيء يجمعني بذلك الذي اختفى، ذلك المشرّد الرائع الذي أقتفي آثاره، والذي قام برحلة العودة إلى فرنسا ولم يعد أبداً؟ ليس ببعيد عن المنزل، في وسط حقول قصب السكر، لمحت الوجوه الداكنة لأطفال الجوار، لقد جذبتهم موسيقا سيجا «سان براس». تفرّجوا على العرض، وتلوّوا وترنّحوا، ضحكوا وصفقوا بأيديهم. فلينضمّوا إلى الحفلة! ليأتوا هم أيضاً، لكي يتبيّنوا أن الحواجز غير موجودة، وأنهم أبناء هؤلاء الذين اخترعوا هذه الموسيقا وهذه اللغة! ولكن وبحركة من رجل، ربما كان موظفاً في مصنع السكر، أو من هؤلاء الذين يوصلون الشطائر والمشروبات، وإذا بكل فرقة الأطفال تهرب عبر الزرع. مرة أخرى، لن يكون للتلاقح الثقافي مكان هنا.

ملَّ تونيو ووقف هو الآخر جانباً فهو طويل وجسيم بما لا يدع له مجالاً بأن يوحي أنه يرقص، سيبدو مثل الدب إن رقص! سحبني إلى مكان بعيد. «ماذا لو ذهبنا لنقوم بجولة في الزورق؟». سيكون بعد الظهر طويلاً فلا شيء يعكّر زرقة السماء. بعد عشر دقائق في السيارة، وصلنا إلى رصيف المرفأ. زورق تونيو هو زورق صيد حقيقي، مع الصاري والعارضة، المدهونة بلون أبيض تقريباً. أدار تونيو المحرك الخارجي، محرك كبير باستطاعة أربعين حصاناً من نوع «ياماها»، وانطلق الزورق نحو البحيرة الشاطئية، في خليج «ماهيبورغ». وقفت في المقدمة لكي أشعر بشكل أفضل بالهواء البارد للبحر، وبحركة الموج الخفيف التي ينزلق عليها القارب، شعرت وكأني أركض على مرآة من الماء. مشهد المرسى يشبه بروعته صور البطاقات البريدية، أحببت هذا! هناك قامات الجبال، «لو ليون»(*)،

(*) الأسد.

«لا سوري»(*)، والمنحدر الأخضر الذي يعلو حتى السماء، حيث تتعلق أطراف الغيوم الرمادية التي تهطل مطراً على المرتفعات. ماء البحيرة أخضر اللون، والبحر وراءها أزرق غامق، وبينهما الحيد، والجزر الصغيرة التي استخدمت في الماضي البعيد كسجون، كما هنالك الخط الأسود حيث جرت في عام 1810 معركة المرفأ الكبير البطولية، آخر المعارك التي كسبتها البحرية الفرنسية قبل أن يحتلّ الإنكليز الجزيرة. أوقف تونيو المحرك للحظة. كان يقف في مؤخرة الزورق الذي مال قليلاً بفعل وزنه، وانجرفنا بصمت تبعاً لحركة الأمواج. قال تونيو: «اها؟ اها؟»، وهذا يعني: هل يمكن العيش بعيداً عن هنا؟ هل يمكن للمرء أن يستبدل بهذا الجمال أيّ شيء آخر في العالم؟ لا يعرف تونيو كيف يُركّب جُمَلَه. لقد عاش في عدة مناطق في العالم، في أستراليا، في إفريقيا الجنوبية، وفي كنشاسا، وسافر مرة إلى فرنسا، لكي يرى بلد أجداده، في منطقة «لاريبج» حيث هناك قرية يحمل اسمها. كان قد رجع من أجل هذا، من أجل هذا المدى من الماء اللامتناهي وهذه الجبال المأساوية، من أجل هذه السماء وزرقة البحيرة. عاود الزورق التحرك ببطء، طفنا فوق بقعة داكنة، مدوّرة، إنها «بلو هول»(**) الشهيرة التي لا يُعرف كيف تشكّلت ولا مدى عمقها. حدّثني تونيو عن رجل، إنكليزي مجنون بعض الشيء غطس حابساً أنفاسه ولم يصعد بعد ذلك أبداً. لا أجد صعوبة في تخيّل إمكانية الضياع وسط كل هذا اللون الأزرق، الهبوط بعيون مفتوحة والموت بهدوء على الجانب الآخر من الواقع، بعد نسيان التنفس.

وجّه تونيو الزورق الآن نحو الشاطئ، نحو مصبّ نهر «لا شو». قال لي: «سأريك الجنّة المفقودة خاصّتي». جاء بي إلى هنا لهذا السبب، لأني

(*) الفأرة.
(**) الحفرة الزرقاء.

لست من هنا، ولا أرى إلا ما يراه عادة السواح، المشاهد الواسعة الجميلة، المواقع الغريبة، مغيب الشمس الضبابي، وهو سعيد بمشاركة سِرّه مع شخص حديث العهد بهذا. لقد اختفت ضيعة «ماهيبورغ» وراء الأشجار، وكان مدخل النهر معتماً بسبب كثافة النباتات التي نمت في ظل الجسر الذي يربط بين القرية ومدينة «فيل نوار». من مكان وقوفه في المؤخرة، قام تونيو بإدارة الزورق بكل براعة، مرَّره بين الأغصان التي تسدّ ممرّ الماء والعوائق الصخرية. صعد الزورق ببطء مجرى النهر، وصلنا إلى بقعة برية في نهاية تلعة محاطة بالمنحدرات. توقف تونيو هنا. عمق المياه المنخفض والماء الذي يرتمي على شكل شلالات بين الصخور يمكن أن يؤدي إلى كسر في مروحة المحرك. ربط الزورق بشجرة وتسلقنا الجرف عبر طريق شديد الانحدار. كان الطقس حارّاً جداً، وسال العرق على وجهي وظهري. في أعلى المنحدر، وجدنا مقبرة، عبارة عن أحجار بازلتية مقطّعة، غاصت في التراب الأحمر. على بعض الأحجار، تمكّنت من قراءة أجزاء من أسماء وتواريخ. قال تونيو: «إنهم أوائل السكان من زمن دوبلكس ولا بوردونيه، إنهم الروّاد». توقف قليلاً عند قبر بحالة أفضل حيث أمكنني قراءة اسم موريس، واحد من أوائل مستعمري الجزيرة بنى ثروة من تجارة العبيد مع سلطان كيلوا. تونيو يجهل هذه المعلومة ولم أكن أرغب في التكلم عن هذا الأمر في تلك الساعة. ربّما هَجْر المقبرة، والفوضى التي أصابت حجارتها، كانا عقاباً كافياً للذين ارتكبوا في الماضي البعيد كل هذه الجرائم، التي ضاعت في غياهب النسيان. لقد لحقوا بشكل أو بآخر بضحاياهم من خلال المواراة في التراب وتكاثف الدغل والأعشاب حول قبورهم.

ولكن ليس لهذا السبب دعاني تونيو. أمسكني بيدي، ووجّهني

نحو طريق الصخرة. ابتسم ابتسامة خفيفة أضاءت وجهه بفرح طفولي. «راقِبها!»(*). حتى إنه نسي أني لا أتكلم الكريولية.

انحنى، فرأيت ما كان يحدّق به: في عمق التلعة، في النهر، في ذلك المكان المضاء من خلال فتحة في الخضار، كان هنالك بضع نساء يغمرهن الماء حتى الخصر، يغسلن الغسيل على حجر كبير ظاهر، يضربن الغسيل ويعصرنه ويغمرنه في الماء من جديد. سمعت أصواتهن الواضحة وضحكاتهن. لمعت قطرات الماء على بشرة ظهورهن السوداء، وكانت أثداؤهنّ العارية تتحرك على إيقاع ضرب الغسيل على الحجر. إنه مشهد مذهل، هنا في كثافة الغابة، يبدو لي أننا رجعنا ثلاثمئة عام إلى الوراء، مستعمران أبيضان يسترقان النظر على نساء سوداوات، ليسرقوا من جديد أجسادهنّ ولكي يستمتعوا بحياة طبيعية لم تعد موجودة. قمت، وتراجعت بضع خطوات. نظر تونيو إليّ، لم يقُل «اها؟» أمام كل هذا الجمال، مثلما فعل من قبل. لا بدّ أنه قرأ على وجهي علامات الانزعاج الذي لم يفهمه. تراجع هو أيضاً، وتعثّر قليلاً على طريق العودة، على القبور المنهارة. وفي الوقت الذي خرج فيه الزورق من عنق مصبّ النهر، شعرت بنسيم هواء البحر، فتحت عيني على سماء المغيب، على البحيرة المرجانية الزهرية الخضراء، واستمعت إلى صوت المحرك الخشن الذي يسير باتجاه المد. وصلنا إلى المرفأ، افترقنا، دون أن نتبادل الكلام تقريباً. سرت على طول الشاطئ باتجاه ساحة السوق لأركب من هناك حافلتي، ولا أظن أن أحداً افتقدني في العرس.

(*) باللغة الكريولية في النص.

ظهور

في فترة بعد ظهر عاصفة في «ريفيير نوار»، اجتمعت في مخيّم «سان ليجي» على الضفة الأخرى للنهر (يجب العبور فوق مخاضة تيمّناً ببول وفرجيني ورفع البنطال، لكن النساء لم يعدن يُحمَلن على الظهور) كل العائلات تقريباً: «السان أوغال» و«السوليفا» و«بليسي بارو» و«سان لينان» و«فلوي» و«كيرسكاو» و«كبليرو» و«أولكوك» و«دوبيسي» و«ساندرار» و«لومور». طلبت السيدة سان ليجي إغلاق درف الشبابيك منذ الصباح احترازاً من العاصفة القادمة، ولمنع الحرّ من الدخول إلى الصالون الكبير. المخيّم قديم البناء لا يشبه بشيء مكعّبات الإسمنت ذات السقوف المسطحة التي تُبنى الآن في كل مكان، جدرانه عبارة عن كتل مرجانية رمادية طُيِّن بعضها ببعض بالكلس، سقف الجملون مصنوع من صفيح متموّج صدئ قليلاً، طلبت السيدة سان ليجي تغطيته بأوراق كاذي نافع تربط إلى العوارض، تُغطَّى بشبكة أقفاص دجاج لمنع الجرذان من التعشيش فيها والهواء من اقتلاعها. المكان معتم ورطب وبالطبع لا وجود للتكييف، أو للهواء المعلّب كما تسميه السيدة سان ليجي. لا تتصل الجدران بالسقف تماماً، تاركة مساحة للهواء أن يعبر من خلال المنزل. خُطط لهذا اللقاء قبل وقت طويل وأعلمني به فيليب لودوك، ابن عم لي

من موريشيوس يدرس الموسيقا في معهد باريس للموسيقا. لحسن الحظ صادف موعدَ اللقاء هبوبُ العاصفة. لاحظ السيد ليجي أن مقياس الضغط الجوي كان يشير إلى رقم يتجاوز الـ 850، وهي إشارة لا ريب فيها، كما أنها مصادفة حسنة، فهل يمكن التواصل مع الأرواح في طقس مستقر؟ الإعلان على الإذاعة وفي الصحافة أن رياحاً عاتية ستضرب المنطقة اليوم أدّى إلى فراغ الشواطئ من مرتاديها. لن يكون هنالك صرخات أطفال مزعجة نخشاها ولا لعب بالكرة، ولا حتى راكبو الأمواج لابسو الألوان الصارخة البشعة (التعبير هذا يعود للسيدة ليجي) الذين يلوّثون جزيرتنا بحركاتهم، ويطلقون العنان لأصوات مذياع سياراتهم عبر نوافذها المفتوحة! إنه اليوم المناسب، شيء ما سيحدث، أحدهم سيتكلم.

لم تأتِ لاسوركوف! يقال إنها لا تؤمن بالله ولا بالشيطان. نعم، بالطبع، لمَ عليها أن تأتي إلى هنا؟ فبإمكانها أن تكشف الخداع والطاولات الزائفة والمتكلمين من بطونهم، كل شوربة القطط تلك التي تقدّم باسم «أليفا ليفي» على أنها شاي بالفانيلا. أو ربما هي مؤمنة حقيقية وتخشى أن يظهر قرصانها المسمى «العائد» الذي سيحلّ أربطة كفنه لينظر مباشرة في عيني سليلته المسكينة ويجعلها تخفض عينيها وتصمت!

مخيّم «سان ليجي» يعجّ بالنساء. أيعني ذلك أن الرجال ليس لديهم إيمان؟ هم مشغولون بمتابعة أعمالهم. من لديهم أعمال على الأقل. استأذن آخرون بالانصراف للذهاب إلى النادي والإبحار بالقوارب الشراعية إلى الجزر الشمالية أو لعب التنس أو الغولف، أو حتى الذهاب في موعد غرامي. البعض الآخر ليس لديه متسع من الوقت بكل بساطة، فهم مشغولون بالعمل في المصارف أو في مكاتب «لونرو» أو في المنطقة الحرة. قلة وافقت على مرافقة زوجاتهم مثل العجوز «جوزيف ماران» الذي لا نعرف ما يؤمن به وما ينتقد، نعرف فقط أنه مخلص لقضية زوجته

آماليا بريساني غريبة الأطوار، التي سبقت عصرها في الدفاع عن البيئة، والتي يقال إن أعظم إنجازاتها هي حديقتها الرائعة التي تروي تاريخ الجزيرة النباتي منذ زمن اللبلاب الليفي ذو اللحاء القاسي حتى أكثر أنواع السحلبيات هشاشة مثل «الكاتليا» المستوردة من البرازيل. وكان فيليب لودوك قد أتى مدفوعاً بنيّة طيبة. هو أيضاً يشارك في أول تجربة روحانية له.

بدأت الجلسة بصمت، وحده همس العاصفة التي ما زالت بعيدة كان يصل عبر الدرف المغلقة. اكفهرّت السماء فجأة واتّشحت بالسواد لدرجة أنه لم يعد هنالك نور في القاعة، كما لو أن الشمس قد كُسفت. نزولاً عند رغبة منظمة الاحتفال، أمسكتُ يد أماليا بيمناي، ويد شابة خلاسية لا أعرف اسمها بيسراي. بدأت سان ليجي قول تعاويذها عقب ذلك. لم تكن تتكلم، بل تُتمتم وتغمغم جُملاً بلغة لا أعرفها، ميّزت فيها بضع كلمات باللاتينية واليونانية وبعض آخر بالعربية والعبرية، ربما كانت مأخوذة من كتاب طلاسم «سويدنبرغ». مالت السيدة ليجي إلى الخلف على كرسيّها البلاستيكي وبات صوتها حاداً، نوّاح تقريباً، نبرته لاذعة وقارصة تبعث على القشعريرة على الرغم من حرارة الغرفة الخانقة. توقفت عن الهمس وعاد صوتها لطبيعته. طلبت منا أن نبسط أيدينا على الطاولة. الطاولة مدوّرة ومصنوعة من خشب البلوط الخالص، يحمل ترسها آثار نقر وبقع، تبدو كطاولة مستعادة من حطام سفينة، أو عائدة لإرث بعيد جاء بسفينة من أحد الأقاليم الفرنسية، ربما كانت طاولة كاتب عدل أو طاولة كنسية لكاهن من الريف، خشبها أملس بارد كالمعدن، ثقيل وغامق. تقوم سان ليجي الآن بترديد ندائها دون أن تلتفت، عيناها تنظران أمامها مباشرة. بعد أن أغلقت جفنيها، أخذ وجهها الشاحب يحوم في الظلمة فوق مئزرها البنفسجي. نادت بشكلٍ متقطع: «روح... روح!». كان الصوت يلحّ ويقارب ما بين نداءاته بتسلُّط تارة وبتزلّف تارة أخرى: «روح... روح!». في الخارج،

وصلت ريح العاصفة التي باتت تطرق درف النوافذ، حاملة معها صوت هدير أمواج البحر التي تتقدّم ببطء على الشاطئ الأسود وصوت عزف الهواء على أوراق «الكازارينا الكنبثائية». أهنالك شيء ما يتحرك؟ أستطيع سماع أزيز تنفس السيد ماران الذي أصابته نوبة سعال حاول كتمها بمنديله؛ شعرت بأماليا تهمس في أذنه شيئاً دون أن تفارق أيديها الطاولة. ظلت أصابعنا ملتصقة بالترس كما لو أن قوة داخلية كانت تضغط عليها وتبسط أطرافها التي باتت عريضة النهايات كأصابع أبو بريص. طرحت سان ليجي أسئلتها بصوت متموّج يتراوح بين الجهورية والحدية. «من أنت؟ من أين أتيت؟ ما اسمك؟ أأنت لوفاسور؟ تكلّم، أسمِع جوابك للمتحلّقين حول الطاولة، من أين أتيت؟». طغى صوت طرق الدرف وحفيف الأوراق التي تغطي السقف على صوتها. دخلت نسمة دافئة من الفتحات في أعلى الجدار، في حين كان نور السماء يترنح في الخارج. هو ذاته، هو ذاته. رنَّ صوت القرصان في القاعة واسم «لوفاسور»، المشهور بـ«لا بوز»، واسم «كلونديك»، الشركة التي أُسِّست في الماضي للبحث عن كنزه. ردّدت الأسماء من قبل السيدات، الواحدة تلو الأخرى، بدءاً من سان ليجي حتى جارتي أماليا ماران. كنت أسمع تسارع تنفس جوزيف، رجل الأعمال العقلاني المتعنّت الذي يدير شركات سكر عمرها مئة عام، وهو يحاول الانخراط في الأمر إلى جانب زوجته. حاولت قراءة تعابير الوجوه في العتمة، ولاحظت تشنّج الأيادي الملتصقة بالطاولة، والتي أخذت إما شكل قبضات مشدودة بإحكام أو باعدت بين أصابعها حتى ابيضاض لون المفاصل. هل يمرّ تيّار من هنا؟ شيء ما يهتزّ في يدي، في رجلي. أشعر بقطرات العرق تسيل على جبهتي وأضلاعي. من شدة التعرّق، التصقت خصل شعر النساء الرمادية على خدودهن. صاح الصوت قائلاً: «راهو! راهو!». بدا الصوت آتياً من الخارج، من الدغل

الذي هيّجته الريح. «ران! رام! را آن! راهونا». صاح بصوت عريض، صوت بحري أو نهري، صوت أحاط بنا وجعل صرير الدعامات الخشبية وأوراق الكاذي نافع وأقفاص الدجاج مسموعاً. انبعثت في الوقت نفسه رائحة مجهولة، رائحة خارجة من الأعماق، رائحة مياه وأعشاب بحرية متحللة. في الخارج، تابع الصوت بغضب قول هذه الأسماء التي لا جسد ولا ذاكرة ولا معنى لها: «رامان، راهان، راهونا، راشام، أراشام...». أفلتُّ الترس الخشبي الأسود، وأخذت أكتب الأسماء كما حملتها الريح، لكن قلم الحبر الناشف أبى الكتابة في الظلام، إذ كان يعلق بأوراق الدفتر ويترك ندبات وثقوب. لن يبقى شيء! يضغط الهواء في الخارج بقوة أكبر على الدرف، هبّات نشطة وطويلة أتت من عمق الخليج صعوداً باتجاه مصبّ النهر، لامست قمم أشجار الكاذي. بين هبّة وأخرى هطلت حبات مطر، نقرت على الأوراق وانسلّت عبر فواصل الجدران مشكّلة سيلاً أسود لطّخ هيكل السرير، وغمرت مياه باردة أرجل الطاولة، مياه لونها كالدماء، مياه ملعونة. من الجانب الآخر للجدار، سمعت صوت ماريزيه، خادمة السيدة ليجي الرودريغية(*) المسكينة تنتحب في مطبخها مرعوبة من طقوس سيدتها. كانت أيضاً غاضبة من عوامل الطبيعة، كانت ربما تصلي صلاة الموتى، ترنيمة المصاعد، فقد أوشكت نهاية العالم. لم يعد أحدٌ ينادي أحداً. نحن نعلم جيداً أن «لو ميم» و«سوركوف» و«لا بوز» لن يأتوا. لم يستطيعوا استغلال قوة الريح وعلقوا في البرزخ، أو أن لا رغبة لديهم في العودة. إنهم يرقدون في قبورهم هناك على الجانب الآخر من البحر في «سان سيفران»، في مقارّ قيادتهم في «شازال» و«كاربون» و«دراجانفيليه»، أو في مقابر المحكومين بالإعدام شنقاً الجماعية في «بوكان كانو». كلنا، رجالاً ونساء، كنا صامتين ورؤوسنا ترنو نحو الطاولة الصامتة، أيدينا

(*) نسبة لجزيرة رودريغ التابعة لجزيرة موريشيوس.

مستندة على الخشب، وأرجلنا تغمرها مياه الأمطار، وأرواحنا طافحة مثلما يطفح المركب الغارق بالضوضاء وبريح العاصفة. في وسط هذا السكون الصاخب، باتاترا! سمعنا صوت كسر زجاج قوي يشبه صوت الرعد في قاعتنا المغلقة هذه بين البيانو غير المدوزن والتمثال النصفي المنحوت في الجص لـ«سان جاندارك ادوميريمي». لقد انقلبت خزانة الأواني تحت قوة الريح وتبعثرت على الأرض الأواني من ماركة كومباني: الصحون الثمينة، صحون الشوربة والصلصة، وصحون المقبلات، وزبادي عصير التفاح، وفناجين الشاي، وأغطية الطاولة، وخواتم المناديل، كل ذلك تكسّر وأصبح ألف قطعة. لم تستطع ماريزيه البقاء في مكانها، قفزت إلى القاعة ممسكة بمكنستها ومجرودها، شقت طريقها بين النساء الجافلات: «يا سيدتي! ما العمل؟ إنه شيطان يا سيدة ليجي، مصيبة كبيرة، هذا من فعل شيطان غاضب يا سيدة ليجي». «كفاك تراهات ماريزيه، تعلمين جيداً أن لا شياطين هنا!». «ماذا تسمي هذا إذاً؟ هنالك شيطان هنا، شيطان الريفيير نوار يا سيدتي. لقد أتى وكسر كل شيء، لا بدّ أن غضبه شديد!»(*).

سأقول لكم ما كان أكثر إثارة للدهشة في كل هذا، ولكم ألا تصدّقوني إن أردتم. في اللحظة التي انقلبت بها خزانة الأواني مُحيلةً إرث سان ليجي الثمين إلى غبار، توقف عصف الرياح وبثت الشمس أشعتها المضيئة من خلال الدرف والفتحات في أعلى الجدار، وعبر جزء من السقف اقتلعته الريح بصفيحه وأوراق كاذيه، كما لو كان قطعة من فروة رأس. خاب ظن فيليب لودوك، فقد كان ينتظر ظهور شومان. لقد ظن للحظة أن لوحة المفاتيح القوطية الجديدة ستعزف علامات مقطوعة موسيقية غير معروفة، أو ربما الاقتباس النهائي للأغنية الاسكوتلندية «أولد لانغ سين» التي ألّفها شوبير وكتب كلماتها روبرت بيرنز. المدعوون الآخرون، وخصوصاً

(*) باللغة الكريولية في النص.

النساء، كانوا ينتظرون إشارة تدلّهم على المكان الذي أخفى فيه القرصان كنزه أو وصيته المختفية التي كتبها بدمه على ظهر سفينة «لا فورتون»، عندما قبض عليه الإنكليز سكران قبالة سواحل «غولكوند».

أما بالنسبة لي، فقد انصرفت مثل سارق واضعاً في جيبي قطعة بورسلين مكسورة، ما يشكّل عُشر صحن مرسوم عليه باقة من الورود اليابانية أو الصينية. كانوا يحبّون الورود كثيراً أيام الرِّقّ! رمل الشاطئ الأسود كان ناعماً جداً، عبرت من فوق مخاضة النهر البارد التي كانت يطفو عليها الحطام الذي خلّفه الإعصار الصغير من أوراق الأبنوس الشرقي وشجر التاكاماكا. في البعيد كانت الغيوم تحجب أعالي «الريفيير نوار». كل شيء الآن عاد إلى سكونه بعد نوبة غضب ساكلافو الكبير، للأسف!

قصة ساكلافو

أنا العملاق الذي لا يكذب؛ من يقاتل دوماً تحت بيرق الحرب الأحمر، من يعود، فأنا أعود من خلال الريح، العواصف، الحرائق، أعود لأنتقم. لا أخشى بنادق الميليشيات ولا كلابهم ولا عبيدهم، لا أخشى إلههم ولا أخشى ملكهم ولا جيشهم. حين يأتون لملاحقتي في الغابة، أُغلق أبوابها بالأغصان، وأنصب أفخاخاً مسمومة تحت أقدامهم، وأطلق عليهم أرواح الجبل وأطياف الموتى، إذ لي القدرة على التحكّم بالأرواح. أشبه القدماء، ألبس وجوههم وثيابهم وأتنفس نفسهم، لذا أنا خالد لا تؤثّر فيّ رصاصات بنادقهم، ولا تقهرني فُكوك كلابهم.

آه، ليس لي والد أو والدة ولا أخ ولا أخت، ليس لي قرية ولا وادٍ هناك في «لا غراند تير»، لأن لا وجود لمسقط رأسي. أنا من هنا فقط، من هذه الغابة، من جداولها ومستنقعاتها، ولدت من روح البحر، تعتمل فيّ قوة الأمواج وسلطان الملح، يسري في عروقي نسغ الأشجار والنباتات ودماء الخنازير البنّية، نار نبيذ النخيل ورطوبة الغيوم ومياه السيول.

«تسراتاتانا»، «ماساهالي»، «أنتجوين»، «مارونافي»، «فوهيبي»، وأنت نهر «مانانها»، أنتم أسمائي التي حملتها معي حين شُرذِمَت عائلتي وحُرِقَ منزلي. أدعى أيضاً بأسماء السفن التي حملتنا في بطنها: «لوازو»، «لا بيل

بول»، «لو كونكيران»، «لوروفونان». كما أدعى باسمي «فول بوانت» و«ماهافيلوما» الملعونين، حيث حُبسنا في سجون العبيد. تلك هي الأسماء التي قتلت أبي وأمي وباعت إخوتي وسبَت أخواتي عاريات لتسليمهن إلى التجار العرب في جزر القمر ومايوت.

أنا العملاق الذي لا يكذب، عدت كي أطفئ ظمأ الانتقام في صدري، وأشرب من دماء من حنثوا بالقسم، كي أكسر رقابهم وأبتر قضبانهم، عدت كي ألعن من خذلني وتركني وحيداً. ليس لي اسمٌ ولا أبٌ ولا أمّ، ولدت في قعر بطون السفن، ولدت من رحم حرارة الشمس التي تحرقنا في الحقول، والقصب الذي يلسع وجوهنا، والسجون المبنية بالحجارة السوداء، والسلاسل التي قيّدتنا كلّ اثنين معاً تحت لسعات السياط وعضّ الأصفاد. ولدت وسط قطيعٍ من ماشية برؤوس بشرية وأجساد لامعةٍ عارية، بلا مسكن تحت المطر البارد في ضباب الشتاء، في الوديان المظلمة والآبار الحجرية.

أحمل في داخلي السهول الخضراء الواسعة حيث ترعى الجواميس التي غطّت الأرض من الجبل حتى البحر، ذلك السهلَ الأخضر الذي يأوي شعبي تحت حكم «شيمانوبو» العظيم ملك «ساكلافو» قبل موت «راميني» وخيانة «بويونا». حين باعونا، مشينا حليقي الرأس وجُرِّدت أخواتنا وأمهاتنا من ملابسهن كالعبيد، وضعن في سجون البحر ومن ثم في السفن التي أخذتنا بعيداً. أحمل في داخلي لون الدم الذي سال على الأرض، موت إخوتي وذلّ أخواتي. أعرف بأني لن أراهم مجدداً، فلم يعد لدينا أرضٌ ولا منزل. عرفت صوت ضرب المدافع، هذه النار الجهنمية التي تقتلع وجوهنا وتحرق محاجر أعيننا. أحمل في داخلي انتقام إخوتي وأخواتي، انتقام أرضي المنسية لكني لم أعد أُدعى بأيّ اسم، أنا ساكلافو.

برا دو

أهو سقف نزل السيدة باتيسون الذي يُصرصر بفعل قوة الرياح؟ أشعر بأن أيامي هنا قد شارفت على الانتهاء، وقد حان الوقت لأفتح صفحةً جديدة، أن أذهب بعيداً، أن أعود إلى الأماكن التي أعرف، باريس، نيس، وليس لما هو مقدَّر لي. لست متصلّفاً لأدّعي بأن لي قدراً، لكني أؤمن بأن لا وجود للمستقبل. المستقبل أحمق، نقطة عمياء في عيني، ما سأتركه هنا هو ستارة مسدلة على مشهد سيتابَع من دوني. كلّفتني إميلين كارسيناك بلعب هذا الدور الأخير. على الرغم من عمرها المتقدم، كانت هي الوحيدة التي فهمت السؤال الذي ما فتئت أطرحه منذ وصولي إلى موريشيوس. قالت لي: «اذهب إلى برا دو. اذهب لترى المكان الأكثر ظلاماً في تاريخنا نحن البيض. اذهب لتراه وقل لي، أو بالأحرى اكتب لي عما ستجده، عما ستشعر به». تبدو بهيئة مهيبة وهي جالسة مستقيمة الظهر على كرسيّها الخشبي، في حرارة منزلها الذي تسميه «القيء». إميلين العجوز التي جعّد بشرتها قرنٌ من التعرض للشمس هي آخر من عاش في ألما بالقرب من المنزل الكبير قبل أن ينهار كل شيء من حولها، قبل شقّ الطرق وبناء الجسور وإطلاق المشاريع وتجفيف المستنقعات وبناء أسوار من الأسلاك الشائكة، قبل أن توضع تلك اللافتة الكريهة والسخيفة «تعالوا

اسكنوا في جيريكو»(*)، المصوَّر عليها عائلة مشرقة تقف أمام خلفية من حدائق معلّقة بابلية. لـمَ هذا الاسم؟ «سترى التجار يعزفون بمزاميرهم عالياً لدرجة أن كل شيء سينهار!».

قامت برسم مخطط للطريق الذي سأسلكه، بالإشارة طبعاً، فقد مضى زمن لم يعد فيه من قلم في هذا المنزل. «اسمعني جيداً يا جيريمي، أنت تعرف البروز الصخري الذي يبدأ من ألما ويعبر الغيوم في وسط حقول القصب التي تعتقد أن لا نهاية لها. حين كنا أطفالاً كنا ننظر إليه بعيون تملؤها الرغبة لأننا كنا نعلم بأن عند نهايته يمكننا رؤية البحر».

أحاول العودة بالزمن إلى حين كان والدي بعمر التاسعة. كانت إميلين حينذاك ناضجة، نما لها صدر وشعرها كان كستنائي اللون وطويل، عيناها لوزيّتان وتقوُّس حاجبيها واضح، أنفها أعقف كما هي حال أنوف ساكني ألما، ورثته من سيبيل ابنة أكسيل فيلسن. كانت تملك تأثيراً على كل أطفال الجيران، البيض والكريول منهم، لأنها فقدت أباها وتعيش وحيدة مع أمها في المنزل المهترئ ولأنها ستتزوج قريباً، في الوقت الذي اختار فيه الجميع المنفى في «سان بيير» و«كريف كور» أو «كوربيب» و«بور لويس» أو حتى أوروبا لمن كان لديه المال الكافي لذلك. يتهيأ لي أني أسمعها وأراها كما كانت في ذلك الوقت، على الرغم من قذارة البيت وأرضيته المبقّعة والزجاج المعتم ورائحة العجائز الحامضة التي تملأ المكان.

«ماذا هنالك في برا دو، يا عمّة؟ لِمَ تريدين إرسالي إلى هناك؟».

غصّ صوتها فجأة. أسرعت في الكلام فتدافعت الكلمات في فمها، ربما بسبب عدم التصاق طقم أسنانها بلثتها جيداً، أو لأنها المرة الأولى التي تتحدّث فيها عنها، أو لأنه لا أحد في موريشيوس يتكلّم بالأمر معها أو

(*) أريحا.

يريد سماعها: «هذا سجن السود يا جيريمي، سجن العبيد. لقد دُمِّرت هذه السجون في كل أنحاء الجزيرة إذ لا أحد يرغب في رؤيتها، أتفهم؟ ليست لأنها تثير خجلنا، بل لأنها مزعجة وتشغل مساحات واسعة لم يستطيعوا تجميلها وتحويلها لمخيّمات للسياح. حوّلوها لأكوام من حجارة قديمة تملؤها حفر موزعة في كل مكان. هي منافٍ حُفِرت في الماضي حتى لا يفكر أحد بهم، قبل أن يؤخذوا ويشنقوا في سجن بور لويس، حفرٌ جُعلت حتى لا يسمع عويل وصراخ النساء والأطفال، كي يجري دفنهم أحياء!».

احتدّت إميلين للحظة ثم هدأت. كل هذا أصبح بعيداً الآن وامّحت تقريباً آثاره. لم يبقَ سواها تحفظ ذكرى هذه الخرائب الشبيهة بأهرامات من حجارة سوداء بلا اسم ولا تاريخ ولا فائدة، التي تنتصب في وسط حقول القصب. ما الذي تتأمله؟ لم تعُد إلى «برا دو» منذ كانت مراهقة في الخامسة عشرة، لمّا، في ذلك الزمن، خرجت بصحبة مجموعة من الفتيات يلبسن فساتين خفيفة في سيران إلى شاطئ البحر، على كثبان الجازورين، للالتجاء بالريح التجارية من وطأة حرارة كانون الأول. رافقهن ولدان أصغر منهن سناً، والدي كان أحدهما. حمل الولدان أباريق الشاي الصينية في سلالهما القصبية المبطّنة وعلبة من حلوى الزبيب. لم تسبح الفتيات، بل بلّلن أقدامهن بالأمواج المُزبدة، وصرخن حين هدّد الأولاد برشّهن بالماء. هبَّ الهواء وشعّث شعورهن وصفق في أثوابهن. لم تكن تسبح الفتيات في البحر في ذلك الزمن، لقد كان ذلك يشكّل خطراً عليهن كونهن لم يكنّ يعرفن السباحة. كنّ يذهبن إلى مصبّ النهر لتغطيس أرجلهن بالماء ويبقين في ظل شجر الجازورين، ينمن قليلاً، يلعبن الورق، يتحدثن. أفلتت إميلين من رقابة السيدة لاغاديك، المربية البريتانية، وتبعت مجرى النهر حبّاً بالمغامرة. رافقها والدي الذي لم يكن يخشى المغامرات فقد كان يهوى اكتشاف الغابات. شدّته إميلين من ذراعه: «هيّا

تعال يا ألكساندر!». لم يكن يخشى الغابة فهو ليس تابعاً كالآخرين. مع ذلك تسلّح بعصا تحسُّباً من ملاقاة أحد من «لي مارون» في الغابة.

روت إميلين هذا كلّه بصوت خافت كما لو كانت تتحدّث لشبح. قالت: «سنقوم بصيد القريدس يا ألكسندر»، تنساب المياه سقوطاً على الصخور السوداء محوّلة النهر إلى خيط ماء نحيل. الأشجار هنا شاهقة تنمو جذوعها باستقامة لأن رياح البحر لا تصلها. بلّل التعرّق ثوب إميلين وألصق شعرها بخدَّيها. أزيز الناموس يُسمع بوضوح هنا. مشى ألكسندر في المقدمة منحنياً قليلاً كما لو كان يترصد فريسة. فجأة، من بين الأشجار التي تغطيه، ظهر برج أو بالأحرى بئرٌ محاط بجدران سوداء عالية لا سقف لها ولا شبابيك. لاحظا فتحة على جانبه، عبارة عن درج مهدّم مظلم يخرج منه هواء بارد. تجمّد الطفلان في مكانهما وقلباهما يخفقان بقوة، ومن ثم عادا أدراجهما عدْواً، ينزلقان على حصى الجدول حتى وصلا إلى البحر.

«إنه سجن السود يا جيريمي، هنا كانوا يُسجنون من أجل لا شيء سوى أنهم تكلّموا بصوت عالٍ، أو سرقوا حبة مانجا، أو ناموا في الحقل أثناء الحصاد. لقد دُمرت كل سجون السود ولم يبقَ سوى برا دو، لقد نسوه في الغابة، إنه باب يفتح على الجحيم».

أنا من يزحف الآن نحوه، لكني أسلك الطريق بالاتجاه الآخر من «بوست دو فلاك» حتى الداخل، مروراً بالطريق الجديد الذي يتعرج عبر التلال، من ثم سلكت أحد الدروب عبر الغابة حتى وصلت إلى جدول «سيفريت». لمحت في البعيد البرج الأسود المرمّم أو ربما المنظّف، الأنيق الذي أصبح من دون شك نقطة جذب سياحي. جُهِّز المدخل بباب حديدي لم يكن موجوداً في الماضي. تذكّرت مباشرة لدى دخولي البرج سجنَ «المينا» للعبيد، أشهر تجمُّع لتجار الرقيق في غانا، وذلك بسبب قطع

صخور البازلت الضخمة الخام، وبلاط الأرضية المعمول بحجارة بيضاء عريضة حتّها الماء والريح وأرجل السجناء الحافية. في أسفل الدرج هناك بئر مياه سوداء يعجّ سطحها بالحشرات. على الجانب الآخر من الطريق، هناك أبنية معمل السكر المهجورة والتي اجتاحت جدرانَها المهدمة جذورُ نباتات. في الخلف، أشجار مانجا برية تنمو بكل حرية داخل الباحة.

لم يعد هنالك شيء في هذا المكان، حتى السكون الذي أرهب إميلين ووالدي في الماضي لم يعد موجوداً، فالشاحنات والسيارات تصعد الطريق وتبثّ ضوضاءها الخانقة. تبدو الآن أكثر وحدة بالقرب من عالم الحداثة، تشبه حسكةً مريرة تشقّ جلد عصر اللهو والمال الناعم جداً، كما لو كانت تكشيرة بشعة.

لم أعد أسمع ضجيج الطريق في قعر البئر. جدرانه عالية ومستوية ولا تدع مجالاً للتسلّق. بعد أن يغلق الباب (البوابة الحديدية أو ربما باب خشبي ثقيل مزوّد بمزلاق) يصبح من المستحيل الخروج من البئر. شيئاً فشيئاً يمتلئ البئر بجَزَع المسجونين وبأصوات أخرى أكثر بعداً وأكثر قوةً، مثل الأنين المتزايد وضيق التنفس وصرير احتكاك الأظافر بالجدران. التشابه مع سجن «مينا» أصبح واضحاً لي. إن نظرت على مستوى عيني، أستطيع تمييز الآثار، الخطوط الشاقولية، أو في مكان التقاء الطوب ببعضه، نقط مثلثية نتجت عن الطرق بحصى مدبّبة لحفر درجة على السطح الأملس. أكان ضجيج الطَّرق هذا يهدف لإراحة قلب السجين فتنعم عيناه على الأقل بالفرار؟ السماء ليست زرقاء في أعلى الجدار -كم كان ذلك ليكون فظيعاً لو كانت زرقاء- ليس للسماء لون، تشبه المربع المفتوح في سقف سجن «بور لويس» الذي كان ينظر إليه المحكوم بالإعدام قبل أن تُفتح الفتحة تحت أقدامه وتدق عقدة الحبل عنقه.

ليزار(*)

أنا دودو، مجرد دودو(**)، ولكني أستطيع أن أُضحك الناس، ولهذا ولدت. إنه الشتاء، والطقس بارد، أرتدي معطفاً عسكرياً قديماً وجدته في القمامة، كنت واقفاً في الساحة. أنا متأكد أن بشير يعجبه أن يراني بهذه الثياب، لأنه خدم في الجيش الفرنسي ويقبض راتباً تقاعدياً، أو أنه يظن أني أشبه فزاعة الطيور. في هذه الفترة عملت لصالح صاحبي الملاهي الجوّالين، وصلوا إلى الساحة، في جوّ خريفي حين يعصف الهواء بأوراق الأشجار. كانت لديهم شاحنات كبيرة نصف مقطورة، وكذلك عربات سكن من كل الألوان تلمع أسماؤها:

راجــا

علي بـابـا

لـونـا بـارك

مـون أوبـــرا

بـيـنـغـو!

صدحت الموسيقا عالياً. كان هنالك حلوى غزل البنات والتفاح

(*) تعني السحلية بالفرنسية.

(**) باللغة الإنكليزية في النص.

الأحمر والعوّامة، و«لي برالين»(*)، وغيمة من الروائح التي تفوح فوق الساحة. تذكرتِ حين كنت أذهب مع أبي إلى «الشان دو مارس»، كنت ما زلت صغيراً، أرفع رأسي لكي أنظر إليه، وهو يمسك يدي ويشدّ عليها وهذا يؤلمني فعلاً. كنت أقول له اتركني، ولكنه لم يكن يترك يدي، كان يخاف أن يضيّعني وسط الجمع. اشترى لي كعكة مفلفلة، ذهبنا بعدئذٍ لرؤية الأحصنة. اليوم مشيت في الساحة، وسط مقطوراتهم، ونظرت إلى منصّات العرض، وسألت: «هل تحتاجون أحداً؟». سخر أصحاب الملاهي مني، بسبب سحنتي، ولكن رجلاً قصيراً، شعره كثيف أسود ومجعد جداً، اسمه سكامبورلو، أشار لي. قال لي: «ماذا تعرف أن تعمل؟». عندئذ أريته لعبتي التي تقوم على لحس عيني بطرف لساني. قلت له: «أعرف أن أقلّد السحلية، أترى؟». أضحكه هذا وأضحك الآخرين، فكرّرت الحركة، وراح الكل ينظرون لأنهم لم يروا مثل هذا في حياتهم. وهكذا عيّنني السيد سكامبورلو لكي أكون مهرّجاً، أعطاني لباساً أخضر: سترةً وبنطالاً، وحذاء أخضر. وقفت أمام كشك اليانصيب الخاص بالسيد سكامبورلو دون أن أفعل شيئاً إلا لحس عيني من وقت إلى آخر. وفي المساء، كان يعطيني ساندويشاً وليموناضة لأن المرض لا يسمح لي بشرب الكحول. أعطاني نقوداً أيضاً، إنها أول مرة أحصل فيها على نقود من عمل في حياتي. لم أفعل شيئاً غير هذا، كنت أقف عند كشك اليانصيب، وصوت سكامبورلو يلعلع في المكبِّر ليدعو الناس بجمل لطيفة: «تعالوا، سيداتي سادتي، اقتربوا اقتربوا، الرجل السحليّة الوحيد الحقيقي، يقدر أن يلحس عينه بلسانه، أيها الاطفال الصغار لا تخافوا، الرجل السحلية لا يؤذي، إنه يأكل فقط الذباب والحشرات!». ولكن الأطفال الصغار خافوا، واختبأت ساشا، الطفلة الصغيرة ذات الثلاثة أعوام، ابنة عامل في الملاهي، وراء أمها. لو

(*) نوع من السكاكر.

نزلت عن المنصة فستأخذ بالبكاء، لهذا لم أعد أنظر اليها. أخرجت عندئذ رأسها من وراء ساقي أمها ونظرت إليّ، عيناها سوداوان تبرقان، شعرها أسود غامق ووجهها جميل جداً، إنها صينية على ما أظن. في مساء يوم آخر، بعد العمل، جاءت أمها، وأعطتني رسمة وقالت: «تفضّل، ساشا رسمت هذا من أجلك». طويت الرسمة التي هي عبارة عن سحلية كبيرة خضراء، ووضعتها في كيسي، لأحتفظ بها دائماً كذكرى من ساشا.

وهنا تعرفت للمرة الأولى على الفتاة ذات الشعر الأزرق. لا أعرف اسمها، لكني أعرف فقط أنها صمّاء، لأنها لا تستطيع الكلام إلا من خلال إشارات بأصابعها، وعندما أكلّمها تقوم بإغلاق عينيها نصف إغلاق وتضحك قليلاً. ليست بالجميلة، قوامها ممتلئ بعض الشيء، ترتدي بنطال جينز وسترة من البلاستيك، بشرتها متعبة بفعل الشمس والبرد، وكذلك بفعل النبيذ، فهي تشرب جرعات كبيرة مباشرة من فم الزجاجة مثل الرجال. أحبُّ عينيها الزرقاوين، وكذلك لون شعرها. شعرها القصير وهو من خلف رأسها أسود اللون، أما من الأمام فلها خصلٌ طويلة مصبوغة بالأزرق تربطها أحياناً بربطة. عملها في الملاهي يقوم على غسل الشاحنات، أو إعادة ترتيب الأدوات في الصناديق، ولكنها لا تعمل لصالح سكامبورلو. رئيسها هو ذلك الشخص الذي يدير كشك العوّامة والغوفر (نوع من الحلوى)، إنه رجل بسيط وطويل، رأسه على شكل حبة ملفوف، يحتوي ثنايا في كل مكان وأذنين كبيرتين. عندما ينتهي النهار يذهب الجوّالون للنوم في مقطوراتهم، وتبقى الفتاة ذات الشعر الأزرق خارجاً، إذ تستقر في كوخ من الكرتون وراء الشاحنات لكي تتقي البرد، وكذلك كي لا يراها المارون في الشارع، فالشرطة تقوم بدوريات وتقبض على المشرّدين. هنالك كلاب مربوطة بجنازير إلى جانب المقطورات، أنا أخاف الكلاب لكن الفتاة تستلطفها، تجلس معها وتلمسها، أما الكلاب فتلعق وجهها.

انتظرني بشير في مكان أبعد، عند المنعطف القريب من الطريق السريع، ذهبت معه إلى مقهى، حتى لو لم أكن أشرب القهوة وهو لا يشرب الكحول. استهلكنا بعضاً من دخلنا وأراد أن يعلِّمني لعب الورق. قال لي: «إن الجوّالين يستغلّونك يا عزيزي!». هززت كتفي. حتى لو كان لا يعطيني سوى بعض الأوراق المدعوكة وبعض الفكّة، إلا أني أحب سكامبورلو، فهو لا يصرخ إلا في مكبّر الصوت خاصته، ليس مثل الشخص الذي يشغِّل الفتاة ذات الشعر الأزرق، الذي يعوي باتجاهها لأنه يريد أن ينام معها وهي لا تريد ذلك. قلت لبشير: «تعال اعمل أنت أيضاً في الملاهي». قال إنه لا يحتاج إلى نقود إضافية، لأنه يقبض التقاعد الخاص بالحركي(*) ببطاقته العسكرية. قال إنه جُرح خلال الحرب، ولهذا له راتب تقاعدي، لأنه لا يستطيع العمل، ولكنني أظن أنه يكذب وأنه لم يشارك إطلاقاً في الحرب، حتى ولو قال إنه أصيب بطلقة من قبل فرد من الفلاقة، الأمر الذي سبّب له ألماً دائماً في الرأس.

في يوم من الأيام، وصلت إلى الساحة ولم يكن هناك أحد، كان الجميع قد غادروا، الناس مع الشاحنات ومحلات البيع، لم أرَ على الأرض إلا أوراقاً وبقايا زيت الشاحنات والنشارة والزجاجات الفارغة. قالت الشرطة لي: «أيها السيد، ليس لك الحقّ بأن تستقرّ هنا، أنت تلقي الكثير من الأوساخ!». يجب أن أذهب أنا الآخر، لو بقيت في الساحة، فستقودني الشرطة إلى المخفر، وبعد ذلك سيحتجزونني في مكان ما، ثم يرسلونني إلى «سان جيرمان أون ليه» عند الأب أنطوان، ثم سيقوم السيد هانسون بإرسالي في طائرة إلى موريشيوس لأشارك في غسل الأقدام في «ماري رين دو لا بيه». لذلك قرّرت أن أسلك الطريق الذي يقود إلى الجنوب، حتى البحر.

(*) الجزائريون الذين حاربوا جنباً إلى جنب مع فرنسا أثناء حرب الاستقلال عن فرنسا.

النبي

الطريق طويلة للوصول إلى نهاية العالم. هنا باريس وهنالك الكثير من الشوارع والجادات المتفرعة عن ساحات على شكل نجمة. «لا لويز» هو المكان الأكثر أهمية في العالم، هو قلب العالم. توجد لا لويز في كل أرجاء باريس. لا أذكر الأسماء، فالناس يقولون الأسماء، أسمعها ثم أنساها. الأسماء تتغيّر باستمرار: «بوشيكو»، «مايكل أنجلو»، «لامويت»، «لابلين»، «بوبورغ»، «لوكسمبورغ»، «جينفيلييه». أنا أتنقل دائماً، أكثر ما أستطيع فعله هو المشي؛ أمّا هم، أي المشرّدون، فلا يعرفون المشي، يصلون إلى مكان معيّن ويستقرّون فيه، يمدّون كراتينهم وأكياسهم البلاستيكية على الأرض ويبنون مأوى لهم من أخشاب وقماش سميك، تحت أقواس الجسور أو بمحاذاة محطات القطار. المحطات ليست بالمكان الأنسب للعيش، بالنسبة لي. هنالك يجول الحراس بصحبة كلابهم الشريرة، يلبسون بزّاتٍ زرقاء مرسوماً عليها خطٌّ أبيض ويعتمرون قبعات سوداء، يوجّهون مصابيحهم اليدوية مباشرة إلى العيون ويسألون: «أنت، ما اسمك؟»؛ الشرطة ألطف وتخاطب بصيغة محترمة: «مساء الخير، نقوم بتدقيق الهويات، أوراقك إذا سمحت. أحضرتك فرنسي؟ نعم؟ أيمكنك إبراز بطاقتك الشخصية؟». تخلّصت من أوراقي منذ

اليوم الأول لأن بشير قال لي: «ارمِ أوراقك الثبوتية وادَّعِ بأنك فقدتها أو أن أحدهم سرقها منك ولن يستطيعوا ترحيلك». بشير من شمال إفريقيا، من الجزائر تحديداً. يكرِّر بشير كل مرة الكلام ذاته للشرطة، يقوله بلكنة طريفة كي يثير ضحكهم: «أنا فرنسي يا سيدي، فرنسي من مستغانم». يبرز بطاقته العسكرية ليتفحصها الشرطي. «هذه ليست صورتك التي على البطاقة!». يجيب قائلاً: «هذا أنا أيها الضابط، أقسم لك. لقد أصبحت الآن كهلاً. أنا ابن حركي وقد جُرحت في الحرب». أما أنا فقلت: «فرنسي ميسيي، فرنسي من المارتينيك». قلت «ميسيي» كي أثير ضحكهم. قلت «المارتينيك» وكان بإمكاني أن أقول «الريونيون» أو حتى «تاهيتي». أقلّونا إلى قسم الشرطة في شاحنة زرقاء صغيرة برحلة لم تطُل كثيراً. وضعونا في غرفة صغيرة تنبعث منها رائحة كريهة. سنحت لي هنا فرصة الاستحمام ونلت قسطاً من الدفء. استحمّ بشير أيضاً، لهو أمر جميل لدى المسلمين أنهم، على عكس الفرنسيين، يحبّون الاستحمام. من ثم، جرى إطلاق سراحنا. «يجب ألا تبقى في الخارج، يا سيدي، هنا لا يشبه المارتينيك، يمكنك أن تموت من البرد ليلاً». غادر بشير بصحبتي. بماذا يمكن أن يكون ذا فائدة؟ أنا لديّ جسد صلب فلقد قضيت ليالي في الخارج، في حقول القصب، في «ريباي» و«كريف كور» من جهة ألما. لا تخيفني الأمطار الرذاذية، فقد كنت أكوِّم نفسي تحت غطاء من البلاستيك أو أحفر حفرة لنفسي بين جذور الأشجار. أحب الأمطار الخفيفة، موسيقاها مثل تهويد يهزّني ويغمرني مداعبات. أحياناً، تتوجه لي شرطية بالكلام. هي سوداء، ممتلئة القوام نسبياً، أظن حقّاً بأنها من هناك، من جزر الكاريبي. «لمَ أنت هنا يا سيدي؟ ألن تكون أفضل حالاً في بلدك؟». «ماذا يسعني القول؟ أفضل وأسوأ في آنٍ معاً». «ما يسوءُك هناك؟». لديها عينان رطبتان بندقيتا اللون، أنفها منمنم وفمها كبير. تمعّنت طويلاً بشفاهها الحمراء

الغامقة. قلت: «الفضاء صغير جداً هناك، ورغبت في أن أكتشف العالم». أعتقد أن جوابي قد أعجبها. «ألهذا أنت هنا، كي تكتشف العالم؟». سخر الشرطيون الآخرون منها. كانوا يقولون: «حبيبك»، وإني شاب وجميل وإن قسم الشرطة تحوّل إلى مقهى نتجاذب فيه أطراف الحديث. قلت: «نَعم يا سيدتي، أعتقد أن على جميع البشر أن يسافروا يوماً وأن يسيروا إلى الأمام ليلتقوا بأناس لا يعرفونهم». بفضل السيدة «ميريام»، هذا اسمها، أستطيع أن أستحم، آكل شطيرة لذيذة وأشرب فنجان قهوة، لأنها قالت إنها لم تلتقِ أبداً بأحدٍ مثلي لا يشرب ولا يدخن ولا يتعارك مع أحد أبداً، يتجوّل فقط في شوارع باريس دون أوراق أو نقود أو حتى مظلة، ويتكلم بكل دماثة مع كل الناس.

أذهب إلى أين؟ لا أعلم بعد، لست متأكداً كلياً. هذا ما يريدونه هناك في «ماري رين دولابي»، مونيك والأب شوسون، حتى فيكي وزوجها، يريدونني أن أذهب إلى مكانٍ ما ألتقي فيه بمشرّدين آخرين، أتبادل معهم حياتي وحيواتهم كي نصبح شعباً واحداً. لكن حتى الآن لم ألتقِ بهذا الشعب. أسير كل نهار، وأحياناً في الليل لأني لا أنام. سجلت الأسماء والأماكن والأوقات على دفتر فيكي. لم يخدمني ذلك بشيء لكن أقوم به من أجل فيكي.

«سالبيتريير»، الاثنين الساعة السادسة مساء

«شامبوليون»، الاثنين الساعة السابعة مساء

«سيتيه دولامود»، الاثنين الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً ليلاً

«بورت دو فرانس»، الاثنين منتصف الليل إلا ربعاً

كتبت الأسماء والأيام حتى تدري بها فيكي إن قرأت هذه المفكّرة

يوماً. دودو يسافر. دودو يسافر كثيراً. لا أودّ أن تقلق فيكي. لهذا السبب أتيت إلى هنا، إلى الجانب الآخر من العالم.

هنا باريس الكبيرة جداً. أمشي كل يوم من الصباح، مع شروق الشمس الذي يصاحبه الضباب ودخان السيارات، حتى حلول المساء حين تلمع مصابيح السيارات وتشكّل أضواء إشارات المرور أنجمها الحمراء. أمشي ليلاً أحياناً، فكلّ شيء يصبح أجمل في ذلك الوقت: الأبنية مضاءة وأسطح القصور تعانق الغيوم، وتتلوّن الأبراج وناطحات السحاب بشتى الألوان، وتصبح محطات القطارات أشبه بقوارب، وتضاء الأنوار على طول مجرى النهر. لكن المدينة تصبح خطيرة ليلاً مع وجود مخرّبين يجولون باحثين عن القيام بأعمال سيئة مثل تلك التي وقعت ضحيتها في المقبرة الغربية، حين ضُربت بمضرب البيسبول وكسروا لي يدي وأضلاعي. يجولون ليلاً في مجموعات تشبه أرتال الصراصير، يركبون سيارات أو دراجات نارية وأحياناً راجلين. على المشردين الاختباء حينئذٍ، كالتجمّع في أسفل الأبنية أو تحت جسور الطرق السريعة حيث يمر الكثير من الناس، يتدثرون بالبلاستيك ليختفوا عن الأعين أو يختبئون تحت أكوام من الكرتون والصناديق الخشبية ظانّين بأنهم أصبحوا لا مرئيين. للمشرّدين كلاب أيضاً. خفت من الكلاب في البداية لأن الكلاب في جزيرتي تصاب بمرض الكَلَب صيفاً. الأمر هنا مختلف، الكلاب لطيفة وأحمل دائماً في جيبي قطعة من لحم الخنزير المقدد أو أي شيء أستطيع رميه لهم. الكلاب هناك في موريشيوس، في «لالويز» و«لاكافيرن» على طريق ألما، لا تشبه الكلاب هنا. الكلاب هناك حرّة، تركض على طول الطرقات، صغيرة ونحيلة، صفراء ولا تعبأ بالبشر. تجتمع ليلاً على المرج وتنبح أو تتسافد، وتعدو في حقول القصب، ويرميها الناس بالحجارة على الشواطئ. في أحياء

«لافلورال» الراقية، يضع الأثرياء البيض دوماً صحناً مليئاً بالمفرقعات بجانب سريرهم، فإن نبحت الكلاب بقوة أشعلوا مفرقعة ورموها لها، لكن ذلك لا يؤدي إلا أن تنبح بقوة أكبر.

قمت بابتكار المسارات. قرأت خرائط المترو وكتبت الأسماء في دفتر فيكي الصغير. رسمت مخطّطاً للمدينة في ذهني فوجدت أنها تشبه خريطة جزيرتي.

في الشمال، حيث توجد مناطق «بيريبير» و«كاب مالورو» في الجزيرة، هنالك في باريس «سان دوني»، «بازيليك»، «غابرييل بيري»، «لا بلين»، «أوبيرفيليه»، «شارع لاندي» والسكة الحديدية الواصلة بين «سان توان» و«سان دوني».

في الغرب، حيث توجد مناطق «البيون» و«ميدين» في الجزيرة، لدينا هنا حيّ «لاديفانس» وأسماء الأبنية الموجودة فيه، «اتلانتيك»، «فرانكلين»، «وينترهور»، «بوي»، «اوتوبيا»، وفي الوسط هناك القوس، ومن ثم سينما «ايماكس»، «تيكنيب»، وإلى الشرق «أكاسيا»، «أثينا» و«منهاتن».

في الجنوب، حيث توجد «سوياك» و«بي دو كاب»، لديّ هنا «مونروج»، ساحة «سيرمان دو كوفرا»، «سان جاك لوماجور»، «لوسبيس»، ساحة الولايات المتحدة.

في الشرق، بدلاً من «ماهيبورغ»، لديّ باب «مونتروي»، شارع باريس، شارع «فيورونتان»، «لانو» وساحة لينين؛ في الشمال الشرقي، عوضاً عن «بيل مار»، هنالك باب «بانتان»، «لوكانال»، محطة ميترو «ريمون كينو». في الجنوب الغربي، هنالك «مونتامبوافر»، «سان ماندي دومي لون» وغابة «فنسين».

المدينة باتت الآن جزيرتي التي لا يحدّها بحر، بل طرُقٌ سريعة تشخر

وتزمجر مصدرة ضوضاء تشبه صوت انكسار الأمواج على الحديد، على منحدرات من أبنية من اثني عشر طابقاً، على الأراضي المقفرة والمروج بمحاذاة سكك الحديد، على الجسور المسودّة بفعل الشحّار، على الغابات بأشجارها السامقة التي تعلق على قممها أكياس البلاستيك. لا حاجة إلى أن أشحذ إن رغبت بالتنقل، يكفيني أن أنتظر أمام موقف الباص ويتكرّم عليّ الناس ببعض الفكّة أو ببطاقة مترو أو أيّ شيء. وجهي الخالي من الجفون والأنف يساعدني، أرى الشفقة والخوف في عيون المارّين وأحياناً الكراهية. جزيرة باريس كبيرة جداً، لن أستطيع أن أعرفها بكليتها، فقط بعض الأماكن، الساحات وتقاطعات الطرق. أغيّر المكان الذي أذهب إليه كل يوم كي آكل وأجلس وأقضي حاجاتي. إن بحث أحدهم عني، فلن يجدني إلا إن كان قد قُدِّر له ذلك.

أؤمن بالقدر حقاً لأني أصادف يومياً المدعو بشير، الجزائري من «سان جيرمان إن لي» والذي كان والده حركياً. يناديني بأخي، أخي الصغير، حتى لو كنت أكبر منه سناً، فهو يظن أني لست راشداً بسبب المرض. نمشي معاً لتجنّب الشرّيرين الذين يبحثون عن مشرّدين يضربونهم في المقبرة الغربية. يقول بشير: «أخي الصغير، إلى أي جهة تودّ الذهاب؟»(*). يستطيع التحدّث بالكريولية. ليس لدينا حقائب على عكس مشردي باريس الذين لديهم الكثير من المتاع، كالحقائب المليئة بثياب مهلهلة وأعقاب سجائر، وكل شيء آخر يحملونه معهم. أنا وبشير لا نحتاج إلى هذا كله، أحمل فقط حقيبة كيستريل التي أعطتني إياها فيكي، ولدى الجزائري حقيبة ظهر مدرسية سوداء متسخة قليلاً. لذلك نحن لا نشبه المشرّدين كثيراً. لسنا مشرّدين ولا شحّاذين؛ مسافران بالقطار فقط، مسافران بلا متاع.

(*) باللغة الكريولية في النص.

مشينا كل يوم، حتى في الأيام العاصفة وتحت المطر. لم يحتجّ بشير على ذلك أبداً. ربما يظن بأن لديّ مخطّطاً ما، لكن كل ما لدي هو خريطة المدينة في ذهني والأسماء التي أكتبها في الدفتر. يستحسن بشير المشي معي لأني لا أتكلم كثيراً ولا أروي قصة حياتي، ولا أطرح عليه أسئلة عن حياته. حياته لا تخصّني. أبقى مستيقظاً ليلاً، جالساً مفتوح العينين في الوقت الذي يكون فيه بشير يشخر. أن أكون كلب حراسته يبثّ الاطمئنان في نفسه.

عدنا في أحد المساءات إلى باب الشرق الكبير، أمام الساحة وتقاطع الطرق والجسر المارّ فوق الطريق السريعة. ليس أصحاب الملاهي، بل الغجر هم من أشعل ناراً من خشب الصناديق في الساحة الكبيرة ليطبخوا ويتدفؤوا بها. أرادوا في البدء طردنا، وقام شبّانهم بسدّ الطريق علينا، قائلين بلغتهم: «الطريق مغلق، اذهبوا في سبيلكم!». لمّا رأوني تحت ضوء الشارع توقفوا عن الصراخ بسبب وجهي وسمحوا لنا بالمرور. تمرّ السيارات في الساحة ببطء وأضواؤها مشعلة. سأل بشير ما إن كان بالإمكان البقاء كي ننال قسطاً من الدفء. أفسح الغجر لنا مجالاً وبقينا في وضعية القرفصاء أمام النار نتدفأ. أتى الأطفال، صبياناً وبنات، لرؤيتنا. عيونهم لامعة، وعندما يضحكون تلمع أسنانهم في ظلام الليل. استند بشير على دعامة الجسر ونام بالقرب من النار، لكني بقيت جالساً متدثراً بمعطفي أشاهد تراقص لسن اللهب. انطفأت النار قبل الصباح بفعل مطر خفيف. انصرف الغجر عدا بعض المسنّين الذي احتموا من المطر بأكياس من البلاستيك. هدأت ضوضاء السيارات، وهذا ما يشبه البحر في الصباح حين تبطؤ حركة الأمواج وتصفو السماء وتهدأ الرياح، وعندما تكون العصافير لا تزال نائمة. عاد الأطفال بعد ذلك دون أن أعرف من أين خرجوا. لقد كانوا قد اختبؤوا في الحرج احترازاً من قدوم الشرطة، أو أنهم ناموا في الشاحنات.

إنهم كجرذان صغيرة، يزحفون ويقرضون، لديهم خطوم سوداء مدببة. أتوا ولمسوني ليروا ما إن كنت صاحياً. لاحظوا أن عينيّ كانتا مفتوحتين. أتيت بحركة فأطلقوا صرخة، صرخت أنا أيضاً فابتعدوا عني وهم يضحكون. ظلَّ بشير نائماً بالقرب مني، واضعاً رأسه في كيس بلاستيكي مثقوب كي يتنفس، ومغطّياً عينيه بقلنسوته الصوفية. لم أتكلم مع الأطفال، نظرت إليهم وحاولت إثارة ضحكهم بمدّ لساني ليلامس عيني. لم يروا مثل هذا في حياتهم! رميت السكاكر التي احتفظت بها في جيبي منذ حفلة «سان جيرمان ان لي» كي يلتقطها الأطفال. نهضت وذهبت لأبول خلف عمود الجسر، فلحق بي الأطفال كي يروا قضيبي. يظنون أنه أسود اللون كوجهي، لقد سمعتهم وهم يتمتمون ويهمسون. باشرت السيارات رقص الباليه عند تقاطع الطرق. سارت الشاحنات وانعطفت ببطء مطلقةً زماميرها. يُصدر مرور السيارات في خندق الطريق السريعة ضوضاء عميقة تمرّ من تحت الأرض وترتجف بفعلها أوراق الأشجار. هذا الطريق الذي استيقظ أصبح يشبه ثعباناً كبيراً مكسوّاً بملايين الحراشف.

أيقظت الاهتزازاتُ بشير والعجائز. نهضوا الواحد تلو الآخر، أشعلوا سجائر، وراحوا يتمشون كي يدبّ الدفء في أطرافهم. أشعل أحدهم ناراً كي يسخّن قهوة أو حساء، انبعث منها رائحة شيء يحترق. هطل المطر بغزارة أكبر وبات يُسمع صوت فرقعة حبات المطر على النار. تجمّع الرجال تحت الجسر ونزلوا المرج حتى الحديقة من جهة «سوماكوترا».

باشرت المشي. سألني بشير كما يفعل دائماً: «في أي جهة سنذهب؟». لم أجبه فأنا لا أعلم؛ كل ما أعلمه هو أنني سأذهب أبعد من المرات السابقة. سأتجه نحو الشرق، نحو الشمس التي تعانق الغيوم. هنالك قوس قزح كبير يستند على الأبنية، أو ربما على مكان آخر، هناك في الجانب الآخر من المدينة.

أينما أذهب يذهبون أيضاً، على طول الشوارع والجادات، إلى تقاطع الطرق السريعة، إلى الأرصفة مقابل محطة القطارات، أو في الشوارع الفرعية المظلمة والحدائق. إنهم ينتظرونني. ينهضون حين أصل ويمشون خلفي، أو إلى جانبي أيضاً، أو أمامي. لا يتحدّثون بل يمشون مشكّلين نهراً يجري ببطء، ينتشرون وينفصلون ومن ثم يعاودون التجمّع. كل تلك الرؤوس والأرجل تصدر ضوضاء جريان نهر ثقيلة. تنتشر الكلمات والصرخات الصغيرة وزمجرة حيوانات في الأحراج، وصوت أبقار على منحدرات «كريف كور»، وصوت غزلان وصوت الطيور المجنونة فوق صخور «غري غري». أنا لا أطلب شيئاً، لست بحاجة إليهم ولا أنتمي لهم. إنهم هنا ويمشون معي، أحياناً أمامي وأحياناً بعيداً عني.

أجدهم هنا في الصباح حين آتي. جفونهم ملتصقة وشعورهم غير مصفّفة وتبدو على وجناتهم تجاعيد النوم. أنا لا أنام فعيناي محروقتان وجلدي قاسٍ. ما زال الأطفال يتذكّرون اسمي: دودو! دودو! يغنونه غناء، يركضون ويكرّرون: دودو! دووو! لست متيقّناً ما إن كانوا يسخرون مني. أظن بأني أخيفهم، أو أثير ضحكهم عندما ألحس عيني. هم لا يذهبون إلى أي مكان، فهم لا يملكون منازل يذهبون إليها. الرومان واليوغسلافيون والغجر والعرب والسنغاليون والأفغان طُردوا من بلادهم ولم يعد لهم عائلات يلجؤون لها. لا يعرفون إلى أين عليهم الذهاب، إنجلترا أو ألمانيا. وصلت إلى الساحة وسط الضباب، لا أحمل معي سوى كيس فيكي ومعطفي وحذائي الرياضي. ما زالوا يتبعونني ظانّين بأني أقودهم إلى مكان ما. مررنا عبر الأحياء الراقية الهادئة، عبر الجادات الفارغة المزروعة أطرافها بأشجار الكستناء، عبر الشوارع الخالية من المحلات وعبر القنوات، وصلنا إلى أماكن غير معروفة، أماكن لا أسأم لها. بماذا ينفع

أن يكون لشارع اسم إن كان لا يؤدي إلى البحر؟ يبتعد الناس عن طريقنا، يتنحَّون جانباً نحو البوابات أو يبدّلون الرصيف الذي يمشون عليه. تجفل من رؤيتنا طالبات المدارس، والأمهات اللواتي يشددن أطفالهن إليهن بقوة. يبكي الأطفال أحياناً عند رؤيتنا. في «لالويز»، في الماضي، كنت أمر أمام البازار ومواقف الباصات، فتبتعد عني الفتيات وتلعنني العجائز. أحد الرجال قال مرة: «فليرحمنا الرب ولينجِّنا من هذا الجذام!». سار الجمهور معي، كل هؤلاء البسطاء، الفقراء والمشرّدون وهؤلاء الأطفال السارقون، فأفسح الناس الطريق لنا وتركونا نمرّ. النهر الأسمر جارٍ حتماً والمياه الآسنة ستمرّ في مجراها ولا أحد يستطيع منعها، لا أحد يستطيع تجاهلها. على هذه المعاطف وبناطيل الجينز والستر والقلنسوات الصوفية والأقنعة والأحذية المهترئة أن تمرّ، فلقد فُتح الصمّام وعلى الماء أن يسيل على الرصيف، أن يعبر في المجاري والشقوق. تبطئ السيارات سرعتها وتصرّ ماسحات الزجاج، لا، لا، لسنا بحاجة إلى خدماتك، لا تضع خرقتك الوسخة على زجاج سيارتي البراق! نحن نمشي في وسط الطريق بين السيارات، نعبر الجسور والعبارات والأنفاق تحت الطرق السريعة، نمشي على سكك الحديد الصدئة، والأطفال يركضون من حولنا أو يقفزون على رجل واحدة أو يركلون الكراتين وحاويات القمامة، يقرعون على الأبواب، يتأملون واجهات المحال، يصرخون، يضحكون، ينبحون ويرقصون.

مشيت طوال اليوم وتعبت. جلست على الأرض في المكان الذي أنا فيه تحت ضوء الشمس إن كان موجوداً، تحت ضوء الشمس الأبيض الذي يلمع على الشرفات الزجاجية أو في الحديقة العامة. حضرت الشرطة. اتصل بها سكان الحيّ وأصحاب المحلات التجارية بحجة أننا نثير رعب السيدات والأطفال والعجائز. اتصلوا بالرقم السحري، فأتت

شاحنة الشرطة الزرقاء بهدوء. ممنوع التجمهر، ممنوع وجود الشحّاذين والمشرّدين هنا، اذهبوا بعيداً، تحركوا!

إن كنا جالسين أمرونا بالتفرُّق، فنتفرّق ونشكّل حلقات حول منازل الحيّ منزلاً منزلاً؛ إن كنا سائرين، أمرونا بالتفرّق والذهاب بعيداً، كلٌّ في جهة، واحد نحو الشرق وواحد نحو الغرب وواحد نحو الجادات الخارجية وآخر نحو شوارع وسط المدينة الصغيرة. انصرفت الشاحنة الزرقاء، فللشرطة طوارئ أخرى تهتم بها أو أنها لا تهتم لأمرنا البتّة. لمَ لا نستطيع المسير كما يحلو لنا؟ صرخ رجل طويل مرّة في وجه الشرطة: «أوقِفوهم، أوقفوهم!». ذهبت شرطية، سوداء، إنما ليست ميريام، لتكلِّمه. قالت له: «توقف عن الصراخ يا سيدي فنحن لن نقوم بتوقيف أحد، ولِعلمِك جنحة التسكّع لم تعد مطبّقة». أحبُّ هذا التعبير «لِعِلمك». لم يُسَرّ الرجل لما سمعه، لقد سمعته يقول: «يا لفرنسا المسكينة!». شكرت الشرطية لكني لم أستطع الابتسام لها. قالت: «أنصحك يا سيدي أن تقوم أنت وأصدقاؤك بالذهاب إلى حيٍّ آخر». وهذا ما قمت به. لا أعرف ما الذي أبحث عنه ولا حتى الآخرون. أعرف أني أسير حتى لا أنام، كي أظل حيّاً، كي أتنفس. سأموت إن توقفت.

أتت الفتاة ذات الشعر الأزرق. لم تتحدّث مع أصحاب الملاهي، بل بقيت وحيدة في الساحة كما لو كانت طفلاً ضائعاً، والتحقت بعد ذلك بالغجر. هكذا التقينا. مشت معي ومع بشير. أحبُّها جداً، فهي لا تتكلم سوى بإشارات من يديها وعينيها، الأمر الذي يسرّني فالعالم مثخن بالكلمات. تلبس الآن فستاناً أبيضَ وخُفّاً رياضياً أبيض وأحمر، بشرتها سمراء وعيناها صافيتان، شعرها مصبوغ باللون الأزرق، لكن الصباغ انحلّ وبان شعرها الأسود. تمشي بجانبي نهاراً بخطوات كبيرة، تقفز من

حيّزٍ إلى آخر على الرصيف ومن خط أبيض إلى آخر في معابر المشاة. مساء، حين أتوقف عند تقاطع الطرق في الباب الشرقي، تجلس بجانبي وتسند رأسها على كتفي لتنام، فلا أتحرك وأتنفس بهدوء وأشمّ رائحتها الذكية. سخر بشير مني: «عشيقتك هذه؟». لا أجيب فليس لدي عشيقة. بالطبع ليس لبشير معرفة بمرض السيجما. لقد قال لي الدكتور هاروسينغ إن عليّ ألا أقرب النساء حتى ولو ذهبت إلى حيّ العاهرات الصينيات لأرى الفتيات عاريات وانتصب قضيبي. أدفع لهن كي ينزعن ملابسهن وأتأمّل أثداءهن وبشرتهن الناصعة وشعر عاناتهن الأسود كشعر الكلب، لكنّي لا ألمسهن، هذا ممنوع. تضع الشابة ذات الشعر الأزرق رأسها على كتفي، أحب أن أشعر بثقل رأسها. تبقى عيناي مفتوحتين طوال الليل وأستمع إلى تنفّسها. عندما يأتي الصباح، تنزلق بجسدها إلى الأرض وتطويه وتسند رأسها على وركي.

في أحد الأيام وصلت إلى جسر الطرق السريعة وكان المطر ينهمر خفيفاً، ما يسمّونه في موريشيوس المطر الطحيني، وما يمكن تسميته هنا بالباعث على الحزن. تحمل الفتاة ذات الشعر الأزرق طفلاً في ذراعيها، صبيّاً أعاروها إياه كي تشحذ به، فالطفل المريض يبعث على الشفقة. كان شاحباً، يسقط رأسه إلى الأمام وعيناه تدوران مبيّنتان بياضهما. أظن أنه سوف يموت. أنا في الساحة ومن حولي تدور السيارات في بطء، وتلطّخ الشاحنات ذات الأضواء المشعلة منذ الآن حين تعبر فوق بقعة مياه. أوقفت الفتاة ذات الشعر الأزرق الطفل أمامي كما لو كان دمية من قماش. لم تنظر إليّ، لكن أمّ الولد كانت تنظر إليّ بوجهها المكفهرّ، لأنها كانت مقتنعة بأنه سوف يموت. قال بشير: «ستقوم إذاً بإعطائك طفلها يا أخي؟». أنا متيقن من أنها لا ترغب في إعطائي ابنها. تذكّرتُ يايا وما روته لي عنها العجوز أرتيميسيا. في أحد الأيام سقطت طفلة من أعلى شجرة وحُملت إلى يايا كي

تعيدها إلى الحياة. قامت ببصق بعض من لعابها ومسحت جمجمة الطفلة بأصابعها وعادت الطفلة إلى الحياة. قمت بالشيء نفسه، مرّرت أصابعي فوق وجه الطفل ونفخت في فتحات أنفه وإذ بالطفل يسعل. عيناه مفتوحتان الآن وينظر بهما إليّ. لقد عاد إلى الحياة. حدث هذا هنا عند تقاطع الطرق السريعة، تحت المطر، وبمصاحبة ضجيج الشاحنات والسيارات. تخيّلت أني ما زلت هنالك في «لا لويز» وأني ذاهب لأرى من أحب، العجوز يايا، أرتيميسيا، هونورين والجدة بيث. لقد عدت إلى ألما. انحنت السيدة وقبّلت يدي قائلة: «يسوع!». صحت قائلاً: «أنا لست بيسوع، أنا دودو، لا أحد سوى دودو. كفاكم إزعاجاً لي بقصص ربّكم يسوع». انصرفت مشياً وبسرعة. الأب شوسون، الأب أنطوان، مونيك، فيرونيك، السيد هانسون، كلهم سيقولون: «عُد يا دودو إلى بلدك موريشيوس، عُد يا دودو لتغسل أرجل المشرّدين في ماري رين دولابي». انصرفت عدواً، وحده بشير كان له الحقّ في أن يتبعني، فهو لا يفهم شيئاً، يسوع ليس شخصاً يعرفه. هو يعرف محمّد فقط وربما عيسى. هذا المساء كما كل مساء ستغفو الفتاة ذات الشعر الأزرق على كتفي، لكنها ستمسك بيدي قبل أن تنام، وستكون المرة الأولى التي أمسك فيها بيد امرأة.

كريستال في السجن

ذهبت إلى سجن النساء، على طريق «بو باسان». وادّعيت بأني اقوم بدراسة سوسيولوجية لأحصل على إذن بالدخول من المأمور «بول سادو»، وذلك بفضل السيدة «فايس»، صديقة السيدة باتيسون، التي عملت في الماضي في سجن النساء، ثم لا بدّ أن اسم فيلسن قد ساعد، صحيح أنهم كلّهم ماتوا ولكن الجميع يعرفون الاسم. عبرت الباب مشياً لأن سائق سيارة الأجرة لم يرضَ أن ينتظر، لقد أخافه الجدار العالي من القرميد، كذلك الباب الحديدي ذو الدفتين المدهون باللون الأسود. إنه باب جهنّم! خفق قلبي بشدّة كما لو كنت ذاهباً إلى موعدي الغرامي الأول، هناك وراء ذلك الباب توجد كريستال محبوبتي. السجينات مصطفّات كلّ اثنتين معاً، من أجل استراحة التنفّس في الباحة المغبرة. حراس السجن كانوا بحالة الاستعداد، بلا حراك، تحرق الشمس قبّعاتهم الغامقة. مع صوت الصفارة، بدأت السجينات المشي، صفّاً يلي الآخر، ودخلن البناء. حاولت أن أميّز كريستال من بين النساء، ولكن بدا لي وكأنه قد مرّت أشهر لم أرَها فيها، لقد تغيّرت، ازدادت طولاً، ونضجت، ربما قصّوا لها شعرها الجميل المجعّد. أغلب النساء في السجن شعرهنّ محلوق على الصفر بسبب القمل، إلا بعض المسلمات اللواتي يضعن حجاباً. كنّ كلّهن

يرتدين لباساً موحّداً، فستان - مريلة رمادي اللون، مغلقاً بأزرار على طول الجسم، وصندلاً. بعضهن كنّ حديثات العهد هنا، ما زلن يلبسن بنطال جينز ممزّقاً، وبلوزة قطنية عليها رسم، وحذاء رياضياً مزركشاً، كنّ يسرن بخطوات منتظمة، على إيقاع الصفارة. السيدة فايس هي من حصل لي على الموعد مع المأمور سادو، كانت قد نبّهتني: «يجب ألّا تتوجّه إلى شخصٍ محدّد، لو تبيّن لهم أنك تعرف واحدة من المعتقلات وتوجهت إليها بالكلام، ستضربها الأخريات انتقاماً». كيف سأقول له إني هنا لسبب وحيد، هو أن أرى كريستال حبي الصغير، حلوتي، وأن الباقي لا يهمّني، وأني مستعدّ للكذب والخداع وأن يقال عني سخيف، فقط بغية رؤيتها للحظة داخل هذه الجدران، بين باقي المعتقلات؟ عرفت أن كريستال كانت مسجونة، وأنها قد أوقفت، لأنها استغلّت مادّياً أحد السياح في «غران بيه». الكلّ صاروا يعلمون بالأمر، لقد وصل الخبر إلى «ماهيبورغ» و«بوانت إيسني»، حتى أن السيدة باتيسون صارت تتكلم بالأمر، ربما رأتني معها أو أن طباخها الخبيث أخبرها. لكنها أضافت، ولهذا السبب لم أنقم عليها: «يا للفتاة المسكينة، إنها كبش فداء، ليس هي من يجب زجّها في السجن، وإنما كلّ الرجال الذين يستغلّون شبابها». هل كانت تقصدني أنا أيضاً بكلامها؟

دخلت إلى مطعم السجن، شرح لي المأمور سادو: «هنا نجد موقوفات الجنح، وليس المجرمات، لدينا مثلاً هنا فتاتان في الثامنة عشرة، فرنسيتان، أوقفتا من قبل الجمارك لأنهما كانتا تحملان مخدّرات في حقائبهن، حبات أمفيتامين. حُكم عليهن بعشرين عاماً في السجن، عندما ستخرجان ستكونان عجوزين. كم هذا فظيع بالنسبة لهن! كم هذا مؤسف! لأنهن لسن المسؤولات عن الأمر، لقد استُخدمتا كبغال التهريب، أو كديوك حبش بالأحرى».

نظرت إلى الوجوه. نظرت الفتيات إليّ مواربة، وأظن أني تعرّفت على واحدة من الفرنسيات الموقوفات من قبل الجمارك، إنها أكثر شحوباً من الباقيات، وتخفض عينيها. مشت بالخطا نفسها، لكنها لا تعرف كيف تمشي بتلك الصنادل، سيكون عليها أن تتعلّم وأن تعتاد على حياة الكريول خلال سنوات السجن. يجب ألا أظهر اهتمامي. تقدّمت ببطء في الصالة فيما كانت النسوة منشغلات في التحضير لوجبة الطعام، يضعن الصحون، وينقلن الصحون المليئة. وراء منضدة المطبخ، كان هنالك امرأة طويلة مسترجلة نوعاً ما، خمسينية ومتعبة، تتكلم بصوتٍ عالٍ وقوي، تؤنّب الفتيات اللواتي يقمن بالخدمة، لهجتها تميل إلى الإنكليزية المخلوطة بالفرنسية، وهي ترطن خالطة الفرنسية بالإنكليزية بالكريولية. «هيّا! سِرن بسرعة أكبر، تقدَّمن، هيّا افعلن، أسرع من ذلك!»(*). قال سادو: «أما هذه فقاتلة، نحتفظ بها هنا لأنه لا مكان لها في مواقع أخرى، لقد قتلت زوجها، إنها أسترالية، لن تخرج من هنا أبداً، جاءت لكي تقضي إجازة لكنها ستموت في السجن». نظرت الأسترالية إلينا، لم تخفض عينيها، وخاطبتنا قائلة: «هيه أنت، أيها الشاب الجميل! أنا لست للبيع!»(**). صوتها كصوت ببغاء، صارخ، ومبحوح بسبب الدخان. قمت بجولة كاملة في المطابخ وأنا أزعم أني أدوّن أفكاراً في دفتري. ثم غامرت وطلبت أن ألتقي واحدة من الموقوفات. استغرب سادو وقال لي: «مبدئياً يجب الالتزام بالعُرف المتّبع. يجب أن ترى هذا الشخص في الصالة المخصصة للزيارات كي لا تعرف الأخريات. من هي التي تريد لقاءها؟». كريستال مغامرتي البطلة. سادو هو رجل طويل في الخمسينيات من عمره، وجهه أسمر، وشاربه مصبوغ باللون الأسود. عيونه دافئة دامعة قليلاً، أظنّ أنه ربّ عائلة جيد،

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الإنكليزية في النص.

والفتيات هنا، خاصة الشابات منهن، مثل بناته. لم ألفظ اسم كريستال، ولكني ذكرت والدها الصياد في «بلو باي»، فهم مباشرة: «آه نعم، صغيرة عائلة فينودو، مارلين. إنها هنا بناء على طلب عائلتها. هي شخص متمرّد، لقد قامت بسرقة صغيرة، ليس بالشيء المهم، لكنّها وشبّاناً آخرين نصبوا فخّاً لسائح، ولكنها هي التي قد تقع في الفخ. مارلين فينودو، لا أعرفها، على كل حال، اسمها بالنسبة لي هو لقبها القتالي، كريستال. اخترعت قصة صغيرة تقول بأني مكلّف من قبل العائلة، وكذلك من قبل السيدة فايس، بأن أسجل الفتاة للدراسة بالمراسلة، في ورشة كتابة أو رقص، أو أيّ شيء آخر لإخراجها من هذا الوسط. أعطيت الأسماء التي أعرفها، أسماء رجال بيض مهمّين، وكلاء فنادق، مدير الموارد البشرية لشركة «موريشيوس كنيتوير». بالغت، لكن المأمور سمعني دون إظهار ردة فعل. فرك شاربه فهو لم يكن واثقاً من صدق روايتي. ثم أخذ قراره: «جيّد، انتظِرني قليلاً في صالون الزيارات، سأرى ما إن كانت تلك الفتاة تريد أن تتكلّم معك». كانت قاعة الردهة بجانب كوة المراقبة، تحت حراسة حارسين باللباس الرسمي.

بعد لحظات، وصلت كريستال، أكاد لا أصدق أني نجحت، شعرت بموجة من الحرارة على وجهي، وكان قلبي يطرق بسرعة. مرت شهور، سنوات، وظننت أني قد فقدتها للأبد. الأبواب التي صفقت مرتين، «بلان بانك»! صوت الخطوات على البلاط الملمّع، «فلوش فولش»! هذا ليس صوت صندل كريستال، وإنما صوت الحذاء المطاطي الخاص بالحارسة التي ترافقها. وبالأخص الرائحة، تلك التي لا يمكن تحديدها، تشبه رائحة المشافي وقاعات الانتظار، ورائحة مطابخ أيضاً، كاري مع السمك وزيت مسخّن، ففي الأعلى الفتيات كنّ مستغرقات في عملهن حول طبّاخ الغاز، يضعن الكعكات الصغيرة الخاصة بالحرس في الفرن، وفوق كل هذا كان هنالك الرائحة الباهتة القادمة من إناء طبخ الرز الآلي.

ها أنا جالس دون أي حركة على المقعد الوحيد في قاعة الزيارة. هناك في وسط الغرفة طاولة مدرسية خشبية، لكن لا وجود لكراسي، وقبالة الجدار هناك ممسحة شراشيبها سوداء وُضعت لتجفّ على سلّم. من الواضح أن القاعة لا تُستخدم كثيراً.

دخلت كريستال من الباب في صدر القاعة، تسبقها حارستها التي ترتدي حذاء مطاطياً. كانت الحارسة من الطول والسمنة بمكان جعلاني أظن للوهلة الاولى أنها قدمت مع طفل، ولكن هذا الطفل كان كريستال. لم أكن قد رأيتها بعد، ربما اختبأت حين كنت أزور المطعم. كانت ترتدي المريلة الرمادية نفسها التي تصل إلى الركب بأكمامها الطويلة، أغلقت أزرارها من الأمام عدا زر الياقة الأخير الذي يبدو أنه وقع. تقدّمت خافضة نظرها، كأنها طالبة مدرسة استُدعيت لمجلس تأديب. لقد كانت حافية القدمين في الصندل الأزرق الغامق، لاحظت طول أصابع قدميها ولون أظافرها الشاحب، كنت قد عرفت هذه الأظافر ملوّنة بلون المرجان، لم تكن تضع أي حلية أو حلق في الأذن، يبدو أنهم قد صادروها، شعرها كان قد قُصّ لكن ما زال أسود شديد التجعد، كما أنها فقدت من وزنها. ولكنها ما تزال كريستال التي أحب، تلك التي تبعتها في كل تلك الطرقات، تلك التي بحثت عنها في كل الأماكن السيّئة.

توقفت الحارسة الماردة عند الباب وتركت كريستال تتقدّم. مشت مشية جامدة كأنها إنسان آلي، جلست على المقعد، في الجانب الآخر، يداها في حجرها، وقدماها مثبّتتين على الأرض، لم تتكئ على ظهر المقعد، ظهرها كان منحنياً، كما لو أنها كانت ستعزف على البيانو. لم أشاهد الحارسة وهي تغادر القاعة، ولكني قدّرت أن لدينا خمس دقائق، أو ربما أقلّ، لنتكلّم.

«كيف حالك؟».

لم تتحرك. نظرت إلى الأمام، مستديرة بعض الشي إلى اليمين لتفادي رؤيتي.

«أحوالك جيدة؟ أتأكلين جيداً؟ فكرت بأن أجلب لك فواكه، ولكن هذا لا شك ممنوع في نظام السجن، قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟».

هزّت كتفيها لتوحي لي بأنها سمعتني. وهذا إنجازٌ بحدّ ذاته.

اجتاحتني فجأة رغبة شديدة بأن أمسك بيدها، لكنها بعيدة على الطرف الآخر من المقعد، تسند يديها على ركبتيها، وهنالك أيضاً الحارسان. أشاحت بنظرها، وكأنها غير مبالية. كانت ما تزال تحني رأسها للأسفل، إنها تخجل من جلوسها بجانبي، ربما كانت السيدة فايس محقّة: ستكرهها الموقوفات الأخريات. نظرت إلى خطّ أهدابها السميك، وتابعت بالنظر انحناءة عنقها حتى بداية فروة رأسها، تأملت الوترين اللذين يرسمان منخفضاً في نقرتها، منخفض ألمٍ وتشنُّج. شعرت بالأسى واعتُصر قلبي من أجلها. كريستال وحيدة، وحيدة لدرجة كبيرة، ودون سند في حياتها.

حاولت أن أمزح: «لقد بحثت عنك في كل مكان، وعرفت أنك هنا في بو باسان، ففكرت أنك لن تبقي طويلاً، فأتيت مسرعاً قبل أن تفرّي من السجن!».

تنحنحت قليلاً لتعبّر لي أنها فهمت النكتة، ولكن هذا لم يضحكها.

«تعرفين أني أرغب بمساعدتك، قولي لي ما بإمكاني فعله!».

«لم أطلب منك شيئاً، لماذا أنت هنا؟» قالت هذا بصوت خفيض. تذكّرت صوتها الجاد، ليس صوت طفلة صغيرة، تذكرت تفاحة آدم التي كانت تتحرّك لأعلى عنقها. كان صبيان «بلو باي» يسخرون منها ويقولون إنها ليست بفتاة، بل خنثى، وقد تعاركت معهم عدة مرات بسبب هذا الأمر.

«لكي أراك، كريستال».

انتفضت فجأة: «اسمي ليس كريستال، اسمي الآن فينادو مارلين، ها قد رأيتني، بإمكانك الرحيل الآن».

رسمت على وجهها تلك التكشيرة التي أعشق، وهنا تذكرتها وهي متمدّدة على كرسي الشاطئ، في حديقة «دونغ سوو»، مرتدية لباس البحر من قطعتين وعلى سرّتها حليٌّ أخضر. سَمعت دقّات قلبي، فهو يخفق بسرعة، وبدا لي أن دقاته مسموعة في كل الصالة. انحنيت قليلاً لكي أُبطئ خفقانه. تجرّأت على الإمساك بيدها، راحة يدها الباردة، الخشنة، لقد باتت يداً غريبة. لم تتحرك، ولكني فهمت وسحبت يدي بسرعة.

«ماذا تريد مني؟» قالت هذا بصوت منخفض، وهي تدير وجهها قليلاً نحوي، وهنا التقت عيناي ببريق قزحية عينيها الصفراء اللون. شعرت أن هناك شرّاً في نظرتها. فهمت أن الأشهر التي مرّت أبعدتها عني، عن «بلو باي»، عنا جميعاً. حاولت أن أقول لها بنبرة حيادية: «أستطيع أن أساعدك على الخروج من هنا. سأجد لك محامياً جيداً. لي معارف». أدركت حالاً أن ما قلته كان سخيفاً وعديم الجدوى، فنحن لم نعد ننتمي إلى العالم نفسه، وأن «بو باسان» ليس مكاناً يدخله المرء ويخرج منه تبعاً لأهوائه.

قالت: «يا سيد، أريد قراءة كتب، وتعلُّم أشياء مثلك، أريد أن أدرس اللغات، وأن أسافر». هل كانت تعي ما تقول؟ أو أن هذه كانت طريقتها للخلاص، لإبعاد الحظّ السيّئ الذي أصابها؟ استدارت نحوي مرة أخرى، لمجرد لحظات، على وجهها ابتسامة انمحت مباشرة من على شفتيها، لتستعيد تعابيرها القاسية والعنيدة. ولكن هذه الابتسامة، هذا الشعاع الضوئي على وجهها العابس ملأني بالفرح، ألغى بلحظةٍ كلّ أسئلتي، وكل لومي. لم يعد يهمّني السبب الذي قُبض عليها من أجله: سرقة أو غشّ، أو أنها قد نصبت فخّاً للزبون الذي وشى بها، والذي كان يمكن أن يكون أنا،

لا يهمّني لماذا اختارت هذه الحياة بدلاً من أن تثق بي. في الوقت ذاته كنت أعي عبثية الفكرة، هل أنا مختلف عن الدادي، ذلك العجوز الجميل الذي يبحث عن طريدته بعيداً عن بلده، حيث لا خطر يحيط به؟ فكرت بها، حلمت بها، اشتهيت جسدها، تذكرت وركيها، رائحة شعرها، لقد ركبت وراءها على الدراجة النارية في شوارع «بلو بيه». شعرت بالغضب يتصاعد داخلي، ثم نسيته فجأة، بسبب ابتسامتها وبريق عينيها وقامتها النحيلة في ثوب السجن الرمادي، أصابع قدميها الطوال المصفوفة على البلاط، يدها ذات الراحة الخشنة، نقرتها المنحنية إلى الأمام مع الأوتار والحفرة المؤلمة. وشم الفراشة الذي ظهر أزرقَ على بشرتها البنية، لم يكن موجوداً في السابق، متى وضعتْه ومن أجل من؟ أظن أن بإمكاني أن أسامحها على كل شيء سوى تلك الصورة التي أخفَتها عني.

تكلّمت مع السيد سادو، طلبت منه الإذن بزيارة السجن. كذبت عليه عندما قلت له إن مارلين فينادو تريد أن تُريني مطبخ الحلوى الذي تعمل فيه - كما لو أننا كنا هنا في مخيّم للإجازات، مركز أنشطة أو شيء من هذا النوع. لم يبدُ لي أنه فوجئ. «بالتأكيد، الآنسة فينادو تحت حمايتك، موافق». هل كان يعني شيئاً بكلمة «حمايتك»؟ سِرنا ترافقنا الحارسة الماردة التي تشحط نعلها المطاطي، وفوراً وقفت كريستال جانباً، أظن أنها تترك مسافة أمان تدلّ على الاحترام. ربما كانت تفضِّل ألّا تظهر قريبةً جداً من المدير وضيفه الغريب. لاحظت أنها تسير بخطوات قصيرة، حانية الرأس، ربما كان الثوب ذو القماش الخشن يعيقها. تذكّرت خطواتها الكبيرة، في الساحة، في مركز «فلاك» وهي تلحق بالتكسي الأسود الذي ينتظرها. أتذكر جسدها المنزلق بين مياهين في «بلو بليه». أصبحت شخصاً آخر، لقد تغيّرَت، تبدو أكثر شباباً، تكاد تكون طفلة،

رغم قامتها الطويلة وذراعيها الطويلتين، طفلة مربكة بجسدها، معاقبة في مريلتها العتيقة الرمادية.

الزيارة كانت في الواقع قصيرة. رأيت فتيات يضعن على رؤوسهن قبّعات الشارلوت البلاستيكية ويحضّرن كاتو الفلفل وفطائر الباذنجان، وأخريات يحضّرن نوعاً من الكاتو مغطّى بطبقة كثيفة من السكر أخضر اللون مثل السبانخ، يبدو أنهن سيحتفلن اليوم مساء بعيد ميلاد المدير. توقفت زيارتنا عدة مرات بسبب سخرية الأسترالية وكلامها الخليط من عدة لغات وغير المفهوم، وبسبب تعليقات رئيس الطباخين الذي هو حارس من السجن، وقد لبس للمناسبة مريلة بيضاء غريبة وقبعة على شكل الفولوفون. عندما غادرت لمحت كريستال تقف جانباً من ناحية المطابخ، تتكلم مع حارس. هناك شيء أثار انتباهي، كريستال ليست الشخص نفسه، كانت تتلوّى وتبتسم، هذا ما كانت تفعله سابقاً مع طيارها الشهير، الدادي خاصتها في مخيّم «دونغ سوو». توجهت مجموعتنا نحو المخرج، ولكن كريستال بقيت في الخلف مع الحارس، لاحظت أنه كان شابّاً، أكبر عمراً من كريستال بقليل، نحيل وواهن في لباسه الرسمي الأسود. كانت كريستال أطول منه بمسافة رأس. كانت تكلّمه، وهو يبتسم مبيّناً أسنانه ناصعة البياض، ولكن هذه النظرة صعقتني وكأني لمست شريطاً كهربائياً غير معزول في دوش البيت الذي أقيم فيه. وقبل أن أغادر قاعة المطابخ، استدرت لكن مجاميع الموقوفات كانت تخفي كريستال عن نظري. اختُتم كل شيء كما لو كنت بعيداً عن المشهد. كأني لم أكن. صافحت المدير، لم يعد يذكر حتى أني تكلمت معه عن الآنسة فينادو، وعندما ذكرت اسمها، أدباً، لكي أشكره على سماحه لي بهذه الزيارة، ابتسم وكأنه فهم الأمر: «لا تقلق عليها، إنها تحظى بعناية جيدة». لم أكن متأكداً مما كان يحاول الإيحاء به، فقام بول سادو بالشرح: «كما لاحظت هناك شيء بينها وبين

أحد حراسنا، عادة هذا ممنوع في نظام السجن، ولكن المشاعر أقوى من أي شيء آخر، أليس كذلك؟»، ولكي يعوّض عن الوقع السيّئ الذي يمكن أن يكون لكلامه على مراقب غريب من الخارج، أضاف: «ولكن هذا جيّد ومشرّف، يا سيد فيلسن، أظن أن هذا الأمر سينتهي بالزواج، وهذا أفضل ما يمكن أن نتمناه للشابّة المقيمة عندنا».

غادرت القلعة، تحت شمس حارقة، بحثاً عن حافلة، أو تاكسي، أي شيء يبعدني بأسرع وقت عن هذا المكان. كان الطريق البحري، في أسفل التلة، يهدر ويزمجر من الشاحنات والجرارات والدراجات النارية والسيارات. إنها الساعة التي يعود فيها الجميع إلى بيوتهم. شعرت بنفسي غريباً، أي وحيداً جداً.

إديتي تلد

أتى اليوم المنشود وبات كل شيء جاهزاً في الغابة. هطل مطر خفيف لا تصاحبه رياح في تلك الليلة. غطت غيمة قمم الجبال منذ منتصف الليل، واقتربت من رؤوس الأشجار أثناء مسيرها نحو الغرب. في لحظة ما صارت الآلام لا تُحتمَل. شدّت إديتي بقوة على أسنانها وكتمت صرخات نابعة من عمق جسدها، من جذور عضلاتها وأعصابها. ونظرت إلى الأسرّة المعلّقة على العوارض، الكلّ كانوا نائمين، على ما يبدو، في شاليه مركز موريشيوس للحياة البرية. الكلّ يعلمون ويترقبون لكنهم نائمون. أنصتت إلى شخير تنفسهم المتقطع والمتناوب، شبيه بأصوات منبعثة من مهجع أطفال. في المركز، سخروا من بطنها الكبير، ربما لأنه أثار ذعرهم، فالأمر برمته واقعي جداً، لكنها لم تردّ على أحد منهم. وحدها «ليسبيث»، الأسترالية، كانت لطيفة معها. أخبرتها أنها وُلّدت مرة في الغابة وحدها بمساعدة نساء من السكان الأصليين. أعطوها أعشاباً لتدلك بها فرجها فتسهل عليها آلام الانقباضات. تدبّرت بعد ذلك أمرها وحدها إلا أنها لم تُرضع طفلتها بسبب خراج في حلماتها. قالت إنها جاهزة لتساعدها في اختيار المكان وتحضير القماط، كما أنها أحضرت بعض الأعشاب، أزهار الآشوكا والترمنيلا البنيّة وحبوب البقلة اليمانية، اشترتها من ساحر

في البازار. رسم ذلك ابتسامة على وجه إديتي فهي لا تحتاج سوى إلى الماء وورق الأشجار والجبل والسماء. لم تكن خائفة، خرجت الآن من المنزل دون ضجيج، ومشت في وسط الفسحة كي لا توقظ الطيور في أقفاصها. سمعت صوت وقع أقدام خلفها. إنها ليسبيث. لم تنم طوال الليل كي تكون جاهزة. لمست ذراع إديتي وشدّته نحوها قليلاً. همست: «أتريدين أن آتي؟». تنحّت إديتي ووضعت يدها على فم ليسبيث. هذا يعني: لا، أريد أن أكون وحيدة، لا أحتاج إلى أحد. انسابت في الظلام وحجبت الشجيرات طيفها. مشت في الدروب السرية التي تعرف راحة قدمها أدقّ تفاصيلها، كلّ حصياتها وكل أشواكها.

حثّت إديتي الخطا وهي تترنّح ويداها تسندان بطنها. ذهبت باتجاه مكانها السري، حديقتها في أعلى الجرف، بالقرب من شلال «تاماران». لقد تمرّنت على ذلك مراراً، لأشهر، وتعرف كل تفصيل ما سيحدث. نزلت بوضعية القرفصاء المنحدر الطيني. يجب عليها ألا تسقط، فتمسّكت بالسرخسيات وبجذور القربيون وبالصخور، وشمّت رائحة الماء. الماء وخملة الزبد الناعمة يناديانها. وصلت إلى الصخرة السوداء الزلقة من كثرة الأعشاب البحرية عليها، والتي هي الدرجة التي تسمح لها بالدخول إلى المكان الذي سبحت فيه منذ بداية حملها، كانت تسمع في الأنحاء أصواتاً كثيرة، زقزقة عصفور ليلي، تمدُّد حيوان بري، فأرة، سحلية، قنفذ ربما، أو قطّ عَتابِيّ يصطاد أرانب في مكان ما. الظلمة ليست بحالكة على الرغم من الغيوم، والقمر يبث ضياءه الخافت على الصخور وأوراق الأشجار الكبيرة. بدا الضوء كهربائياً لإديتي، لهيباً أزرق، زوبعة من الشرار تخرج من الحشائش، من رؤوس أوراق نخل الساغو ومن سراخس تاماران. تعرف إديتي كل هذه النباتات، نباتات حديقتها، تلمسها بلطف وتشعر بتنفسها على جسدها العاري، وبخيوطها وشعرها على وجهها. لقد أتت

لترى هذه النباتات، لا أحد غيرها الآن. هي ليلتها، ليلة إديتي ولن يكون هنالك أجمل منها في حياة إديتي.

شعرت بالرعشات على جلدها، تلك الأمواج التي تنطلق من منتصف بطنها مارة عبر العضلات والأعصاب، خفيفة تارة، تغلق عينيها بانتظارها؛ قاسية وعنيفة تارة أخرى، نبضات ألم متفجرة تصل حتى قلبها وفمها، تجبرها على صرّ أسنانها كي لا تصرخ، كي تكظم العنين الذي يخرج رغماً عنها. ستكسر بعد هنيهة غصن أشوكا لتعضّ عليه وتكبت ألمها.

حان الوقت. الماء الأسود ينتظرها، ربما لم يكن هذا الماء أشد سواداً من قبل، أكثر برودة. تطفو بقعة حمراء طويلة في السماء فوق البحر من جهة المدينة. اختارت إديتي هذا المكان لأنه بعيد عن جنس البشر، ولأنه على الرغم من بعده ما زال بإمكانها رؤية أضواء المدينة التي تهدِّئها، والتي تشبه ضوء حريق بطيء لا يمكن أن يصيبها هنا على شاطئ البحر. لا شيء سيصيب الطفل الذي سيولد. لا شيء سوى هذا الضياء من عالم آخر وذاكرته، العالم الذي أتت منه وعنف الرجل الذي رماها أرضاً في حقول القصب وعنّفها وزرع فيها بذرته. لا شيء آخر: الواقع موجود هنا وهو رائحة المياه وصوت الشلال كما لو كان بداية العالم، أو ربما نهايته، عندما يخمد الحريق. ترغب بالصلاة، أن تكرر الكلمات التي تُنجي، الكلمات التي تدوم، فقط هذه الكلمات، كي تبعد عنها الآلام. تخرج الكلمات من بين فكّيها المشدودين مع تنفّسها.

فايورا نيلامام تاميتادام بهاسمانتام شاريرام

«فلتعُد هذه الحياة إلى الروح الخالدة وليستحِل هذا الجسد إلى رماد».

أنجبت إديتي طفلتها قبل شروق الشمس. جلست إديتي القرفصاء

على صخرة بازلت، لفّت حول بطنها وشاحاً ربطته بأغصان الآشوكا، وحين انفتح الرحم، مال الغصن مُصدراً أنيناً. استقبلت الطفلة بيديها الاثنتين وغسلتها بماء البحيرة، البرودة أيقظتها فأخذت تصرخ. شفطت إديتي البلغم الذي يسدّ حنجرتها وأنفها بفمها، وقامت بعدئذٍ بقطع الحبل السري بأسنانها، ورمته على الأرض ليقتات النمل عليه. اضطجعت على جنبها، ووضعت الوليدة التي تغطيها مياه الرحم اللزجة على صدرها. انتظرت أن يسيل الحليب من ثدييها. بدأ ضوء الصباح ينبلج شيئاً فشيئاً وانقشع الضباب، لمعت قمة الجبل الذي ينحدر منه النهر الأسود كحجر ألماس أسود. تفحّصت إديتي ابنتها وعدّت أصابع يديها وقدميها، كلها موجودة، تفحصت الجنس، ومررت يدها الرطبة على الوجه الصغير ذي العيون المغلقة، واسترخت على الصخرة الباردة التي التصقت كل بوصة من جسدها بسطحها. هي جزء من الأرض وقطعة من الغابة. أغلقت عينيها واستسلمت لنوم خفيف بحلم جميل. تراقص الناموس حولهما، إديتي وديتي، طارت اليعاسيب من بين الحجارة المغمورة جزئياً بالمياه، وحلّقت فوقهن. شكّلت أصوات العالم مظلّة مقدّسة فوق أديتي وديتي. وتحوّل الليل نهاراً.

الرحلة الكبيرة

حدث هذا منذ زمن بعيد، ولكنه كان يمكن أن يحدث البارحة. في عام 1628، وصل القبطان الإنكليزي «ايمانويل ألتام» إلى موريشيوس، على ظهر السفينة الحربية «لانغتري»، في توقف دام لعدة أسابيع. نظراً لإصابته بداء الأسقربوط، قرّر القبطان «ألتام» أن يسند قيادة السفينة إلى نائبه «رودريك ميدوز»، واستأجر لدى أرملة جراح هولندي، السيدة «جينيفر جاغر»، غرفة في منزلها في «فيوغرانبور» بالقرب من نبع الماء الذي سُمِّي لاحقاً ببئر الهولنديين. لم يكن هنالك من حكومة رسمية في ذلك الوقت، بل مجمّع بحّارة لم يكن قد سمّي بعد «الفيرينغيد اوستنديش كومباني»، وهو عبارة عن مخزن مبني من حجارة سوداء وسقف من القش، تُخزّن فيه المؤونة اللازمة للإبحار حتى أرخبيل «ملايو»، كالأسماك المجفّفة، البسكويت، الخمر، القهوة، وبعض أكياس البهارات من «باتافيا» وأيضاً براميل بارود، ونصف دزينة من البنادق المخصصة لمواجهة القراصنة و«المارون». منزل الأرملة جاغر ريفي بسيط، لا يحتوي على وسائل راحة، ولكن بفضل الطعام المغذي والماء النقي والريح التجارية، استعاد القبطان ألتام صحّته شيئاً فشيئاً، واستغلّ هذا التوقف المطوّل ليكتشف الجزيرة. أخبروه عن مخلوق غريب ذكرته روايات الرحّالة الأولين الذين

رافقوا أسطول الأميرال «جاكوب كورنيليوس فان بيك» ونائبه «وايبراند فان وارويك» في عام 1598. هو طائر ضخم بحجم البجعة، لا أجنحة له، ويقتات على الحجارة. تفيد الروايات بأن أحد هذه الطيور النادرة موجود في حظيرة تعود إلى عبد هندي محرَّر عمل على ظهر السفينة الأميرالية «برنس موريتس»، عُمِّد وسمّي «لوران» ويقيم في مكان ما في شمال شرق الجزيرة، على سفح جبل. قرر القبطان ألتام بعد أن تعافى كلياً أن يذهب للقاء أعجوبة الطبيعة هذه برفقة عبد أسود من عبيد الأرملة جاغر، فتى صغير يدعى ألبيوس. في ذلك الوقت لم يكن هنالك الكثير من الأحصنة في الجزيرة ولا أي عربة تجرها الثيران، الأمر الذي اضطر القبطان إلى الذهاب مشياً على الأقدام بمحاذاة الساحل بمساعدة العبد الأسود الصغير. مشى يومين عبر الدغل الكثيف الذي يغطي الجزيرة حتى الساحل، متجاوزاً الأنهار والسيول، متسلّقاً بصعوبة الانهيارات الصخرية السوداء. بالقرب من حرج من أشجار الأبنوس، وجد أخيراً كوخاً محاطاً بسور بازلتي خفيض، زُرعت في بستانه خضراوات وشوندر والقليل من القمح القاسي والفول، وأشجار مثمرة كالجوافة والخوخ وشتلات لسان الحمل والقهوة. المنزل عبارة عن كوخ بسيط بلا نوافذ مبني من صخور بازلتية غير مطيّنة، ومن سقف من سعف النخيل. الفناء منزوع العشب ويشكّل مستطيلاً من التراب الأحمر يتوسّطه مطبخ في الهواء الطلق تطهو فيه حساء الجذور عبدة مدغشقرية هربت لدى وصول الرحالة. بعد برهة، خرج رجل من المنزل يحمل في يده مسدّساً خفيفاً، إنه المدعو لوران. بعد أن عرّف ألتام عن نفسه، وضع لوران السلاح جانباً واقترب. كان يمكن أن يكون في العقد السادس من عمره، لكن الحياة كانت قد أعيته، بشرته سوداء مغطاة بالدمامل، يتحدّث بلغة غير دقيقة تخلط الإنكليزية والهولندية بكلمات عربية وهندية. قدّم لألتام زبدية من كحول النخيل للترحيب به،

ثم تحدّثا عن هدف الزيارة: الدودارسن، الفوجيل، طائر الغثيان، الدودو الشهير الذي يتكلّم عنه الكثير من الناس في أمستردام دون رؤيته. أنصت لوران بلطف، هزّ رأسه، نعم، هذا الطائر موجود وهو يملك واحداً في قنّه، فوجيل حقيقي، «والوبيرد» اشتراه في الماضي من بحارة الأميرال حين كانوا يتحضّرون لقتله بغية تقديد لحمه المعروف بأنه لا يؤكل. دون تكلّف، قام الرجل العجوز باصطحاب إيمانويل ألتام إلى القنّ البعيد قليلاً عن الكوخ عبر درب يمر من غابة الأبنوس. في فسحة وسط قنّ الدجاج، شاهد ألتام الطائر للمرة الأولى. لقد كان جامداً لدرجة أنه ظن لوهلة أنه قد خُدع وأن هذا الحيوان قد حُنِّط. قام ألتام، المعتاد من دون شك على خيبات الأمل، بالتقاط حجر مدوّر بحجم بيض الحمام، ورماه أمام الطائر الذي التهمه مباشرة. انتاب ألتام الإعجاب وقرّر شراء الفوجيل وإرساله إلى أخيه إدوارد الذي أسَّس في منزله في إنجلترا مجموعة من التحف النادرة جمعها من مختلف أنحاء العالم، جزء منها أرسله له القبطان ألتام بنفسه. كانت المفاوضات صعبة، فالعجوز متعلّق بطائره النادر، لكن هذه الأوقات صعبة ولا شك أنه كان يخشى أن ينفق. لم يقاوم طويلاً مشهد النقود الهولندية التي وضعها القبطان على الأرض أمامه. عُقدت الصفقة. صنع لوران القفص الخشبي بنفسه، وأخذ كلٌّ من القبطان وألبيوس الصغير على عاتقهما نقله في عربة يد حتى ميناء الهولنديين ومنزل الأرملة جاغر. نظراً لانشغاله، أسند القبطان إلى مساعد جراح يدعى «جون بيرس» مهمة مرافقة الدودو على سفينة «هارت» المتجهة إلى إنجلترا. أمضى لوران بقية اليوم يتأمل طائره النادر الذي لا شك في أنه آخر فرد حيّ من هذا النوع على الجزيرة. قدّم له فاكهة الأبنوس، حفنات فول وقمح، وحبة فاكهة خضراء قشرتها قاسية لماعة، تلك التي يفضّلها الطائر. عندما انتهى من الأكل، اعتدل الطائر الأصلع ولمعت عيناه لمعاناً شديداً، غير مفهوم.

تكلم لوران إلى الطائر أمام ألتام بإصدار أصوات لطيفة من عمق حنجرته كي يجذب انتباهه، لكن طائر الغثيان بقي صامتاً بلا حراك واقفاً على أرجله القوية يحملق بقوة في الرجلين بنوع من التحدي. كما لو كان ملكاً، كان القنّ يعجّ بالحياة من حوله، تلتقط الطيور الحبوب التي أهملها هو. بدت عليه علامات السأم والاحتقار التي لا بدّ أن لوران قد أحس بها. توجّه إليه قائلاً بلهجته: «ستذهب إلى إنجلترا. أترغب بزوجة؟». غمز الطائر بعينه كما لو أنه قد فهم المقال. حلَّ الليل وسينام واقفاً في مكانه، واضعاً منقاره الضخم تحت أجنحته الضامرة، وسيمضي ألتام هذه الليلة في مزرعة لوران. غداً عند بزوغ الفجر، سيرحلون معاً، هو والطائر، ستكون بداية رحلة دون عودة.

كانت السفينة «هارت» تبحر تحت إمرة الأميرال «توماس هيربرت». وضع جون بيرس القفص في عنبر الشحن الأمامي مع رزم القطن وبراميل زيت الحيتان. لم يتكلّف الأميرال عناء المجيء للقاء مسافره العجيب، بل قام بتسجيل ملاحظة في دفتر يومياته كي يقوم لاحقاً بكتابة توصيف دقيق للحيوان يقدّمه إلى الجمعية الملكية.

أبحرت سفينة «هارت» من الخليج الجنوبي الشرقي الكبير في يوم صاحٍ من شهر تشرين الثاني عام 1629 باتجاه ميناء بليموث في إنجلترا. هذا هو الجزء الأخير من رحلة أخذتها إلى الهند وإندونيسيا جاب خلالها توماس هيربرت طرق شبه الجزيرة العربية حتى حدود بلاد فارس بحثاً عن المكان الطوباوي الذي تحدّث عنه في الماضي توماس مور. لم يجد هذا المكان المثالي ولكنه عاد محمّلاً بذكريات وهدايا ستمكّنه من العيش حياة مشرّفة ورغيدة، لذلك، وجود حيوان نادر في العنبر، مهما كان عجيباً، ليس بالشيء الذي كان يثير دهشته.

نصب إيمانويل ألتام وجون بيرس القفص بعناية، وشدّوه بحبال قوية إلى جسد السفينة. بعد بداية الرحلة، قام بيرس يومياً بتفقّد القفص ومراقبة الطائر الذي بدا أن حركة السفينة الدائمة قد أثّرت عليه. لازم الدودو بقعة واحدة، متكئاً على الزاوية الأعمق في القفص، سانداً رأسه على القضبان ونافشاً ريشه. كان يرفض الطعام وحين يقترب بيرس ويده مليئة بالحبوب كان يفتح منقاره ويمدّ لسانه الأسود القرني الشكل، ربما بنوع من التحذير. نظرته لم تكن تعبّر سوى عن الملل والتقوقع على الذات، رأى فيها جون بيرس حزناً، هذا إن كانت الطيور تختبر مثل هذه المشاعر. توقف البحارة والجنود، الذين تجمهروا بفضول حول القفص عند تحميل السفينة، عن الاهتمام بالطائر، فهنالك إشاعة تقول إنه سوف ينفق قريباً. وللأسف خطر لأحد البحارة، بغية إيقاظ الطائر، أن يقوم بنقز الطائر بعصا طويلة، لكن جون وصل في اللحظة التي كان فيها الدودو الذي تملّكه الرعب يحاول الهروب من معذِّبه بحشر رأسه بين القضبان والرفرفة بجناحيه غير النافعين. أزاح جون البحار بقسوة وشتمه، وهدّد بأن يشكوه إلى قائد السفينة. من جراء هذا العراك، مُنع أفراد الطاقم من الاقتراب من القفص من دون تصريح من مرافقه. شيئاً فشيئاً، حاز جون بيرس على ثقة الطائر. بعد عدة أسابيع من الإبحار، اعتاد الدودو على تمايل السفينة، وقبِل أن يأكل قطعة رمّان قدمها له جون بيرس. استحسن الدودو طعم الفاكهة والحبوب التي تحويها، وصفق بمنقاره ليعبّر عن اللذّة. كان ينتظر مجيء سيده كل صباح، ويظهر له صداقته بالهديل وبالصفق بجناحيه الضامرين على خاصرتيه مصدراً صوت قرع طبل يرنّ بغرابة في بطن السفينة. بسبب عاصفة هبّت عند مرورهم في عرض «رأس أقولاس»، جرح خشبُ القفص الطائرَ، فأخرجه جون من سجنه بصعوبة، ومسح جرحه بقماش مبلّل بماء عذب، وسمح له للمرة الأولى بأن يعرج على أرضية العنبر، فيما كان هو يغسل القفص بما

تبقى من ماء. لقد أصبحا صديقين، إن كان بالإمكان استعمال هذه الكلمة لوصف العلاقة بين طائر من عصر آخر وكائن بشري. مشى جون في العنبر وتبعه الدودو بجدية على الرغم من مشيته المترنحة. كان يتوقف عندما يتوقف جون، يميل رأسه وينظر إليه مطولاً كما لو كان ينتظر أن يتلقّى أمراً ما. قال جون: «عُد إلى منزلك!»، فعاد الطائر إلى ملجئه. لم يكن يعرف أن يشرب من الطاسة كما تفعل كلّ طيور القن. كان ينظر إلى قعر الطاسة، يبتعد، يعود، أو يدلق الماء على الأرض. وجد جون الحلّ: غمس قماشة في سطل الماء العذب وقام بسكب خيط رفيع كشلال، فقام الدودو بإمالة رأسه وفتح منقاره ولعق الماء وعيناه نصف مغمضتين. ربما كان لحظتئذٍ يحلم بغابته وفسحته، في الزمن الذي كان فيه حرّاً، عندما كان الماء الصافي الذي يترقرق بين الصخور السوداء يسيل في ظلال الأشجار الكبيرة. بماذا يفكر الدودو؟ بقي جون لحظات طويلة في العنبر أمام القفص المفتوح منتظراً أن يقرر الدودو الخروج، الأمر الذي يقوم به دائماً بحذر، إذ ينظر يميناً وشمالاً ليتأكد من أن لا أحد برفقة جون. يمشي بعد ذلك دائراً في العنبر حول الرزم ويلتقط بمنقاره حبوباً غير موجودة. يحاول نقر الحبال وجدار السفينة وحتى قضبان المعدن المخصصة للحدادة. يطقطق منقاره القاسي على هذه الأشياء. عندما تحين ساعة الذهاب، يتكلم جون برفق إلى الدودو ويدفعه بلطف من جذعه نحو القفص. أحياناً يمثّل الحيوان أنه غاضب وأنه سيعضّ، لكنه يذهب بإرادته إلى القفص الذي يغلقه جون بمزلاق. رأى جون مرات عدة، أثناء رفعه السلم عبر الفتحة في سقف العنبر، الدودو يمد منقاره عبر قضبان باب القفص محاولاً فتح المزلاج، واستنتج من ذلك أن هذا الأبله الضخم ليس بالغباء الذي يظن أنه عليه. يرى جون مشهد اليأس هذا كل مرة ينصرف فيها: يحملق الحيوان فيه بعينيه الدائريتين دون إطلاق أي صرخة. يبقى بلا حراك في القفص، ظهره

محنيّ ورأسه بين كتفيه. في اللحظة التي يغلق فيها جون الفتحة، يخفي الدودو رأسه تحت جناحه ويخلد للنوم.

بعد أن قطعت خط الاستواء، أصاب السفينة خمول نتيجة خمود الرياح التي باتت متقطعة تصفق بالشراع الكبير المتهدل. تجمّعت الغيوم وشكّلت طبقة ضبابية سميكة وحارة، فأصبح الهواء في العنبر ثقيلاً غير صالح للتنفس. سمح رئيس البحارة لطاقمه بالنوم على السطح كيفما اتفق وسط الحبال والأشرعة. ساء مزاج الدودو في قفصه، راح يصفق بمنقاره وأجنحتِه ويطلق من وقت إلى آخر نحيباً حاداً. عضّ قضبان القفص وانتزع منها شظايا. أعطاه جون بيرس هامش حرية أكبر، لكن لم ينجح ذلك في تهدئته؛ فتحة السقف المستطيلة البيضاء تناديه. مال رأسه للخلف وراح ينظر إلى السماء التي تهبط منها النسمات الحارة، وركض نحو جوانب العنبر يضربها برأسه محاولاً ثقبها حتى أصابه الإعياء. حاول جون أن يجعله يشرب بعصر القماشة المبللة في منقاره، لكن هذا أيضاً لم ينجح في تهدئته. ظن الدودو أن نهايته قد حانت، فانتفض جسده كله ضد هذه الحتمية وراح يعدو بين رزم القطن بسرعة مثيرة للدهشة مقارنة بوزنه، وأخذ يقفز بين العوائق كما كان يفعل على صخور أرضه في أسفل الوادي، لكن هنا ما من جدول ماء منعش، ما من ظلال وما من فسح تتمختر فيها إناث بريشها الأشقر.

الانجذاب نحو السماء خارج العنبر كان من القوة بمكان أن الدودو حاول فجأة أن يصعد السلم الذي يؤدّي إلى الهواء الطلق. صفق بجناحيه وغرس مخالبه في القضبان من دون جدوى، فهو سمين وقليل الرشاقة، سقط أرضاً في مشهدٍ كان سيبدو مضحكاً لو لم يكن يعبّر عن مأساة حقيقية. استسلم للحظة وظلّ واقفاً في وسط العنبر الخانق، فاتحاً منقاره

وعيناه تغلّفهما غشاوة شفافة أضفت زرقة على نظراته مثله في ذلك مثل فاقدي النظر.

إنه الصباح. تحلّق الرجال حول مقدمة السفينة جالسين على السطح جنباً إلى جنب، وقف البحارة الشبان والمتقدّمين في السن والبحّارة المبتدئون وبعض الضباط على منصة المؤخرة، يلبسون ملابسَ خفيفة ويعتمرون قبّعات تقيهم من لسعات أشعة الشمس. سمح السيد توماس هيربرت لهذا العرض المسرحي بأن يحصل، لا بدّ أن إلحاح جون بيرس قد رقّق قلبه، وبما أن حركة السفينة أصبحت بطيئة، فكر بأن يطلق العنان لفضوله كي يسجّل بعض الملاحظات في مفكرته. ألا يقال إن الدودو أصبح نادراً كالعنقاء؟ ينوي الأميرال أن يحصل على شيء من المجد لسماحه لهذا الراكب الشهير بالسفر إلى إنجلترا على متن مركبه.

ظهر الممثّل على الخشبة في حوالي الساعة العاشرة. حمل بحّاران القفص الثقيل إلى السطح، فُتح الباب وخرج الطائر بحذر. أذهله نور الشمس وراح يغمز بعينيه، تقدّم بضع خطوات وهزّ رأسه رداً على التحية الساخرة التي لاقاه بها المشاهدون. أخذ ريشه يعكس ومضات خضراء تحت ضوء الشمس، وتموّجت ريشات رأسه السوداء والبيضاء بفعل الريح. اتسعت الدائرة التي شكّلها البحارة فاسحة للطائر أن يمشي مشية السيناتور البطيئة خاصته. انحنى نحو الأرض بحثاً عما يلتقطه. بدأ عندئذٍ العرض: أخرج جون بيرس من كيس حبوباً وبسكويتاً وأوراقاً مجفّفة ورمى هذه العطايا وهو يمشي إلى الخلف. تقدّم الدودو نحوه وراح يلتقط ويبصق ويلتقط من جديد. نظر إلى دائرة الرجال من دون أي خشية. غمرته ريح البحر، دخلت في منخريه وجعّدت شعر لحيته. أغمض عينيه من السعادة وناغى معبّراً عن سعادته بإطلاق الدو-دو-دوو التي منها جاء اسمه. صاح البحارة: «أيأكل حقّاً الحديد؟». أخرج جون من كيسه قطعاً معدنية صدئة

ورؤوس مسامير وبرادة حديد الصهر، فابتلعها الدودو في الحال. صفق الرجال وضحكوا بصوتٍ عالٍ. توقف الطائر واعتدل كما لو أنه كان يقول لهم: «أرأيتم ذلك؟». رمى رجل برصاصة بندقية تدحرجت باهتزاز على سطح السفينة وتعرج مسارها مع تمايل السفينة، تمكن الدودو بقفزتين من أن يصل إليها ويبتلعها بعد أن أمال رأسه على كتفه. صاح البحارة: «هووورا!». حتى توماس هيربرت العظيم الواقف في ظلّ المنصة الخلفية تنازل عن كبريائه وضحك. إنه يفكر بما سوف يكتبه. حصل هذا هنا في كانون الأول من عام 1629 على ظهر سفينة هارت في مكانٍ ما في محيط ثقيل مياهه حمراء كالنبيذ. إنها رحلة الدودو الأخيرة وربما لا أحد يعلم بذلك إلا هو. هو الذي ينظر إلى خط الأفق من بين أرجل البحارة، مدركاً أنه لن يعود أبداً إلى واديه.

على ضوء قنديل في قاعة الخرائط، بدأ توماس هيربرت كتابة ملاحظاته: «أول الطيور هو طير الدودو الموجود هنا كما على جزيرة دييغو ريس. أطلق البرتغاليون على الطائر هذا الاسم لبساطته وكانوا ليطلقوا اسم العنقاء عليه لو كان يعيش في الجزيرة العربية نظراً لندرة الطيور التي بحجمه وبشكل وجهه. لديه جسد ممتلئ، كثير الشحوم إذ لا يوجد فرد من نوعه يزن أقل من خمسين ليبرة. هذه السمنة مردُّها حركة الطائر الثقيلة. وقع مشاهدته على العين ألطف بكثير من وقع لحمه على المعدة على الرغم من وجود أناس متحمّسين لأكل لحمه القاسي، السيّئ المذاق».

يعتدّ السير توماس بأنه مؤرخ موهوب، لكنه يرتجل في وصف الطائر المسافر على متن سفينته: «الحزن واضح في عينيه، وهو نابع دون شك من أن الطبيعة منحته أجنحة صغيرة جداً لا تتلاءم وجسده الضخم، لا تستطيع أن ترفعه عن الأرض ولا تفيد سوى بإثبات انتمائه لجنس الطيور». لكنه

استدرك وعاد إلى الوصف الموضوعي الذي تنتظره الجمعية الملكية من باحث خبير: «شكل رأسه يخرج عن المألوف، فهو مغطّى في أحد جانبيه بزغب أسود، وأصلع أبيض في الجانب الآخر، كما لو كان هذا الجانب مغطى بقماش رقيق شفاف. مؤخرته مدوّرة ينبت فوقها ريش أخضر زاهٍ ممزوج بريش أصفر شاحب. عيناه مدوّرتان وصغيرتان تلمعان كالألماس، لكن لا شيء يوحي بالحيوية فيهما. ريشه كله عبارة عن زغبٍ ناعم كالذي يغطي الصيصان، إلا ذنبه الذي يتألف من ثلاث إلى أربع ريشات تشبه الشعر في لحية أهل الصين. أقدامه ثخينة، سوداء وقوية، مخالبه حادة ومعدته قادرة على هضم الحجارة والحديد. يشبه النعام في الكثير من صفاته».

تسود العتمة هنا والجو بارد، الهواء جامد لا يتحرك ومشبع برائحة الفحم، الجدران الخالية من النوافذ تغطيها الطحالب. الأرض المبلّطة غدّارة، زلقة. يجب المشي بخطوات صغيرة مع عرج. المخالب تخرمش الأرضية لكن لا تغرز فيها. ليس هنالك من تراب ولا من نعومة.

لا يأتي أحد إلى هنا. كان رجلٌ يُحضر الطعام مرّة في اليوم في الصباح أو المساء. رجل طويل ونحيل، وجهه أبيض، يعكس شنبه بلون ناريّ الضوء الداخل من الباب المفتوح، لكنه لا ينظر إليه مباشرة، لا ينظر أبداً أمامه. يرمي حفنات من الحبوب ويكنس الروث بمكنسة من الجذور وينصرف. تتسرّب مياه الأمطار من المزراب إلى فتحة التهوية مشكّلة سيلاً صغيراً متقطعاً. إنه ماء قابل للشرب ولكنه حامض الطعم يجب التقاطه ولعقه من على الجدار بسرعة. يأتي الرجل مرة واحدة يومياً. لا يقول شيئاً. لا يتكلّم ولا يغني. يتوقف عند العتبة ويغلق الممر بمكنسته. يرمي، من دون غاية معيّنة، حصى صغيرة تتدحرج على الأرض ينتهي الأمر بها في

الزوايا. في أحد الأيام، فُتح الباب ودخل النور إلى عمق القبو، خرج الطائر المذهول نحو الضوء فرأى رجالاً ونساء وأطفالاً، ليس على ظهر السفينة، بل في الباحة الباردة الرديئة المغطاة بثلج وسخ تحت سماء بيضاء وردية. كان يمكن أن يكون ذلك في الماضي، في الفصل الذي تمطر فيه السماء في الوادي لكن ما من مطر، والسماء كانت حزينة وجامدة. لا شيء سوى رائحة الفحم، ذلك الغبار الذي يدخل الجسم ويسبب السعال. بدأت الحجارة تتساقط بعدها في الباحة. إنهم الرجال والنساء والأطفال يرمون الحجارة، قطع الحديد الصغيرة، المسامير وقطعاً نقدية من البرونز، تتدحرج مصدرةً أصواتاً حادة مخيفة. الكل بقي ثابتاً يتفرج في الباحة في حين كان الرجل الشاحب يصرخ معطياً الأوامر: «كُلْ! كُلْ!». كان الرجال والنساء والأطفال يصرخون أيضاً ويلوّحون بأذرعهم. لكن لا حياة في الحجارة، كانت تقع على أرض الباحة ولا تتحرك. أحدهم بدأ بالأمر، حبّاً باللعب أو تعبيراً عن غضبه، وقام برمي حجر، حجر شرير يقضم ويسيل الدماء، حجر يهدف إلى القتل، كما في الماضي حين كان البحّارة يصطادون في الخليج وتتساقط الطيور دون أن تفهم ما الذي أصابها. تبعه آخرون قاموا برمي حصى وقطع حديد في هطلٍ قاتل. تولّد الخوف حينها، لكن ما من مهرب وما من مخبأ. تولّد فراغٌ كبير فجأة، ثقب في عمق الجسد، توقف القلب عن الخفقان، وعن مدّ القوائم بالطاقة للعدو، والأجنحة لتصفق على الخواصر، أصبح المنقار ثقيلاً وهوى على الأرض. اللسان ناشف ومرّ والعينان مغمضتان. للحظة أصبح كل شيء جليّاً وهادئاً. انحنت الأشجار وعزف الجدول موسيقاه، الشمس خفيفة والنسيم عليل، وعلت أصوات العصافير التي تغني تهاويدها، وصدى الجروف الصخرية الزلقة، كووكوو، تمازجت الأصوات مع قرع طبول الأجنحة، لقد عاد دودو إلى جزيرته، إلى الأبد.

أصبح كلّ شيء بعد ذلك حالكاً. عجّت أرضية القبو الفسيحة والباردة بالحشرات وأيضاً بحيوانات الماضي، تلك التي كانت تأتي إلى الفسحة والتي يجب قتالها لحماية العش، لحماية الصغير. كان ذلك ضرورياً. لكن ما من عشٍّ هنا، ما من أطفال. البلاطة هنا لا نهاية لها، لا تسمح للعشب أو التراب أو الأشجار بالمرور. لم يعد يدخل الهواء، لم يعد يمرّ خلال الحنجرة ولا الأنف، ولم يعد يداعب الزغب المتمايل والريش البديع، لم يعد يضيء العينين. ظلَّ الدودو في مكانه متمدداً على الحجارة، ينتظر ما سوف يحصل.

كتب «هامون لاسترانج» في يومياته في لندن عام 1638:

كان الطائر مسجوناً في غرفة وكانت له هيئة الطريدة، أكبر بقليل من أضخم فرد من دجاج الهند، كما أن قوائمه أقوى وأسمن ومشيته أكثر استقامة. لونه يذكِّر بلون الدجاج البري الذكَر، لكنه فاتح أكثر من جهة الظهر. لتسلية الزوار كانوا يُطعمونه حجارة.

حين عاد إدوارد ألتام إلى لندن بعد غياب دام أسبوعين بداعي الأعمال، علم بالخبر المحزن من خادمه. في ظلمة القبو، كان طائر الدودو ممدداً على طوله، قوائمه القوية محنية إلى الوراء، عنقه النحيل ممدود، ويخرج من منقاره لسانه الأسود. عينه كانت قد غارت وأكلت الحشرات جزءاً منها. شكّل الريش الباهت كفناً جنائزياً، وتلطّخت ريشات ذنبه الطويلة بالروث وقذارة الأرضية. عبقت رائحة كريهة في القبو، رائحة موت دفعت ألتام إلى التراجع إلى الوراء.

على الرغم من زيت التربنتين ومغاطس الخل، لن يستطيع محنِّط الحيوانات الحفاظ على الجثة بكل جمالها. لقد عبرت القرون كأجزاء

حتى وصلت إلى واجهة مجموعة تحف «جون ترادیسانت في لامبيث»، ومن ثم إلى متحف «إلياس أشمول» في أوكسفورد. على الرغم من كل العناية، التحلُّل ما زال مستمراً ويوماً ما ستأخذ إدارة المتحف القرار بحرق بقايا الطائر كي تستعجل اندثاره المحتوم.

نحو الجنوب

اسمي دودو، مجرّد دودو، غايتي أن أصل إلى البحر، ولا أريد شيئاً آخر. هنا أو هناك، أليس الشيء نفسه؟ نشهد البحر يتغيّر ورغم ذلك فهو البحر نفسه. أنظر إلى الأفق، وأظن أن الأمر سهل، يكفي أن نسبح مثل السمكة لنصل إلى هناك على الجزيرة. أحب المرفأ. أحب كل المرافئ. في «نيس»، في «بور لويس»، المرافئ تتشابه. إنها عبارة عن سفن من حديد صدئ، وسفن نقل الحاويات اليابانية أو الصينية، أو من أمكنة أبعد كذلك. هناك سفينة الشحن التركية، اسمها «يلديز»، سألت بحاراً: «ما معنى اسم سفينتكم؟»، أجابني: «معناه النجمة». أحب كثيراً هذا الاسم. هناك سفن أخرى جزائرية، يونانية، إسبانية، برتغالية. في الشتاء، في بعض الأيام، تأتي سفن الصيادين من سيت وتونس، وتولون. يلقي الرجال على الرصيف أسماك التونة، يقطعونها وينصبّ الدم كالأنهار في البحر مشكِّلاً نوعاً من الغيوم الحمر في مياهه. قلت للصيادين: «هل بإمكاني العمل معكم؟». نظروا إليّ وسخروا مني قائلين: «عُد غداً، لو كان هناك عمل سنشغّلك». ولكن عندما أتى الغد كانوا قد عادوا إلى البحر.

الطريق طويلة من هنا إلى البحر. صحيح، أنا رحلت قطعاً بلا عودة، هذا ما قلته لفيكي على باب المطار قبل أن أرحل عن الجزيرة. لكنها لم

تصدّقني. قبّلتني وشممت الرائحة الناعمة لبشرتها وشعرها الأشقر. الطريق طويلة للوصول إلى ذلك المكان الذي لا حركة فيه، ذلك المكان الذي لا أمكنة من بعده. هذه هي الحياة، ترحل ولا تعرف أين نقطة الوصول، ولا متى تصل. حياتي هي ضربة حجر (كو دو روس)، الحجر يطير في السماء دون أن يمسّ شيئاً، ويرسم دائرة كبيرة في السماء. وعلى الرغم من ذلك فهو لا بدّ أن يعود ويسقط على الأرض، يتوقف حيث يكون قدره أن يقف. الفتاة ذات الشعر الأشقر معنا، في الخلف قليلاً. تركت عائلتها وغجر باب الشرق، وسارت معنا، هي تشبه العصافير التي تتبع مركباً، وذلك لأنها تتبعنا لمجرد أننا ذاهبون إلى مكانٍ ما دون الحاجة لمعرفة أين نذهب. لم تحمل أمتعة، مجرد ثيابها، بنطال الجينز الباهت والممزق، والسترة النايلون، ووشاح حول العنق. أما بشير فقد قال إنه يعرف إلى أين يتجه، قال هذا على الطريق على طول الحفر. حمل بشير حقيبة ظهره المدرسية، فيما حملت أنا خيمة كيستريل الزرقاء، ولكن المطر والشمس محَوَا العصفور الأبيض عنها. قال: «أنا عائد إلى موطني!»، «وأين هو موطنك؟»، ردّ: «موطني هو في تلمسان في الجزائر، التي على الجانب الآخر منها، خلف الجبال، هناك وجدة في المغرب. يجب أن أقضي أيامي الأخيرة هناك». أقول له: «لماذا تريد أن تموت؟»، فكّر وقال: «بسبب مرضي، الطبيب في المشفى قال إني سأموت قريباً بسبب رئتي، لأني أدخن الكثير من السجائر». أضاف بشير: «يا دودو، لمّا عزفت البيانو في سان جرمان ان ليه، سمعتك وبكيت، أيقنت أني سأركب السفينة معك، لأعود إلى تلمسان، حيث عائلتي. دودو، لقد استمعت إلى ثرثرة الأب أنطوان، وهو يقول إننا كلّنا إخوة وإلى ما هنالك، ولكن عندما عزفت أنت على البيانو، عرفت أنه قد آن الأوان، يجب أن أسير معك حتى البحر، أريد أن أجد مكان موتي». قلت له: « بشير أنت غبي لأن مكان موتك غير موجود، إنه أيُّ مكان، لا يمكنك أن تجده وذلك لأنك

عندما تموت لا تعود تبحث عن أي شيء». كما أضفت: «إن الأسماء التي تُكتب على القبور هي الأخرى لا قيمة لها لأن الهواء والمطر يمحواها، ولا يبقى أيٌّ شخص في بطن الأرض». ولكنه لم ينصت لي. سرنا ثلاثتنا، الواحد خلف الآخر، والشاحنات تمرّ وهي تزمّر بصوت عاصف، وتقذف على وجوهنا مجموعة من الحصى الصغيرة. إن سائقي الشاحنات لطفاء رغم ذلك، فهم يُركبوننا أحياناً معهم. بشير هو الذي يذهب إلى مواقف محطات الوقود، ويختار الشاحنات التي يحبّها، الحمراء المكتوب عليها «نوربير ديتريزانغل»، أو الزرقاء والصفراء «وابرير». يتكلّم قليلاً مع السائق، وعندما يوافق هذا الأخير يعطيني الإشارة وآتي حاملاً كيس خيمتي، ولكن عندما يرى السائق وجهي يكشّر ويقول: «نجّنا يا الله!» أو «شيس!» وهذا يعني بالألمانية خراء. وبعد ذلك يرى السائق الفتاة ذات الشعر الأزرق فيغيِّر رأيه ويقول: «آه، جيّد! اركبوا في الخلف تحت الغطاء، ولكن الفتاة ستركب في المقصورة معي». في الشاحنة، نام بشير فوراً بينما كنت أتفرج على الطريق الذي يسير إلى الخلف وأنا سعيد، فأنا مسافر نحو الجنوب، ولن أعود. بعد ذلك توقفت الشاحنة وتحدّث بشير مع السائق، حكى له كيف هي الحياة في بلده، ولكني أعرف أنه كان يكذب، كيف له أن يتذكر ذلك المكان، فقد غادر مع أبيه عندما كان صغيراً جداً، بعد الحرب، وأقاما في مخيّم الحركي في جنوب فرنسا، كيف يمكنه أن يعرف كل هذا؟ لقد عرف لأنه قرأ هذا في الكتب، والباقي يتخيّله، ولشدّة ما رواه انتهى به الأمر أن صدق ما كان يقول. «وأنت؟» سألني السائق. أنا لا أعرف تخيُّل القصص، ولذلك ولكي أضحكه لعقت عيني بطرف لساني كما كنت أفعل عندما كنت الرجل السحلية في الملاهي. أُعجب السائق بهذا، ودعانا نحن الثلاثة إلى الطعام في استراحة السائقين، لكي أعرض أمام الآخرين ما أستطيع فعله، ولكن السائقين قالوا إن الأمر ليس بالصعب،

بما أني فقدت أنفي صارت عيني قريبة من لساني. حاولوا التودد للفتاة، لكنها لم تردّ لأنها كانت صمّاء، وحاولوا أن يلمسوها لكنّها ردّت عليهم بالضرب. كنا في الصيف، في الليل كنا ننام في حفر، أنا معتاد على ذلك، ولكنها أول مرة يكون فيها بشير في الريف، فقام بتغطية رأسه في كيس من الورق فيه فتحات للتنفس، وشدّ قبّعته الصوفية حتى عينيه رغم الحر، حتى لا يرى السماء والنجوم فوق رؤوسنا. ضحكت الفتاة ذات الشعر الأزرق من رؤية رأس بشير في الكيس. نامت بجانبي ووضعت رأسها على ركبتي. لمّا شعرت أنها استسلمت للنوم، رحت أداعب برفق شعرها الأزرق، شعرها ليس ناعماً، لكنني أحب أن ألمسه. ولمّا آلمني ظهري استلقيت على الأرض فالتصقت الفتاة بصدري، وأغلقت سترتي عليها كي لا يصلها بلل ندى الصباح. شعرت بحرارة جسدها فانتصب قضيبي. لم يعد بوسعي عندئذٍ الاستمرار بالاستلقاء بجانبها، فذهبت للجلوس في مكان أبعد. في أحد الصباحات، كان بشير أبيض اللون ولا يتحرك، صرخت: «هييه هوم! بشير، بشير! لا تقلِّد الموتى!»(*). لكنه بقي على الأرض في حقل القمح، يداه باردتان، وشفتاه زرقاوان. صرخت بأذنيه: «لا تمت يا بشير!». خافت الفتاة وأرادت أن تعدو هاربة. فتح بشير عينيه في نهاية الأمر، عيناه كانتا مضطربتين، لونهما أخضر وسخ، وجفونه ملتصقة بسبب الدموع. أجابني بلغة بلده بشيء لم أفهمه. أدفأته الشمس وقمت بفرك رجليه وصدره. وقف، حمل حقيبة ظهره وعاودنا السير. لم يتكلم، ولا أنا، تابعنا فقط السير نحو البحر. لهذا السبب كنا نسير، لنذهب نحو البحر، إلى مكان حيث لن نحتاج بعده إلى أن نسير. في المساء، وصلنا إلى وادٍ فيه نهر جميل أسفل جبل أبيض تنيره شمس المغيب مبيّنة فتحات الكهوف، قلت لبشير: «سنقضي الليل فوق في الكهوف، ولن يزعجنا أحد». في

(*) باللغة الكريولية في النص.

الطريق، قال لنا فلاح: «في الأعلى هناك قرية لي باربو (الملتحين)، هكذا يسمّون، بإمكانكم الذهاب إلى هناك، إنهم أشخاص جيّدون». توجهت مع بشير لعند «لي باربو»، ولحقت بنا الفتاة. سرنا على طريق من الحجارة حتى وصلنا إلى الكهوف، وهناك رأينا القرية، ليست تماماً قرية وإنما أكواخ داخل كهوف. خرج أهالي «لي باربو» من رجال ونساء وأطفال، لم يكونوا غجراً مثلما رأينا في باب باريس، كانوا يرتدون لباساً أبيض، وشعرهم طويل. اتجه نحونا شابٌّ ملتحٍ وقال: «أهلاً وسهلاً بكم في لارش (السفينة الضخمة)، اسمي جوناس (يونس)». قبّل بشير، وقبّل الفتاة ذات الشعر الأزرق ورأيت أنه ابتسم لها. لكنه لم يقبّلني أنا، بسبب وجهي. ربما كان يتهيأ له هو أيضاً أننا كلّنا إخوة وأخوات. راقبَنا الأطفال، لم يقتربوا لأنهم خافوا مني، لعقت عيني عندئذٍ بطرف لساني فضحكوا. قدّموا لنا الطعام، رز ولحم خاروف، وشاي الشعير، كان الطعام طيّباً. بعدها زوّدونا بفرشات من قشّ. في الكهف كان يسكن رجال ونساء آخرون، وبما أن بشير كان متعَباً بسبب مرضه، فقد نام، أما أنا فبقيت مفتوح العينين عند مدخل الكهف أعدّ النجوم. أما الفتاة ذات الشعر الأزرق فقد نامت متكئة عليّ كالعادة. كان هناك هطل الشهب، فقال الشاب الملتحي الذي يعتقد أننا إخوة: «إنهنّ الحوريات». لم أعرف ماذا كان يعني بهذا. قلت: «هل تسقط النجوم على الأرض؟». ضحك جوناس قليلاً: «لا، لا، إنها عالية جداً في السماء، تحترق قبل أن تقع». كان جوناس معتدل الطول، نحيلاً، وشكله طفولي رغم لحيته وشعره الأشعث. قال: «غداً ستلتقون بالجد». قلت له: «أنا لا أعرف جدي، لقد مات منذ مدة طويلة في مكان ما على جزيرة قبل مولدي، وزوجته هي جدّتي بيث». شرح جوناس: «ليس فعلاً جدّنا، ولكنه عجوز لذلك نسميه الجد. وهو الذي يقود لارش. أتفهم؟».

وأضاف أيضاً: «ألا تنام؟». فهززت رأسي. قال: «نحن ننام باكراً مع غياب الشمس، ونقوم باكراً مع الشمس، ليس لدينا كهرباء هنا». قلت: «حسناً»، ورأيت في السماء هطلاً من أضواء صغيرة مجنونة، تلك النجوم التي في نهاية حياتها. داعبت برفق الشعر الأزرق للفتاة التي تنام متكئةً عليّ.

قال جوناس: «غداً، سيكون الجد بانتظاركم في أعلى الطريق المؤدي إلى الساحة». كان الجد هو الآخر يرتدي ثياباً بيضاء مؤلّفة من بنطال عريض وقميص طويل دون أزرار، وينتعل صندلاً من الحبال. تكلم مع جوناس، ثم أشار إلينا، بشير أولاً، ثم إلى الفتاة ذات الشعر الأزرق وأخيراً إليّ، اقترب وابتسم لي وقبّلني، ثم حضنني بين ذراعيه دون خوف. لم يسبق أن تكلّم أحدهم عني لأحدهم، لا أحد يعرف من أكون. ربما حلم أننا سنزوره وها نحن نزوره. كرّر أيضاً مرة أخرى: «أهلاً بكم جميعاً في لارش». أمسك الجدّ يدي، كانت يده جافة وساخنة، ولكن قبضته قوية، كان جميلاً بلحيته البيضاء وشعره الطويل النظيفين بلون الثلج. ثم عقد اجتماعاً، وكان يكلّم الجميع، ولكن في لحظة ما مرت طائرة في السماء، في الأعالي، على طرف غيمة، ولم يكن الجدُّ سعيداً بهذا، فصرخ بشيء ما بلغته الإيطاليّة، صاح: «الشيطان! الشيطان!». وفي الوقت نفسه حرّك قبضتيه ليبعد الطائرة. لا أعرف لماذا فعل هذا، ولكن يبدو أن جوناس يعرف، لأنه هو الآخر قام بتحريك يديه ليطرد الطائرة، لكن من دون جدوى. أكملت الطائرة مسارها في السماء وذهبت بعيداً، تخيّلت أنها اتجهت إلى جزيرتي، ولكني لم أقل شيئاً بهذا الخصوص، فما الفائدة من ذلك؟ في ساحة صغيرة أمام المغاور، افترش الناس الأرض للاستماع إلى الجد. جلست الفتاة ذات الشعر الأزرق أمام جوناس، على الرغم من أنها لم تكن تسمع ما يقوله الرجل العجوز. بدؤوا يعزفون موسيقاهم على طبلٍ صغير وناي، أحببت سماع

موسيقاهم، كانوا يصفقون بأيديهم وهم يحركون رؤوسهم، ورأيت الفتاة الشابة تصفق أيضاً بيديها، لم تكن تسمع الموسيقا ولكن وجهها كان صافياً ومبتسماً، بدت عليها السعادة لأنها مع هؤلاء الناس البريئين، لقد وجدت جدّها، ووجدت جوناس. أظن أننا جئنا إلى هنا من أجلها، لكي تصفق بيديها لمرافقة الموسيقا مع أنها لا تسمع شيئاً، وهذا كان يعصر قلبي لأني كنت على يقين أن رحلتها تنتهي هنا، بينما نحن الاثنان، أنا وبشير، سيكون علينا أن نكمل طريقنا سيراً نحو البحر.

غضب بشير وقال: «هذا مكان سيّئ، هناك سارق، يريد أن يحرق خروفاً لكي يحضّر المشاوي». سألته: «أين هو السارق؟». قال بشير: «إنه تحت مع البنات». نزلنا الطريق لكي نرى. كان قصير القامة أجعد الشعر، يشبه قليلاً «سكامبورلو»، وليس له هيئة الحرامي. لكن بشير قال: «أنا أعرفه، إنه سجين يختبئ هنا عند الملتحين لكي يهرب من الشرطة، ولكي يضاجع الفتيات، وهو لا يبالي بالرجل العجوز وبقرية لارش». قلت له: «ماذا بإمكاننا أن نفعل؟». غضب بشير: «بسبب السارق ستأتي الشرطة، يجب علينا الرحيل من هذا المكان فوراً!». ولهذا هربنا قبل حلول الليل، دون أن نودّع الجد. رأتنا الفتاة ذات الشعر الأزرق ونحن نأخذ أكياسنا، لكنها لم تحرك ساكناً، لن تأتي معنا. عادت إلى المغارة مع الصبي الذي يظن أننا إخوة، الذي كان يعزف على الغيتار من أجلها. من الواضح أنهما مغرمان أحدهما بالآخر، لقد انتهت الرحلة بالنسبة لها، ستبقى مع جوناس في «لارش»، ستعمل معه في الحديقة وفي مزرعة الخرفان، سترتدي اللباس الأبيض، وستنام متكئة على جوناس حتى لا تخاف في الليل. هذا قدرها، أيمكننا أن نفعل شيئاً ضد القدر؟

البحر

بعد ذلك وصلنا إلى ميناء «نيس» وهي أجمل مدينة في العالم، بقينا في الليل قرب الدرج، وفي الصباح جلبت لنا الأخت سيمون، هذا هو اسمها، القهوة في ترمس مع شرائح خبز مدهونة بالزبدة. ولكن في الليل أتى المفسدون إلى الرصيف، هاجمونا وانكسر ذراع بشير، وتذكّرت أنه حصل لي الشيء ذاته في المقبرة الغربية عندما التقيت بفيكي. في المستشفى، اعتنوا ببشير وأعطوه دماً لأنه لا يملك منه الكثير، ولم أستطع أن أتبرّع بدمي بسبب مرض Σ التعيس الذي نقلته لي زبيدة، فدمي لم يعد صالحاً منذ زمن بعيد. أظن أن بشير قد مات لاحقاً بسبب الضربة التي تلقاها على رأسه في الليلة التي ضربه فيها المجرمون ضرباً مبرحاً، لأنه توفي في ليلة أخرى وهو نائم جراء نزيف داخل جمجمته، ولكني لا أستطيع أن أجزم لأني لست طبيباً.

إنها نهاية الرحلة، لم أعد أحتاج إلى السير، أبداً. بقيت في المرفأ، في مكاني بين الحاويات، أسمع صوت مرور الهواء بين الألواح الخشبية، وأصوات الشاحنات التي تنقل الأسمنت، وصرير الرافعات، وفي بعض الأيام صراخ الأطفال الذين ينتظرون وصول العبّارات. بشير هو الآخر لن يسافر بعد الآن. هناك، على الجانب الآخر، في بلده الواقعة على حدود تلمسان، تنتظره عائلته ولكنه قد مات. مات في المرفأ، دون أن يقول

شيئاً، وهو مستلقٍ على قطعة الكرتون، وقبعته الصوفية تغطي عيونه، وعلى وجهه الكيس ذو فتحات التنفس، لكنه لم يعد يتنفّس. لم أصرخ باسمه، لم أقُل: بشير! لم أنفخ في فمه. توفي مثل أبي حين صارت بشرة وجهه بيضاء بالكامل، عيناه مفتوحتان من دون أن يستطيع الرؤية، فمه جاف وأسود، والبرد قد استقر في يديه وفخذيه، بينما باتت شعرات لحيته الرمادية بلا حراك.

قلت للسيدة الشرطية: «توفّي بشير يا سيدتي». نظرت إلي وقالت: «من يكون بشير؟». قلت: «إنه هناك على رصيف المرفأ، لا يتحرك وبارد». فقالت لي: «أرِني إياه». ثم قالت: «أهو صديقك؟». رددت قائلاً: «لا يا سيدتي، ليس لي أصدقاء». رافقتني إلى رصيف المرفأ، قلت لها عندئذ: «على بشير أن يعود إلى عائلته». نظرت إليّ أيضاً: «حسناً، لكن صديقك لن يذهب لرؤية عائلته». قالت هذا بصوت حزين، حقاً حزين، أو أنها لم تكن تبالي، وقالت ذلك لمجرد أنه كان عليها أن تقول شيئاً. وصلت سيارة الشرطة الزرقاء وكذلك شاحنة صغيرة بيضاء مع ممرضين. حملوا بشير على نقّالة واتجهنا جميعاً إلى المستشفى. انتظرت في الممر بجانب بشير لأنه لم يكن له سرير، احتفظت بحقيبة الظهر خاصته مع خيمة كيستريل خاصتي وغادرت. مررت بجانب مكتب الاستقبال وخرجت إلى الشارع ولم يوقفني أحد. أشرقت الشمس في الخارج، كان الهواء البارد يسقط أوراق الشجر، كان ورق الأجمات أحمر، لقد أقبل الشتاء. حوّلوا بعد ذلك بشير إلى المقبرة الجماعية، هذا ما يفعلونه للذين لا عائلة لهم. يضعون الجسد في تابوت من ألواح خشب، ثم يصبّون عليه الجير الساخن. لا يكتبون اسماً على حجر ولا أي شيء. بالنسبة لي سيكون الأمر على هذا الشكل أيضاً. ولكن هذا لا يهمّ، فبماذا ينفع القبر؟ هناك في موريشيوس في مقبرة «سان جان»، وفي المقبرة الغربية، ينسى السادة البيض الكبار موتاهم،

فلا يزورونهم، ولا يرممون البلاط، ولا ينظفون الفراغات بين البلاطات بفرشاة أسنان مغطسة بالماء المالح لكي يُزيلوا الفطور، ولا يعيدون كتابة الأسماء بالقلم الأسود. وقتئذٍ يقوم السيد زان باستخدام دهانه الرمادي، دهانه الملعون، ويكتب الأسماء كيفما اتفق، عائلة الآنسة «ستيركس»، السادة «رابوام» و«الفيلسن» والسيدة «لاروس». لا فائدة من القبور.

لا شيء في حقيبة ظهر بشير. مجرد أوراق، وكتاب كبير أخضر مكتوب بلغته، وحتى لو لم يكن يؤمن بالله لكن هذا الكتاب كان دائماً يرافقه وكان يريني إياه أحياناً، ولكني لا أعرف ماذا يحتوي، لا أعرف صلوات الله(*). لديه أيضاً بطاقة مع صورة، ولكنها ليست صورته، بل صورة رجل نحيل مع شارب أسود، هي بطاقة تعريف خاصة بالجيش الفرنسي صادرة بتاريخ 1958، والبطاقة تفيد بأنه كان عسكرياً سابقاً ولا شيء آخر. أظن أنها كانت تعود لوالد بشير الذي كان حركياً، لم يمت في الحرب وإنما في فرنسا، في معسكر احتُجز فيه المحاربون القدماء. لم يكن في حقيبة بشير أي مال أو جواز سفر، لا شيء يمكن له أن يكون مفيداً. في كيس ورقي صغير، وجدت رصاصة مغلّفة بالقطن، وسخة بعض الشيء وسوداء، كان يريني إياها في بعض الأحيان، إنها الرصاصة التي دخلت في خدّه سابقاً في الجزائر، والتي أزالوها في المستشفى العسكري وأعطوه إياها، فاحتفظ بها طوال حياته في حقيبته. احتفظ بها ملفوفة بالقطن كما نحتفظ بسنٍّ يسقط، وربما مات لهذا السبب، لقد سافرت في دماغه. ولكن ربما تخيّل بشير كل هذا، وما كان هذا الشيء في حقيبته إلا رصاصة وجدها على الأرض، وبما أنه ميت الآن، لا أستطيع أن أسأله عن الأمر. بعد الذي حدث، لم أعد أبقى في المرفأ ليلاً، صرت أذهب للملجأ بالقرب من السوق عند الأخت «هنري»، هذا

(*) باللغة العربية في النص.

هو اسمها، ولكن يجب عدم التأخر لما بعد الساعة السادسة، لأنها لن تفتح الباب، حتى لو طرقت الباب وصرخت: «سيدتي الأخت هنري، افتحي لي!»، فإنها لن تجيب. ولهذا السبب عندما يفوتني الوقت أبقى لألتجئ في محطة الباصات، أو تحت أعمدة الكنيسة، لأنه في هذه الأمكنة تجد العديد من المشرّدين مع كلابهم. ولكن في نيس لا يمكنك، ويجب ألا تفعل ذلك، أقصد البقاء على الشاطئ في الليل، وذلك لأن الأشرار سيأتون ليحوموا ويضربوا المشردين وعندئذٍ ستغدو ميتاً تماماً.

في الميناء، أحب الشمس التي تسخّن المقاعد الحجرية القديمة. المقاعد ناعمة، وتحمل علامات صغيرة، ولكنها ليست دائماً نظيفة. رأيت مرة سرطانات البحر تركض نحوي فدهستها بحذائي. الشمس ناعمة، بيضاء، مثل حبة الأسبرين، ولكن ليس مثل شمس «لا لويز» خاصتي. بعد أن شربت قهوة الأخت سيمون، تنزّهت على رصيف الميناء بين الحاويات، ولم يسألني أحد ماذا كنت أفعل هنا. لا وقت عند الأخت سيمون لتبادل الحديث، ولكنها قالت لي مرة إنها من إيطاليا، من «بانتليريا»، ويبدو أنها هي أيضاً جزيرة في وسط بحر إفريقيا الشمالية. الأخت سيمون عجوز، لها أنف كبير، ولا تلبس مثل ثياب راهبات دير «بون تير»، بل ترتدي بنطالاً أزرق، وحذاء رجالياً لأن قدميها كبيرتان، وكنزة من الصوف حتى لو كان الطقس حاراً. ولكننا نعرف أنها راهبة لأنها تضع غطاء رأس وصليباً أصفر صغيراً حول عنقها، لكنه ليس من الذهب.

توجهت إلى البراكة، في طرف الميناء، التي تستخدم لسقاية الخيل التي يأتون بها من كورسيكا، قبل أن يسوقوها إلى المسلخ لذبحها. وفي كل مرة يمرون فيها راكضين على الميناء كنت أتأثر جداً لأني أحب كثيراً الخيول. كل يوم، قبل طلوع الشمس، كنت أغتسل في الماء البارد مستخدماً كميات قليلة منه حتى أنتهي بسرعة. الإضاءة في الميناء صفراء.

أحياناً كانت مراكب صيد التونة تصل في الليل، ويُخرج البحّارة أحواض التونة ويقطّعون السمك بواسطة بلطات. ساعدتهم بتقطيع التونة فأعطوني بعض القطع النقدية. كانوا يأتون من كل أنحاء العالم، عرب، إسبان وحتى صينيين. لم يكونوا يخافون مني، ولم يطلبوا أوراقي. قلت لهم اسمي، فعندما كانوا يصلون إلى المرفأ كانوا ينادون: «هييه هيه دودو!». أعطوني أيضاً قطعاً من لحم التونة لفّوه بورق جرائد، ولكني لا آكل التونة، لأني لا أستطيع أكل اللحم الأحمر، ولا الدم، ولا العجل، ولا الخنزير. أعطيت قطع التونة إلى الأخت سيمون، من أجل مشرّديها، وبالمقابل أعطتني فواكه، برتقالاً، وعنباً. منذ موت بشير، لم يعد لي أصدقاء، الناس يكلّمونني ولكن ليس لدي أي شيء أقوله لهم. أريد فقط أن أبقى تحت أشعّة الشمس الناعمة، على مقعدي. أحياناً أفكر بفيكي، أو بهونورين، وهذه هي حالة من لا ينام، كل شيء مرتبط ببعضه، لا ينتهي النهار، ولا مجال للأحلام.

في «نيس»، كنت ألتقيه كل يوم في الميناء، إنه عجوز أكبر سناً مني، طويل جداً ونحيل، حسن الهندام دائماً، يلبس بدلة مستعملة سوداء مخططة بخطوط زرقاء، البدلة باهتة لكنها أنيقة، الياقة مشدودة مع ربطة عنق نحيلة، شعره كثيف ممشّط إلى الوراء، أسود، واللحية مشذّبة بمقصّ، ويضع نظارات دائرية. لمن الغريب أنه من العرق الأبيض، لكن بشرته داكنة كأنه من أصل هندي. كان يصل بخطوات كبيرة تاركاً عصاه الحديدية الطرف تقرقع، لكنه لم يكن يتكئ عليها إلا عندما يصعد درج، أو ليدفع بها شيئاً على الأرض، حصاة، أو علبة فارغة، أو كرة من ورق. كان يأتي ويجلس على طرف المقعد بجانبي، ويدخّن. لم يكن يدخّن السجائر التجارية وإنما يلفّ سجائره بنفسه، باستخدام آلة صغيرة مع شريط مطاطي أسود. كان يضع قطعة ورقية من ورق الذرة، ينثر أوراق

التبغ ويلف السيجارة، وقبل أن يدخّنها، يبلّل الورق بطرف لسانه ويطوي أطراف السيجارة لكيلا يتناثر التبغ. كانت أصابعه صفراء وكذلك أسنانه، فقد كان يشعل سيجارة تلو أخرى، يدخن السيجارة بينما يلفّ التالية. قال لي: «هل تريد لفافة؟»، وهذه هي طريقة كلام عجائز ما قبل الحرب. قلت له: لا، ولكنه نسي وعاد بعد قليل ليعرض عليّ لفافة مرة أخرى. ليس صديقي، لكنه تقريباً كل يوم يأتي إلى هنا، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، لكي يتدفأ تحت الشمس الشاحبة. يجلس على المقعد ويتكلم، لا يوجّه الكلام خصيصاً لي، يتكلم دون أن ينظر إلي، يمسك سيجارته بطريقة أبي نفسها، بين الإبهام والسبابة، لا يقول اسمه لكني بعد ذلك عرفت أنه من جزيرتي نفسها، من خلال لكنته، وهو يتكلم عن كل المناطق: «لا مايتينييه، فلوريال، ايش ان لو سان بيير، سافيني، موكا...». قالها بلكنته المغنّاة، استمعت وشعرت بألم في معدتي التي اعتُصرت وآلمتني، تمنّيت لو قلت له: «كُفّ عن الكلام، اتركني وشأني! أنت وقصصك عن الجزيرة وعن الأحياء الراقية، أنا من الأسفل، من طريق سان بول، ومن كافيرن حيث تسكن العجوز هونورين». ولكني سعدت أيضاً لسماع لكنته وهو يقول «أه»، و«ييه»، وعندما لا يلفظ حرف الراء، وعندما يقول «بوو»، أو ربما كانت «بون»، كل هذا حرّك شيئاً في داخلي وشعرت برغبة في ذرف الدموع. تذكرت موسيقا بيانو «هيرشين» العجوز، لم يكن ضرورياً أن أفهم، المعنى أتى وحده وجعلني أرتجف. أتخيّل أن هذا الرجل العجوز ذا اللون البرونزي، شعر بذلك أيضاً، لأنه توقف لحظة لكي يمج عقب سيجارته فيدخل الدخان إلى عينيه ويجعلها تدمع. تكلم عن الوقت مطولاً، ما قبل الحرب، لمّا ركب سفينة كبيرة وسافر إلى أرجاء العالم، ووصل إلى فرنسا، وكان في هذه الساعة هنا، على المقعد بجانب بركة السقاية، بجانبي، الحياة غريبة أليس كذلك؟

كان يستعمل لمخاطبتي الضمير أنت، أما أنا فكنت أجيبه باستعمال أنتم، لأننا لسنا من المكان نفسه في الجزيرة، إنه من جهة الوجهاء، هو وطقمه الداكن المخطط، وقميصه الأبيض الذي خرج لتوّه من عند الصيني، ويداه الناعمتان وأظافره المقلّمة، حتى ولو كان الإبهام والسبابة أصفري اللون. أما أنا فأرتدي ثيابي المهترئة، مع أني أغسلها دائماً في حوض السقاية قبل طلوع الشمس وأعلّقها لتنشف على عصيّ شباك الصيادين، وأخجل من الظهور في السروال الداخلي فأختبئ وراء أكواخ أدوات الصيد. يوماً جاء حارس الميناء، وقال هذا ممنوع، ولكنه تركني بحالي لأني لا أشرب الكحول وأتكلم بأدب.

كان الرجل العجوز يتكلم كل يوم، وإن لم يتكلم كان يرسم على دفتر، يرسم سفن الميناء، الحاملات، البواخر، وسفن صيد التونة، لديه قلم صغير من الفحم، وكذلك علبة ألوان، يملأ كأساً من حوض السقاية ويرسم الماء والسماء، لكن ما يرسمه لا يشبه ما يراه، فالألوان غامقة، البحر شديد الزرقة وأشرعة السفن حمر، غيوم بيضاء أو سماء عاصفة، ما يرسمه هو جزيرتنا، هناك في الطرف الآخر لكلّ البحار. مرة أراني دفتره العتيق، نظرت إلى الرسوم واللوحات، وقرأت الأسماء المكتوبة في أسفل الصفحة، مكتوبة بخط فائق الصغر، جميلة جداً، مع تواريخ، «تونوليبه» 1912، «فانفارون» 1914، «بوانت اوه سابل» 1917، «برج تونيغ»، وكذلك خطّ الجبال التي كنت أراها من مفرق «لا لويز»، «سينيو»، «لو بوس»، «مونتانيه اوري»، «بيتر بوث»، 1917. لم أقل شيئاً على الرغم من أن ذلك آلمني، ولكن العجوز سعيد، يظن أني لا أعرف كل هذه الأمكنة فقال: «أترى، تظن أني أبالغ، لكنها الألوان الحقيقية، لو أغمضت عينيك لرأيت اللون البنفسجي في كل مكان». استردّ الدفتر وأضاف أيضاً: «البنفسجي في كل مكان، كل

مكان»(*). لا أستطيع إغماض عيني ولكني أعرف أنه لم يكذب. البنفسجي في كل مكان.

عندئذٍ، صار هنا وهناك الشيء نفسه. وهذا ما لم أكن أعرفه قبل أن أسافر وأصل إلى فرنسا. كان الناس يظنون أن المكان الآخر مختلف، ولكن المكان الآخر، أي هناك، هو ذاته هنا، هناك الكبار والصغار، هناك الناس المهمّون، الرؤساء والمديرون، أصحاب البنوك، آل «أرماندو» وآل «إسكالييه» وآل «ليي روبنيه دو بوس» وآل «لي رامشيتي» وآل «لي سينغ» وآل «لي مينغ سو» وآل «باك سو» وآل «دونغ سو» وآل «لي نورث تومب»، كل هؤلاء الناس(**). وهنالك الآخرون الذين لا قيمة لهم، المنسيّون، المسحوقون، ليست لديهم بطاقات بيزنس، ولا بطاقة ائتمان، لا شيء في جيوبهم، مجرد بعض الأوراق المالية المهترئة وبعض القطع النقدية الصدئة. أنا مدرك لهذا الآن، لأنه عندما مات بشير بحق، تُرك على الحمالة في ممر المستشفى، وكان الأطباء الذين يرتدون القمصان البيض والممرضون الذين يرتدون القمصان الخضر يمرون من أمامه من دون أن يلقوا نظرة عليه، ولهذا فقد ذهبت دون أن أقول شيئاً وسرت في الليل، ولم أجد في حقيبة ظهر بشير سوى بطاقة عسكرية وكتابه الأخضر السميك.

الرجل العجوز هو واحد من عائلة فيلسن، لا حاجة إلى أن اسأله، أنا متأكد من ذلك، أعرف أسلوبه هذا، كأنه أمير في آخر العالم، حتى لو كان جالساً هنا على هذا المقعد بجانب مشرَّد. لو قلت له: «أنا فيلسن كو دو روس»، فهل سيثير ذلك في ذاكرته شيئاً؟ إنه لا يبالي بالفرع المسمّى «كو دو روس». بشرته داكنة أكثر من بشرتي، ولكن هذا بسبب مرض السكري.

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

عندما يشرب قهوته يضع قطعة من السكرين على لسانه. قال: «أليس من الغريب أن يكون ابن صانع السكر مصاباً بداء السكَّري؟». أحببت النظر إلى رسومه ولوحاته التي في دفتره، المشاهد الطبيعية، شجر الجازورين التي حناها الهواء، البحيرات، والسماء التي تحتوي على غيوم صغيرة دائرية، إذ ليس هنالك منها إلا في موريشيوس حيث الغيوم تشبه قطيعاً صغيراً من الخراف، وهذا ما أثار رغبتي بأن أكون هناك، هذا ما أثار الرغبة بذرف الدموع، الأمر الذي لا أقوى عليه بما أن عيوني جافة، ولهذا قمت بترطيب عيوني بطرف لساني. راقب العجوز فيلسن هذه المشاعر والتصرّفات وقال ماداً شفتيه كما هي العادة في جزيرتنا: «أنت فعلاً ظاهرة حقيقية!». قلت له: «بتقليدي للسحلية، أستطيع كسب عيشي كأي شخص آخر، في يانصيب السيد سكامبورلو». أضحكه هذا أيضاً. هل تذكّر طفولته، عندما كان يتقاتل في حقول القصب، هو وبنات عمّه، بسيوفٍ من تفل القصب؟ هل عرف البيت الذي يقع خلف قصب البامبو، على الجهة الأخرى للساقية، حيث عشت لمّا كنت طفلاً وحيث مات والدي؟ هل كان هناك عندما قامت عائلة أرماندو بسحق بيت أرتيميسيا، وعندما مشت على أطرافها الأربعة كي تلم لعبتها القديمة التي ليس لها سوى رجل واحدة؟ أريد أن أحلّق داخل الصور، كعصفور يهرب من النافذة. إنه فيلسن عجوز يلف سيجارته في آلته الصغيرة ويشعلها حتى يحترق طرف الورقة. سأل مرة: «هل تعرف من أكون؟». قلت له: «نعم يا سيدي القاضي»(*). قلت هذا لأن هيئته كانت جديةً مثل والدي. أضحكه جوابي وقال: «أنا قاض؟ لا، أنت تخطئ، أنا طبيب». انتظر قليلاً وأضاف: «لكنني لا أعمل، لا أحتاج إلى ذلك، فزوجتي غنيّة». وقال أيضاً: «حاليّاً، فقدنا كلّ شيء خلال الحرب، وأنا أكبر سنّاً من أن أمارس الطب». سألته: «قل لي لماذا أنا هكذا؟». نظر

(*) باللغة الكريولية في النص.

إليّ، فهم السؤال بخصوص وجهي الذي هو من دون أنف ولا جفون، مجرّد فمٍ كبير ولسانٍ طويل جداً. رسم على غبار الأرض بطرف عصاه الحرف الملعون لمرضي. لا بدّ أنه طبيب جيد أو أنه يعرف قصتي، إن أهالي الجزيرة يولدون ماكرين. انحنيت برأسي قليلاً نحو الأرض، ورأيته يرسم الحرف Σ. سألته: «ماذا بإمكاني أن أفعل؟». قال: «لا يمكنك تغيير قدرك». بعدئذٍ قام وبقي واقفاً أمام الشمس، إنه طويل ونحيل، لباسه أسود، يشبه أبي عندما كان يعود من العمل في نهاية النهار، وعندما كان يقول: «كن عاقلاً!». رجعت في الزمن إلى الوقت الذي كنت فيه في ألما، أنتظر أبي، وأسمع وقع خطواته على الحجارة. استدار العجوز فيلسن مرة أخيرة قبل أن يرحل. «سلام!». «سلام يا سيّد فيلسن!»(*). لا أعرف ما إن كان قد سمع، لكنّه استدار ورفع قبّعته، فتخيّلت نفسي رجلاً من الذوات. كانت هذه آخر مرة أراه فيها.

بعد ذلك سألت الأخت سيمون: «ماذا حلَّ بالعجوز؟». فقالت لي: «لقد وقع على الأرض وكسر ساقه، ولهذا السبب سيبترون رجله. هذا ما يحصل للناس المصابين بداء السكّري». لا أعرف ما إن كان العجوز فيلسن قد مات أو إن كان ما يزال حيّاً وينظر إلى مغيب الشمس وراء البحر من نافذة طابقه السادس في عمارته. نحن أهل الجزيرة نحب رؤية الشمس وهي تشرب ماء البحر قبل أن تنام. تعرّفت على بشير، تعرّفت على الفتاة ذات الشعر الأزرق، تعرّفت على السيد فيلسن، ثم اختفوا كلهم. أظن أن هذا يحدث لي لأني لا أنام، عندما تنام وتغلق عينيك، يمكن لليل ساعتئذٍ أن يأتي وأن تموت كلياً.

(*) باللغة الكريولية في النص.

منزلان

لم يبقَ شيء من ألما اليوم، حتى إني لم أتوقف عندها. الطريق السريع يندفع نحو أعالي «كريفكور» كما لو كان درباً تسلكه الكائنات الفضائية. وهو يقطع، بأعمدته الأسمنتية، الجداول الكريولية والشقوق في قشرة البازلت التي كستها السرخسيات والنباتات المتعرّشة وحُفر المياه المنسيّة، وهو يحلّق فوق حقول الزنجبيل وقطع الأرض المزروعة بالخضار وبأحراش خشب السناك. ويمرّ في عرض المزارع حيث يعيش زوج من العجائز مع بقرة حدباء لون عينيها كالعنبر. الطريق يبتعد عن قبب الخائنة «مايا» اللماعة في «سان بيير». وتتشكّل سلسلة الجبال العالية جيشاً صارماً يحرس الصمت، كحصن أخير أمام مَدّ الحداثة التي تغسل الأدمغة وتحجب الماضي.

عدت إلى «موكا»، لعند إميلين كارسيناك، لأقوم بجرد أخير، الجرد الذي لم يقم به والدي قبل أن يرحل بصورة دائمة. كان ذلك في أحلك أيام الحرب، في عام 1917. كان قد بدأ يفكر بالجانب الآخر من العالم حين كان بعمر الخامسة عشرة، زوّر عمره والتحق بالتدريب الخاص بمتطوعي الفيلق الكولونيالي على سفوح «كاندوس». لم يعد هنالك أهمية لأي شيء آخر، لا الدراسة ولا القراءة ولا حتى وجبات الشاي بعد الظهر

بصحبة الفتيات. لم يعد هنالك سوى هذه الحرب، هناك، على الجانب الآخر من العالم، سوى ساحة الوغى تلك التي ذهب إليها، والقناعة بأنه لن يعود يوماً. تخيّلت في ألما طفلاً آخر، الطفل الذي لا يتكلمون عنه أبداً. رأيته في صورة بنية داكنة في ألبوم صور إميلين. كان غريباً في وسط كل هؤلاء الصغار النورمانديين والبريتانيين أصحاب الأسماء الألزاسية. هو خلاسي يافع، وجهه جميل وجديّ، تقاسيمه ناعمة وحاجباه مقوّسان تقوّساً كاملاً، يلبس طقماً رمادياً بسروال يصل حتى الركبة (كنيكر) وينتعل حذاءً ملمعاً. كان الوحيد الذي ينظر مباشرة إلى العدسة كما لو كان يحاول التكهن بالمستقبل. توقفت لحظة عنده فسألتني إميلين بنوع من السخرية: «ألاحظت شيئاً ما؟ أتريد أن أعيرك عدسة مكبرة؟». أجبت بأني أتمتع بنظر جيد كفاية لأستغني عنها، وقلبت الصفحة. لكنني علمت في تلك اللحظة بأن هذا هو سليل فيلسن الملعون، والد دودو المختفي الذي بحثت عنه دون جدوى في كل الأماكن، في ألما، في «كاتر بورن»، في مقبرة «سان جان» أو في شوارع «بور لويس» بالقرب من البازار، أو حتى في قاعة مسرح «بو باسان» الكبيرة التي تشبه قصراً في «جايبور» بأرضيته الخشبية الملطخة بنقط سوداء من قنوات تصريف المياه، وفي إحدى زواياها بجانب الحائط يوجد البيانو القديم من نوع هيرشن الذي كانت تعزف إميلين عليه «لاشوشوفوشيه دي فالكيري» من وقت إلى آخر، أو «لابري ميدي دن فون» لباليه اللقيطات الكريول.

سألتها بلطف: «حدِّثيني عن عائلة فيلسن!». رأيت عينيها وقد اغرورقتا بالدموع، لكن ذلك يعود من دون شك لإصابتها بالماء الأبيض. لم تعاود النظر إلى ألبوم الصور فهي تعرف كل الصور عن ظهر قلب، حتى صور المناولة الأولى، فألبوم الصور هذا يشكّل الترف الوحيد الذي بقي لها من حياتها السابقة، هو كمذبح القرابين الخاص بأجدادها ومعاصريهم

(بالنسبة لعمرها الحالي، المعاصرون أصبحوا قدماء أيضاً)، يشبه قبراً محفوظاً في غلاف من الجلد الأحمر فتّته رطوبة «موكا».

«ماذا تودّ أن تعرف؟ لا أستطيع إطلاعك على أي شيء، هذا سرّ، الكل كان يعلم لكن كان يجب كتمان السرّ، أنت تعرف كيف تجري الأمور في بلد صغير، كان والدي يقول دائماً: بلد صغير، أناس تافهون... لم نكن نتكلم أبداً عنهم، عائلة كوب دو روس والدودو. لقد كانوا هناك، إلى الجانب الآخر من قصب البامبو، في المنزل الآخر». هذا غريب فلقد اختنق صوتها، ربما بسبب أولغا التي كانت تفتش في المطبخ. تنحنحت إميلين عن قصد كي تُفهمني أنه غير مرحَّب بي هنا، وأنها تنتظر انصرافي، وأن حديثي ينفّرها كما لو كنت أتآمر لإقلاق راحتها. تابعت إميلين، ببطءٍ، مباعِدةً بين كلماتها: «كان هنالك منزلان. كنا صغاراً، وكان هنالك منزلان، منزل لفيلسن الطيبين، وآخر مُعادٍ، يسكنه السيِّئون الذين لم نكن نزورهم أبداً. لم نكن نتكلم نهائياً عن هؤلاء الأشخاص ولم نكن نعلم عنهم شيئاً. كل ما أعلم هو أن العجوز أكاب عاد من جزيرته، وكان لديه مربّية إنكليزية تعتني بطفله. لقد ترعرع الطفل وحيداً ولم يختلط بنا، سافر في أحد الأيام إلى فرنسا وأصبح محامياً أو قاضياً، لم أعد أذكر، وارتبط هناك بمغنّية كريولية جميلة من جزيرة الريونيون وجلبها معه. كنت متزوجة حين ولد دودو ولم أرَه يكبر، فلم أكن أسكن هنا. توفّيت زوجته بعد ذلك. أنا لم أعرفها على الإطلاق... حين كنا نتكلم عنها، كنا نهمس قائلين: هي، السيدة. لقد وصل يوماً إلى مسامعي أن اسمها هو راني، ولكن أظن أن ذلك كان بهدف السخرية منها كما لو أنها كانت حقاً ملكة هناك في الريونيون. لاروش كان نسبها قبل الزواج، وفيلسن من جهة زوجها، وكانوا يُلقبون بلاروس أو كوب دو روس للقول إن قيمتهم لا تتعدى قيمة الحصى، أتفهم ما أعني؟ هذه البلد تعجّ بألسن كألسن الأفاعي، جاهزة

دوماً للكلام بالسوء. لم نكن نذهب إلى الجانب الآخر على الإطلاق، إلا حين كنا نرغب بعصيان أوامر أهلنا. كنا نستمتع بعبور الحفرة والزحف في العشب حتى قصب البامبو بالقرب من المستنقع، وننظر إلى منزلهم. لم يكن المنزل كبيراً وجميلاً كباقي منازل عائلة الفيلسن، بل دار صغيرة قبيحة ووسخة، درف شبابيكه البنية الضخمة مغلقة دائماً، وباحته مكسوّة بالأعشاب الضارّة. كنا نبقى خلف قصب البامبو نتجسّس، لكن لم يكن يظهر لنا أحد، لقد كانت الدار كسفينة أشباح...».

بالطبع، لم تكن إميلين تحكي هذه القصة لي، بل كانت تحكيها رغبة منها في بعث الماضي، ماضٍ بعيد لم يبقَ غيرها يتذكّره، ماضٍ كنسمة خفيفة تترنّح، كلسان لهب شاحب في طور الانطفاء. في هذا الوقت في الخارج، اكتظّ شارع «ريدوي» بالسيارات وبزماميرها الغاضبة المتداخلة بعضها ببعض. شاركت العصافير في هذا الضجيج أيضاً، فقد أخذت طيور الرفراف تزقزق لتغطي على ضوضاء المحركات، في حين كانت أولغا ما تزال تفتش وتزمجر غضباً. أأسمعها جيداً؟ ارتجف صوت إميلين حين نطقت بهذه الكلمات: «المنزل الثاني». وعندما روت ما لم تكن قد قالته أبداً في الماضي عن الطفل المنبوذ: «ترعرع دودو هنا، وحيداً مع والده والعجوز الإنكليزية. لم نكن نراه، ولمّا توفي والده تشرّد في الطرقات. لقد أصبح بشعاً، دون وجه، لإصابته بمرض، قيل إنه الجذام. كان يعيش بعيداً عنا، عند العجوز أرتيميسيا، ابنة يايا، التي كانت تملك داراً في نهاية هذا الطريق بالقرب من حقول القصب، الدار التي هدمها خنازير عائلة أرماندو. ماتت أرتيميسيا حزناً ولم نعد نرى دودو، لكن اسمه ظلَّ يقع على مسمعنا، فلقد أصبح شحّاذاً متسوّلاً. نحن أيضاً طُردنا كما لو كنا لا نساوي شيئاً، وجئنا لنعيش على هذا الجانب المقرف الباعث على الإقياء. أبوك سافر، لم يشارك في الحرب لأن سنّه لم يكن يسمح له بذلك، حاول

أن يزوِّر قيد نفوسه لكنهم لم يجنّدوه، فترك كل شيء وسافر للدراسة في فرنسا ولم يعد منها أبداً. لقد قال إنه لن يعود وحافظ على كلمته، حتى إنه لم يأتِ حين تزوجت».

أُغلِقَ غلاف القبر الجلدي الأحمر ولن يُعاد فتحه مجدداً. لم يعد عندي أي أسئلة أخرى. هذا تاريخٌ حُكم عليه بالزوال ولن يبقى منه شيء سوى هذه الصور الشاحبة التي تشبه صور القديسين التي تسقط من كتب الصلاة القديمة. إن فجر زمن قديم انبلج عند الأفق لكنه لم يستطع التحوّل إلى نهار. لقد فات الأوان. أمسكت يد إميلين، يدها الباردة على الرغم من حرارة منزلها الخانقة الخالي من أي مروحة. انصرفت دون أن أستأذن. مشيت بخطوات كبيرة وفتحت سقّاط الباب، وفكّرت بأن أولغا ستتنفّس الصعداء لسماعها صرير القفل وصفق لسانه على الخشب. أصبحت فجأة في الخارج، في مهبّ الشاحنات والسيارات وضربات الفرامل وزعيق السائقين والزمامير التي لامستني. شعرت بالاختناق من غيمة الأبخرة الزرقاء التي تخرج من العوادم، تلك الغيمة التي يسمّيها العظيم تونيو دوكاس: «الدخان».

آخر أيام في الجنة

السماء أمامي، مقابل الجنوب كلّ ليلة، ولكنّي لم أكن أبحلق مطوّلاً بهذا الشكل سابقاً، لأنني راحل، وما أريده هو أن أطبع كل علامة، كل صورة على شبكية عيني. بعد ذلك، سأغمض عيني، وفي كلّ مرّة أحتاجها فيها ستظهر الصور، مهما كانت غشاوة الواقع، مهما كانت ظروف حياتي. إنها الذروة التي أحملها معي، النقطة العمياء التي يلتقي فيها كل شيء، وهل هي مصادفة أنها محاطة بكل الذين أحبهم، «غروس» و«كواومبا» و«فونيكس» و«كورفوس»، والطائر الذي لا اسم له والذي يرسم صليباً بجسده وأجنحته، باتجاه الجنوب المطلق؟ ولكنّي أترقّبه (بصعوبة لمحتُه، بين غيومٍ خفيفة، متداخلاً مع المجرّة)، هذا الطائر الغريب، المزيج من الطاووس والعنقاء، واقفاً على ذنب كوكبة «الهيدرا»، مديراً ظهره لثعبان الحليب، بيوس الهندي(*)، الذي تعرّفت من خلاله دون صعوبة على صديقي القديم الذي لاحقته خلال الأشهر الماضية دون نتيجة، بجسده الثخين كثير العضلات، وأجنحته الضامرة، وأقدامه الضخمة، ومنقاره الحادّ على شكل نصل منجل، وجمجمته الصلعاء لعجوز صعب المراس، الفوجيل، طائر الغثيان، دودو صديقي القديم.

(*) Pica Indica.

ربما لهذا السبب جئت إلى جزيرة موريشيوس دون أن أعي ذلك: لكي أفهم أصل كلّ شيء، النقطة المركزية التي بدأ منها كلّ شيء. ها قد مرّ ثمانون عاماً على مغادرة أبي لهذه الجزيرة للدراسة في فرنسا خلال فترة الحرب العالمية الأولى. كان عندئذٍ يحاول الهروب من الكارثة، ألما بحالة خراب، وطُرد والده من البيت الذي وُلد فيه، من دون أن يكون قد ارتكب أي خطأ سوى أنه كان واثقاً من نفسه. لم يكن هنالك ملاكٌ يحمل سيفاً ملتهباً ليدلّه على طريق الشرق، باتجاه «ماهيبورغ»، نحو «بيل مار»، أو نحو «بودر دور»، وإنما كان هناك مأمور قضائي يرتدي السواد ويضع نظارات صغيرة يقوم بجرد أملاكه.

التاريخ هو قصاصات من نسيج. كنت أرغب أن أعود بشيء لأمي، لكي أجيب عن أسئلتها، لكنني لم أكن أتوقع حصول معجزات. لم أجد شيئاً في أرشيف كاتب العدل، ولا في أرشيف الدولة. تاريخ العائلات، التاريخ الحقيقي (بما أن بعضها خيالي نوعاً ما...) لا يترك آثاراً كثيرة، بل يختبئ في سكون مكاتب المحامين، في سرية لقاءات الصالونات، وأحياناً في ظلال المخادع المخجلة. عندما طلبت منها المخططات والسجل العقاري لألما، هزّت موظفة الأرشيف، سيدة بطيئة نوعاً ما، رأسها بإشارة تعني اليأس: «انتظر سأرى ما يمكنني أن أجد...». كلّ ما وجدته اقتصر على قائمة ركاب السفينة التجارية «لا دافنيه»، وفي هذه القائمة ورد اسم جدّي الأكبر أكسيل توما فيلسن، تاجر جملة، عمره ستة وعشرون عاماً، هاجر إلى جزيرة «إيل دو فرانس» في عام سبعة للجمهورية، برفقة زوجته ألما سليمان، وسنُّها ثمانية عشر عاماً، وابنتهما آن، ستة أشهر. ولكي تكون لطيفة معي صوّرت سيدة الأرشيف القائمة على ورقٍ سميك كأنه كرتون، وأعطتني كذلك مظروفاً، لا أعرف كيف وصل إلى هنا، يحتوي رسالةً من

عمّي الأكبر أليكسي، دكتوراه في الطب. كانت الرسالة قد كُتبت في باريس عام 1920، ومرسلة إلى «جول أرماندو»، يشرح فيها لماذا يعتبر نفسه، على الرغم من التسوية، واحداً من مالكي أسهم معمل السكر بنسبة خمسين بالمئة. الرسالة مكتوبة بالحبر البنفسجي الذي قضم جزئياً الورق الرقيق، ويبدو أنها لم تُقرأ قطّ من قبل الشخص المرسلة إليه، وليس لها من أهمية سوى تبيان سذاجة صاحبها، أو -من الممكن- مكرَه، غير المعقولين. للحظة راودتني فكرة أن أنسخ عنها نسخة، أو أن أسرقها، ولكني تراجعت لأن مضمونها بدا لي أحمق بشدّة.

عندما، في عام 1919، انتشر وباء الأنفلونزا الإسبانية الذي أباد الكثير من الناس في العالم، ومنهم إلياس، الجدّ الأكبر لعائلة فيلسن، اشترت عائلة أرماندو ألما، ولم تعد عائلة فيلسن تدير المنطقة، ترك أفرادها كل شيء ولجؤوا إلى «بو باسان»، كما فعل جدّي أرنولد، أو هاجروا إلى فرنسا كما فعل عمّي أليكسي ووالدي، أو أيضاً كما فعل أنطوان، وريث الفرع الآخر الذي أهدر ثروة العائلة في لندن قبل أن يُطرَد من سلك القضاء. كل هذه المعلومات هي التي تشكّل تاريخ ألما وقصتها حتى الإفلاس، حتى طرد آخر سكانها وبيع الأرض إلى تحالف مصارف، بهدف بناء أكبر مركز تجاري في الجزيرة يحمل ذلك الاسم المدوّي، «مايالاند»: أرض الوهم.

ماتت إميلين البارحة، انطفأت خلال نومها، دون أي سبب آخر سوى كبر السن، كأنها شمعة وأُطفئت. علمت بالأمر من السيدة باتيسون، التي أضافت: «يجب أن نسرع لحضور التأبين، في موريشيوس لا ينتظر الأموات في الصيف». لذا وبدل العودة إلى ألما - وعلى كل حال ماذا بقي هناك من ألما؟ - ركبت الحافلة المتجهة إلى «موكا». كان هنالك حضور قليل في الكنيسة القديمة ذات الحجارة السوداء الواقعة عند تقاطع الطرق.

أتى بعض الجيران وبعض أفراد العائلة، ولكن أحفادها لم يأتوا من سويسرا أو من جنوب إفريقيا. كان الحضور واقفين، ورأيت قامة أولغا الثخينة في الصف الأول، بدت والحزن والوحدة يعتصرانها. لا يمكن لـ«القيء» أن يستمر في الوجود، سيُهدَم ويحوَّل إلى شقق تستقبل طلاب الجامعة. الطقس حارّ وثقيل، ويقال إن هنالك إعصاراً قادماً من جهة «مدغشقر»، لذلك فإن أبواب الكنيسة ونوافذها مفتوحة على مصاريعها، ويُسمع منها أصوات الحافلات والشاحنات، وزمامير السيارات، وقرقعة الدراجات النارية التي يركبها عمال إيصال الطلبات وهم يضعون خوذة ألمانية من زمن الحرب العالمية الثانية. أغاني إذاعة «وان» والإعلانات عن الدجاج من نوع «شانتكلير» كانت تُسمع في قلب الكنيسة، ممتزجة بصوت الكاهن وهو يصدح بصلواته، لم يكن يرنّم نشيد نثر الموت الذي كانت إميلين تردِّده كما لو كان أغنية حب. لم يبكِ أحدٌ، مجرّد بعض النحنحة لتمثيل الانفعال، فعندما تكون عجوزاً تكون ميتاً لمدّة طويلة قبل أن تدفن. ثم فجأة، حصل شيء يشبه المعجزة: دخل ليسيان الصغير خاصة إميلين (أو أولغا، لم أعد أعرف) من الباب الكبير المقوّس وهو يقفز بمرح في الممرّ المركزي حتى وصل إلى المذبح، وقف أمام الكاهن المذهول، لم يفكر أحد بأن يقول له: «اخرج يا هذا!»(*) ليطرده، حركة ذنبه كانت متناغمة مع إيقاع النشيد، استدار نصف دورة وعاد إلى الشارع.

سأغادر غداً إلى فرنسا، ولا بدّ أني سأعود، أو لا أعود، لست متيقّناً. تنتظر أمي في دير «سان شارل» في «سيميز»، تقريري. سؤالها الأول سيكون: «إذاً، هل بقي أحد من عائلة فيلسن هناك؟». «لم يعد هنالك أحد، يا أمي، منذ أن غادرت». لست متأكداً من أني سأخبرها عن إميلين، كانت

(*) باللغة الإنكليزية في النص

آخر شخص من جيل ألما، قبل مرحلة «الأرماندو» و«الإسكاليه» و«لي روبينيه دو بوس». قبل مجيء «مايالاند» مبتلعة الأطفال. ربما سأحدّثها عن أولغا وعن ليسيان. وسأحتفظ أيضاً لفترة قصيرة بحجر الدودو المدوّر في جيبي، ولكن مكانه في متحف، في «لاروشيل» مثلاً، أو في متحف التاريخ الطبيعي في باريس، بجانب الهيكل العظمي المجمّع للطائر الكبير. كلارا ستنتظرني في المطار، سأضمّها إليّ لكي أشمّ رائحتها الحيّة التي تنبعث من فجوة نقرتها، ستقول: «أخبِرني! هل كانت الرحلة موفّقة؟». سأجيبها: «نعم، ليست سيّئة، يمكن الذهاب إليها في شهر عسل!». ستمدّ يدها مع الحركة التي تقوم بها دائماً عندما تعد وعداً، وسأطبع الختم بإبهامي.

اسمي هو لا أحد

أنا دودو، دودو فيلسن، كو دو روس، سحلية، ولدت لكي أُضحك الناس، لكي أكون المشرّد المدهش. أنا أيضاً ابن راني لاروس، المغنية، لا أذكر صوتها، لكنّي أذكر جيداً اليوم الذي نقلوها فيه إلى مقبرة «سان جان»، لم يقبلوا أن ندفنها بجانب بقية أفراد عائلة فيلسن، لذا فقد قام أبي بفتح قبرٍ جديد في نهاية المقبرة، بجانب شجرة السرو الكبيرة في طرف الممر «و». هي مدفونة هناك عند الجدار، تحت البلاطة الحجرية الرمادية، وهناك يرقد أبي أيضاً، أنا واقف أمام الحفرة والمطر يهطل على التابوت الذي يُنزل داخل التراب.

هنا، في البيت الأبيض، لا أحد يعرفني، وأنا فعلاً لا أحد، ولا أريد أن أذهب إلى مكان آخر غير هنا. في اليوم الذي قادتني فيه الشرطة، توقفت عن الكلام، لذا فهم لا يعرفون اسمي ولا سنّي، ويظنّون أنني مجنون. لذلك قادوني إلى البيت الأبيض، في الحديقة الكبيرة أمام مدخل الطريق السريع. ويبدو أنه بيتٌ مخصص للمعوزين والمختلّين، وأنا أملك الصفتين معاً. النوافذ مغلقة بشبّاك أسود اللون، يخافون أن يقوم أحدهم بالهرب، أنا لا أريد الهرب من هنا، هنا بيتي، المكان الذي سأموت فيه(*). أعطوني سريراً

(*) باللغة الكريولية في النص.

في الصالة العمومية، وهم يطعمونني صباحاً وظهراً ومساءً، يعطونني القهوة والشطائر وحتى أحياناً بعض الفاكهة القديمة التي تقع على الأرض في السوبر ماركت. أرى من خلال السور الحديدي أشجار الشتاء، وأنتظر كل يوم برعمة ورقة شجر جديدة، وعصفوراً صغيراً يغني. في الطرف الآخر من الحديقة، هنالك عمارات لها الكثير من النوافذ. تبعث الشمس أحياناً في الصباح شعاعاً أصفر ذهبي اللون، أصفر مثل لون ضوء الشمس على حقول القصب، فأتجرّع لون الجزيرة بعيني.

يأتي الطبيب صباحاً، أو مساءً، مع طلاب وطالبات يرتدون القمصان البيض. الفتيات جدّيات، يضعن نظارات وشعرهن مصفّف على شكل كعكة سوداء خلف الرأس، يضعن قناعاً طبيّاً مربوطاً وراء الأذنين. هنالك طالبة أستلطفها تأتي كل يوم، شعرها كستنائي أجعد، وعيناها سوداوان ساخرتان. سألتها عن اسمها، فقالت لي: «آه، ها أنت تتكلّم الآن؟». قالت لي: «اسمي عائشة، وأنت ما اسمك؟». لا أعرف لماذا لكني لم أخَف منها، فأجبتها: «إن اسمي دودو». ضحك الآخرون، وقالوا: «إنه غشاش يتظاهر!». ما هو التظاهر؟ أودّ أن أعرف، ولكن الطبيب موجود هنا، لذا أغلقت فمي ولم أعد أجيب. الطبيب شخصية هامة، رغم أنه قصير القامة وعربي، وأصلع عند قمة رأسه، لذا يقلب شعره من مؤخرة رأسه إلى الأمام ليبدو جميلاً. يريدني أن أتكلم، قال اسمه، هو اسم عربي، مثل رحمان، أو سالمان، قاله ولكني نسيته. لا أريد أن أكلمه، هو ليس صديقي. ذهب بعدئذٍ ليرى بقية المرضى، الشاب والعجوز، يترك المسنّين للآخر لأنهم يشتكون من كل شيء وينوحون قائلين: «يا ربّي، آه يا دكتور لو تعرف...». ولكنّهم لا يستكملون جملتهم فلا يستطيع الطبيب فهم شكواهم. الشاب الموجود في الغرفة هو «تيتو»، إنه غجري، مثل الذين يقومون بإضرام النار بقطع الخشب عند أرصفة أبواب باريس، والأطفال الذين ينامون تحت دفيئة من البلاستيك

الأخضر. يريد تيتو الموت دوماً، لهذا يحتجزونه هنا في البيت الأبيض، في الصالة ذات النوافذ المغلقة بشبك، إذ من الممكن أن تدهمه الرغبة بالقفز من النافذة، أو أن يرمي نفسه تحت قطار، أو حتى تحت عجلات الدراجات النارية في السوق العام، وهذا ما فعله لكنه لم يمت، بل أصيب فقط بجروح في الساقين. جلس الدكتور سلمان على كرسي بجانب سريره، وبقي تيتو مستلقياً بسبب الضمادات التي تملأ يديه وساقيه. طرح الطبيب أسئلة لكن تيتو لم يُجِب وبقي ينظر نحو الجدار. قام ممرض في نهاية الأمر بشكّ إبرة في مؤخرته، وانصرف الطبيب. بقيت مع تيتو، ولكي أضحكه مددت لساني بكل قوتي، فعبر خدي مثل حلزون ضخم ووصل إلى عيني. أحبَّ تيتو هذا، لأنه أضحكَه. قلّدت السحلية فقط عندما غادر الطبيب والطلاب، لأنهم قالوا إني غشاش. لو عُرف اسمي، لقام الدكتور سلمان بطردي من المستشفى، وأتت الشرطة لكي تضعني في طائرة السيد هانسون المتوجهة إلى الجزيرة، وفي الجزيرة ليس لي أحد، حتى فيكي لا يمكنها أن تستقبلني. في الجزيرة لا مكان لي أموت فيه(*)، لقد هُدمت ألما، ولا أحد يعرفني. وهنا بسبب المختلّين عقلياً لا وجود للمرايا التي تختبئ فيها الشياطين، ولم أعد أخاف من الذي يمكن أن يخرج من المرايا، لا أترقبهم، وهم لم يعودوا يترقبونني. أنا هنا فقط مع المشرّدين، العجائز، الناس الذين لا أسماء لهم، وأنا أحب تيتو لأنه يريد أن يقفز عبر النوافذ لكي يطير.

في البيت الأبيض، احتُجِزت في البداية في الغرفة ذات النوافذ المشبكة. في إحدى الليالي، قام رجل طويل القامة بالسير بين الأَسرّة، وهو يحمل بيديه حزاماً من الجلد، وكان يحرّكه فيصدر صوت صفيق، قال إنه سيخنقنا بحزامه، مشى ببطء وهو يجرّ رجليه ويصفق بالحزام. خاف تيتو، تقوقع في سريره وبكى، لذا تركت سريري فأنا لا أنام أبداً، ورأيت

(*) باللغة الكريولية في النص.

الرجل واقفاً أمام تيتو. لم أقل شيئاً، لم أصرخ، فبماذا يفيد الصراخ عند المجانين؟ لا يسمع الحرس الصراخ في الليل، يأتون في الصباح، ويقولون إننا انخلطنا بعضنا ببعض. سرت نحو الرجل، لففت ذراعي حوله وشددت بقوة لدرجة أنه لم يعد يستطع التنفس، رمى حزامه ووقع جالساً على الأرض، رأيت كتفيه يهتزّان لأنه هو الآخر كان يبكي. رفعته وسرت به نحو سريره وتركته يستلقي لينام. في اليوم التالي، كلّمني الممرّضون وقالوا إني بطل، لذا يمكنني أن أذهب حيثما أشاء في البيت الأبيض، صرت كلبهم الحارس. في الحديقة، جلست على كرسي من البلاستيك ونظرت إلى النباتات والطيور، كانوا يكلّمونني وأكلّمهم، وأعطيت للعصافير ثمار العنب الجاف الذي يوزع في المطعم، وهو شبيه للذي أعطتني إياه السيدة فيكي قبل أن أرحل، ورحت أكتب على دفتري من أجلها أسماء الأماكن والكلمات التي أحب، ولكن في المأوى يصادر الحرس الكلمات. لا تشبه عائشة هنا عائشة زين خاصتي من «لا لويز»، ذات العيون الخضراء والأسنان البيضاء جداً، هي لا تخاف مني، ولا تقول عني وحش. في يوم من الأيام كنا جالسين كالعادة على مقعد في الحديقة، لم تكن تحمل بيديها دفترها الذي تدوّن فيه الملاحظات، مالت قليلاً إلى الأمام، كأنها تبحث عن شيء على الأرض بين الحصى، وقالت: «كم سنّك؟». إنها المرة الأولى التي تسألني عن ذلك، وهي لم تسأل من أجل دراستها حول طب المجانين، وإنما لأنها تريد أن تعرف من أنا. قلت لها: «لا أعرف، لا أعرف اليوم الذي ولدت فيه». ومثلما قلت للأب لابات في كنيسة «سان جان» قلت لها: «هذا لأني لا أنام، تتتالى الأيام وكل الأيام هي اليوم ذاته»، لم يفهم الأب لابات شيئاً من هذا، لكن عائشة فهمت، فكّرت ثم قالت لي: «إذاً أنت خالد؟». رغبت بالضحك، وقلت لها: «معك حق يا عائشة، إن حياتي طويلة بيوم واحد وليلة واحدة، ربما لن يكون بإمكاني الموت».

أنا مرتاح في البيت الأبيض، أستطيع تخيُّل ألما، زمن ألما، لمّا كان أبي يذهب إلى مكتبه قرب الكاتدرائية، ويجلس في المساء تحت الشرفة الخارجية. أرتيميسيا جالسة على حجرها في الباحة الداخلية، عيناها لا تبصران لكنها تشعر بوصول أبي، تقوم لتجلب له شايه، وأذهب أنا ناحيته، وأشمّ رائحة سيجارته، وأسمع صوته الجهور: «ما الجديد يا صبي؟»(*). أستطيع أن أجد العجوز يايا، ما زالت تسكن في آخر الشارع قرب الغابة، في البيت الصغير المبني بالخشب الأسود، أستلقي قرب بطنها وأقول: «احكي لي يا يايا احكي لي قصص الحيوانات، وقصة المارغوز احكي، يايا! احكي لي أحجيات، يايا! أرتيميسيا قريبة دائماً، حتى لو كنت مريضاً، والمرض يأكل أنفي وفمي، ويأكل عيوني، لا تخاف أرتيميسيا من العدوى، فهي تعانقني كأني ما زلت صغيراً، ترضعني حليبها وألمس حلمتيها، الحلمة تلو الأخرى، هذه لي، والأخرى لي أيضاً، ولا يمكن لهذا أن ينتهي».

مرّت شمس الشتاء على وجهي في حديقة البيت الأبيض، قريباً ستنطفئ الشمس، في كل مساء تتلوّن السماء باللون الأصفر الذهبي. أنا على جزيرتي، ليست جزيرة السيّئين، من «الأرماندو» و«روبينيه دو بوس» و«أسكالييه»، ليست جزيرة السيد كيستريل أو السيد زان، السيد هانسون، مونيك أو فيرونيك، إنها ألما، ألمايَ، ألما الحقول والسواقي، المستنقعات والغابات السوداء، ألما في قلبي، ألما في بطني. الكل يمكن أن يموت يا صغيري(**)، ولكن ليس أنت أرتيميسيا، ليس أنت. بقيت دون حراك في الشمس الذهبية، رافعاً عينيّ داخل رأسي بما أني لا أتمكن من النوم، يوماً ما ستذهب روحي من خلال حفرة في رأسي، لتتجه نحو السماء حيث النجوم.

(*) باللغة الإنكليزية في النص.

(**) باللغة الكريولية في النص.

النهارات والليالي تتوالى وتترابط، دون أن تنكسر، إنه نوع من المد والجزر البطيء، رقصة باليه كبيرة تأخذ الناس، ناس ألما وناس الملجأ، والدي وماما لاروس ويايا وأرتيميسيا وفيكي أيضاً، إلى هناك، إلى الطرف الآخر من البحر، وحتى زبيدة الحمراء التي حوّلتني إلى ما أنا عليه. احتفال البانانيه صار قريباً، علّقت الفوانيس على الشجر في الحديقة، وفي فسحة مدخل الملجأ زرعت شجرة صنوبر في حوض، هي ذاتها سنة بعد سنة، عارية في قمّتها وإبرها صفراء مثل أسنان أبي الذي يدخّن كثيراً. لا مشكلة، ما زلت أعرف المقطوعة نفسها، مقطوعتي القديمة «أولد لانغ سين»، وأعطوني الإذن بأن أعزف في الصالون، لكنه ليس البيانو خاصتي من نوع الهيرشين، إنه من نوع غافو، ولكني أستطيع ان أغني داخل رأسي الكلمات بلغة جدتي بيث، إنها الكلمات الأجمل، والأكثر نعومة (*) من كل أنواع لغات الناس والحيوانات. ولهذا فأنا أجعلهم يرددونها حولي كل يوم بعد الظهر، في الوقت الذي يرتاح فيه الممرضون والطبيب، وبعد ذلك عندما يحل الليل، عندما يحين الموعد، يجتمع كل المجانين الشجعان في الصالون، أتوجه إلى البيانو، أرفع الغطاء، وأبدأ بالعزف. وهم يغنّون معي الكلمات بلغة جدّتي الأسكتلندية. ويسمعها حتى والدي وماما لاروس حيث هم. من المؤكّد أن هذا يدفئ روحهم.

منذ وقت طويل، يا عزيزي
منذ وقت طويل
سنشرب النخب بكل محبة
نخب الأيام الماضية (**).

(*) باللغة الكريولية في النص.

(**) باللغة الأسكتلندية القديمة (الغالية) في النص.

الغريب، بمنزلة الخاتمة

أدرك جيداً أن هنالك حلقة مفقودة في هذه القصة. لهذا السبب طلبت مني والدتي أن أقوم بهذا الحج، فالرواية الرسمية لم تشفِ فضولها، ولا الكتمان العنيد الذي أظهره زوجها. لقد جئت إلى موريشيوس بحثاً عن شيء غير الطائر المنقرض. جئت كي أجمع القطع المبعثرة، ليس أملاً بفهم ما حصل، بل لأني إن لم أفعل فلن يكون هنالك لا سلام ولا صفاء، إنه أمر يتعلّق بالاتزان. تلومني كلارا دائماً على تصلُّبي.

هجر ألكسندر (هكذا فضّلت تسميته منذ أن تجاوزت مرحلة الطفولة، لأنه اسم ينمّ عن شدّة بأسٍ تليق به) الجزيرة عام 1917 محاولاً الالتحاق بالجيش البريطاني، لكن إنجلترا لم تكن ترغب بهذا المراهق ذي الخمسة عشر ربيعاً. التقى في باريس بعمّه أليكس، الطبيب الفاشل الذي أسكنه في شقته المؤلفة من غرفة واحدة في بولفار «سان ميشيل» لحين إتمام دراسته. في ذلك الزمان، عاش شخص آخر ينتمي إلى عائلة فيلسن، لكن من الفرع الرديء الذي جُرِّد من كل أملاكه، وبضمن ذلك حصّتهم من ملكية ألما، الفرع الذي لُعن من قبل الأحفاد بسبب تصرُّف مشين. كان هذا الشخص يدعى أكاب، ولقد سمعتهم يتكلمون عنه في طفولتي خلال الاجتماعات العائلية القليلة التي كان والدي يوافق على الذهاب إليها. قيل إنه هاجر قبل

بداية الحرب العالمية الأولى إلى جزيرة «خوان دو نوفا» الواقعة في قناة الموزمبيق حيث كان يكسب عيشه بالعمل في استثمار جوز الهند. كان يعيش بصحبة امرأة من السكان الأصليين، كانت الألسنة الحاقدة تصفها بأنها تشبه أسد البحر في خمولها وكسلها، قبل مجيئها مع طفلها الخلاسي إلى موريشيوس. لم يكونوا يستحسنون النطق باسم هذا الفار، أذكر فقط هذا الوصف الذي كان يطلقه والدي عليه بنبرة حازمة: «فاكهة جافة». استمر أنطوان ابن أكاب على منوال أبيه، فقد نأى بنفسه عن المجتمع المخملي في موريشيوس وعاش في الخطيئة مع امرأة أتت من بعيد، امرأة كريولية من جزيرة الريونيون اسمها راني (الملكة) لاروش، تعرّف عليها في باريس بحسب ما قالته لي إميلين.

لمَ لم يحدِّثني ألكسندر قطّ عن أنطوان فيلسن، ابن العم البعيد الذي كان يعيش على بعد خطوات منه، على الضفة الأخرى للجدول، خلف ستارة قصب البامبو الذي زرعه مالكو ألما، الفيلسن الشرعيون كي لا يعودوا يرونه؟ لم يبقَ منه أيّ ذكرى سوى تلك الصورة الموجودة في ألبوم إميلين، والتي يُرى فيها ذلك الصبي صاحب التقاسيم الناعمة والنظرة السوداء. صورة أُخذت رغماً عنه في مكان ما في أثناء عصرونية في مسرح «بو باسان»، أو ربما في أثناء زيارة أولاد عائلة فيلسن لـ«برا دو»، لمّا عاد ماضي ملّاك المزارع الأسود ليسكنهم من جديد.

من يهمّني هي زوجة الغريب التي لا أعرف عنها سوى اسمها. ليس لها أي صورة كما لو أن المجتمع الراقي برمّته بذل كل جهده ليمحو أي أثر لها. توفّي معاصِروها كلّهم الآن وإميلين كانت آخرهم. لقد رأت هذه المرأة تقف على عتبة باب منزلها من خلال ستارة البامبو، كما لو أنها كانت تتجسّس على حيوان شرس وسام. في ذلك الوقت كانت راني لاروش

قد أصيبت بالمرض الذي أدى إلى وفاتها في ما بعد. كانت إميلين تبلغ من العمر عند ذاك خمسةً وعشرين عاماً، وكانت على وشك الزواج من كارسيناك. طرد العائلة من ألما كان قد وقع حينذاك، وقريباً، لن يبقى من الملكية حجرٌ على حجر، فضلاً عن المأساة التي على وشك الحدوث: إصابة دومينيك، طفل راني، بنوع من الجذام غير المعروف.

«الرجل الغريب». استخدمت كلمة الغريب تيمُّناً بقصيدة بودلير، «ماذا تحب إذاً أيها الغريب غريب الأطوار؟ - أحب الغيوم... الغيوم التي تمر... هناك...هناك... الغيوم الرائعة!» - لكني أظن أن كلمة المغترب تناسبه أكثر، فهو الذي أنهى كل الاتصالات. كيف التقى بتلك المرأة؟ كيف اختارها حين كان يدرس الحقوق في باريس وترك من أجلها خطيبته الرسمية الجميلة والغنية، كما تروي العائلة؟ هي وريثة مصنع أقفال في محيط مدينة «روان»، وكان يمكن لها أن تحول دون وقوع مصيبة ألما. لم يكن يعلم أين توجد الحقيقة والمجد، فأطلق العنان لميوله، ما جعل منه نسخة عن والده لمّا نفى نفسه في «خوان دي نوفا». لكن المجتمع الراقي هنا، كما هي الحال في فرنسا، لا يتقبل الخونة، بل يبحث عن الانتقام: خيّرت المحكمة العليا رجل القانون الغريب الذي وضع نفسه خارج القانون أن يستقيل أو أن يجري منعه من ممارسة المحاماة.

أما هي، راني لاروش، فكيف عاشت هنا، في الجانب الملعون من ألما، السنوات الأخيرة من حياتها مع الحنين لشبابها البرّاق على خشبة المسرح حيث غنّت «لايفريست دو باني» المدغشقرية؟ أتخيّلها كريولية جميلة دون رؤية أي إعلان لها، فهي من أشعلت نار العشق في قلب القاضي الشاب من موريشيوس الذي قد كرّس حياته لمحكمة البداية. كيف أخذت يوماً، على الرغم من قرع طبول الحرب في أوروبا، القرار

بأن تركب سفينة من سفن «ميساجري ماريتيم» محمّلة بالبضائع والسلاح كي تلتحق بالرجل الذي تحب، والذي لا يستطيع الزواج بها؟ هي رحلة بلا هدف وبلا مستقبل، هي نقيض الرحلة التي قام بها ألكسندر فيلسن كي يتزوّج في إنجلترا من الممرضة «أليسون أوكونور» التي هي والدتي.

هنالك جزء غير مكتمل في كل قصة، والقصة التي حاولت إعادة تكوينها لا تشذ عن هذه القاعدة. حين قررت الذهاب في هذه الرحلة لم أكن أعلم أن الأمر سيؤثر بي لهذه الدرجة. البحث عن الفوجيل أو الدودارسن الهولندي، الدودو الذي أصبح معروفاً من خلال لوحة الرسام «رولاندت سافري» المعروضة في متحف التاريخ الطبيعي في لندن، والتي ألهمت لويس كارول في إحدى شخصيات روايته كانت ذريعة، فماذا أستطيع أن أعلم أكثر عن هذا الطائر المنقرض منذ أكثر من ثلاثة قرون؟ كان بإمكاني أن أعيد الحجر المدوّر الذي وجده والدي إلى مكانه في الأرض الحمراء التي ينتمي إليها، بين أعواد القصب كي يشحذ في المستقبل أحلام الناس وخرافاتها. لكني لم أفعل. لقد أهديته للمتحف الذي أعمل به كي يلتحق بالهيكل العظمي الأسود خلف زجاج العرض، ولكي يوضع بين عظام القدمين كما لو أن الطائر الشبح قد باض بيضة من حجر. هكذا، لن أحتفظ بأي شيء من الماضي.

أردت أيضاً أن أعيد لصق أجزاء القصة المبعثرة، قصة آل فيلسن من أهل الجزيرة الذين انقرضوا مثلهم مثل الطائر، *dead as a dodo*. أكان ذلك نوعاً من الغرور، هذا الشعور بالانتماء إلى عشيرة في طور الأفول، وأن أكون شاهداً على ضوء آفل من عصر آخر وثقافة أخرى، آتٍ من آخر الباقين في عالم لا يفتأ يتغيّر؟ ألا يقال بنوعٍ من التكبّر في كل جيل من الأجيال إنه لا شيء سيعود كالسابق؟

قبل السفر، استطعت أن أقابل في «بلو باس» ممثلاً عن الجيل الجديد، وينحدر من عائلة الأرماندو، يدعى «جاكي مارزن». كان فقيراً ويكسب قوته بصعوبة، بالعمل مع زوجته الإنكليزية، أليكس، في اصطحاب السياح في نزهات على متن زورقه المصنوع في جنوب إفريقيا والمسمى «بيكا إنديا» (أڤاتار لطائر الدودو في السماء الأسترالية). كان الرجل لطيفاً، بشرته سمراء كما أي شخص تلفحه أشعة الشمس بقدر ما تلفحه. جدران مكتبه في «بلو بي» مليئة بإعلانات مطبوعة بالألوان، تبرز روعة غروب الشمس فوق البحيرة الشاطئية، ومتعة اصطياد الأسماك الكبيرة أو السباحة مع الدلافين في «لاريفيير نوار». سألته عن عائلة الأرماندو، ففقد هدوءه وقال: «هؤلاء الناس مرعبون، لا أرغب بالتعامل معهم أبداً». لا يعلم شيئاً عن ألما لكنه روى لي ما قاله بيرنار، الابن الوسط لجول أرماندو، حين طرد الفلاحين من ألما كي تُباع للمصرف: «من لا يمتثل سيكون الجلد عقابه». إنه الشخص نفسه، بحسب جاكي مارزن، الذي قام بوضع ملايين الروبيات التي جناها من بيع ألما في مصرف في جنيف تهرُّباً من الضرائب.

في الأيام التي تلت عودتي إلى فرنسا، أقنعت كلارا أن تأخذ إجازة وترافقني إلى نيس. استأجرنا غرفة مع إطلالة على البحر في فندق صغير على الهضبة، ليس بعيداً عن دير «سان شارل» حيث تقطن والدتي. تركت كلارا تتمشى في أزقة المدينة القديمة، وصعدت الطريق المتعرج المؤدي إلى الدير. كسرت أثناء صعودي بضعة أغصان من الميموزا كي لا أقابل والدتي فارغ اليدين. دهمتني ذكرى قديمة وأنا أمر في الجادة الكبيرة في أسفل الهضبة، تعود للزمن الذي كنت أذهب فيه لزيارة عمّي شقيق جدّي، الذي اعتلّت صحته لإصابته بالسكري. يعود ذلك لأكثر من عشرين عاماً، ولم أُعِر ما حدث آنذاك أي اهتمام زائد: كنت قد توقفت عند حافة الرصيف

منتظراً أن تتحوّل الإشارة الضوئية للون الأخضر لأعبر الجادة. فجأة رأيته. رأيته لأن سيل السيارات أبطأ سرعته وانشطر لقسمين حول عائق غير متوقع. سمعت أيضاً أصوات الزمامير الحادة التي امتزجت بالشتائم التي أطلقها السائقون أيضاً. لمحت شخصاً في الطريق يلبس معطفاً أخضر كالذي كان يلبسه الجنود في الماضي، يزحف في منتصف الجادة، لقد كان هو من يتجنّبه السائقون دون أن يتنازلوا ويتوقفوا. خاطرت وتسللت كراقص بين السيارات وحملت الرجل من تحت ذراعيه وساعدته على الوقوف على قدميه. لقد كان طويلاً ونحيلاً، مسنّاً على الأغلب ويترنّح في مشيته، تعابيره تنم عن شخص مذهول كما لو أنه تعرض لهجوم للتو. كان يتمتم كلمات بلغة غريبة، لكن ما فاجأني كان وجهه القاتم الذي تبدو تقاسيمه وكأنها انمحت بفعل تآكل قديم أو أنه كان محروقاً. اصطحبته بجهد كبير إلى الرصيف، في حين تابعت السيارات مرورها مطلقة زماميرها غير مكترثة. وقف على الرصيف وأخذ ينظر إليّ بعينيه الموهَنَتين من دون أن يقول شيئاً. تابع بعدها طريقه وتركته يذهب. حتى هذا اليوم لم أعاود التفكير بهذا الرجل، لكن حين ذكرت هذا اللقاء لعمّي بدت عليه علامات الإرباك. نسيت ما قاله لي حينذاك، أظن أنه تكلم عن توبسي وألما. يبدو لي أيضاً أنه، في هذا اليوم، سمعت للمرة الأولى بالاسم الذي سيتحوّل إلى هاجس بالنسبة لي، اللقب المألوف والسخيف للطائر الساذج، والذي هو اسم لشخص مجهول في تاريخ حياتي.

جزيل الشكر الى

Harmens Zoon, Wolphert, et Laerle, Joris Joostensz, *Figure of the Dead Dodo*, Amsterdam,1601.

Hume, Julian P., *Historical Biology*, 2006, vol. XVIII, p. 65-89.

François, Leguat, *Voyage et aventures en deux isles désertes des Indes orientales* (sur le mariage du solitaire), Londres, 1708.

Owen, R., *Memoir of the Dodo*, Londres, 1866.

Parish, Jolyon C., *The Dodo and the Solitaire*, Indiana University Press, 2012.

Pitot, A., *T'eylandt Mauritius*, Port-Louis, 1905.

Savery, Roelandt, *Sketch of Living Dodos*, E. B. Crocker Art Museum, Sacramento.

Vinson, J., *Centenaire de la découverte des ossements du dronte*, Port-Louis, 1968.

Baissac, M. C., *Étude sur le patois créole mauricien*, Nancy, 1880.

Baschet, Georges, *Marie-Madeleine Mahé, fille naturelle de La Bourdonnais*, Recueil trimestriel de documents et travaux inédits pour servir à l'histoire des Mascareignes françaises, Rennes, avril 1940.

Gerbeau, Hubert, *Les esclaves noirs. Pour une histoire du silence*, île de La Réunion, 1998.

Gurib-Fakim, Ameenah, *Plantes médicinales de Maurice et d'ailleurs*, République de Maurice, 2010.

Noël, Karl, *L'esclavage à l'Isle de France*, Paris, 1991.

Sarojini Asgarally, لأجل الاقتباسات من الأوبانيشاد

Pierre Bourgault du Coudray, لأجل حصاة حوصلة الدودو

Alexis Le Clézio, لأجل قصة توبسي

Camille Miot, لأجل قصة ساكلافو

نسخة قصيدة «روبرت بيرنز» باللغة الغالية تعود لكل من باتريك أوبراونيان وسياران أومويري.

جان ماري غوستاف لوكليزيو:

كاتبٌ فرنسيّ، تعود أصوله إلى جزيرة موريشيوس. ولد في مدينة نيس في عام 1940.

حقّق نجاحاً كبيراً منذ روايته الأولى، ثم تتالت أعماله حتى جاوز عددها أكثر من أربعين كتاباً في الرواية والقصة والمقالات والدراسات. من أبرز هذه الكتب: «الحمى»، «الطوفان»، «ثلاث مدن مقدّسة»، «الباحث عن الذهب»، «الحلم المكسيكي أو الفكر المبتور»، «ثورات»، وغيرها.

فاز لوكليزيو بجوائز عدّة، من أبرزها «جائزة الأكاديمية الفرنسية» في عام 1980، وجائزة «جان جيونو» في عام 1997، وجائزة «إمارة موناكو» في عام 1998، وغيرها، قبل أن يحصل على جائزة نوبل للآداب في عام 2008، بصفته «كاتب الانطلاقات الجديدة والمغامرة الشعرية والنشوة الحسّية، ومستكشفاً لإنسانية خارج الحضارة السائدة».

د. ماري إلياس:

أستاذة جامعية. درّست سابقاً في جامعة دمشق، والمعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق - سوريا. وتدرّس حالياً في الجامعة اليسوعية في بيروت - لبنان.

صدر لها عدة مؤلّفات وترجمات، من أبرزها: «المعجم النقدي

المسرحي»، مع د. حنان قصاب حسن. وجزءان من «أنتولوجيا المسرح الفرنسي الحديث».

د. معن السهوي:

أستاذ مساعد في قسم الدراسات الفرنسية بجامعة براون، في الولايات المتحدة الأميركية، مدرّس سابق في قسم اللغة الفرنسية بجامعة دمشق، حاصل على شهادة الدكتوراه في الرواية الفرنسية الحديثة، من جامعة باريس العاشرة.

صدر له كتاب وعدد من المقالات المنشورة حول الرواية الفرنسية المعاصرة.

يزور "جيريمي" جزيرة "موريشيوس"، للتحقّق من تاريخ عائلته، والبحث عن آخر آثار طائر الدودو المنقرض. تتقاطع رحلته تلك برحلة معاكسة قام بها "دومينيك"، المتشرّد الذي ولد ليثير الضحك، كما يقول عن نفسه. وما بين الرحلتين تتناسل الحكايات وتتعدّد، ومع تقدّم السرد ينبني عالم "ألما" التي حوّلتها الأزمنة الحديثة إلى "مايا لاند": أرض الأوهام.

"لوكليزيو" الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 2008، بصفته "كاتب الانطلاقات الجديدة والمغامرة الشعرية والنشوة الحسّية، ومستكشفاً لإنسانية خارج الحضارة السائدة"، يعود في روايته هذه إلى أرض أجداده "جزيرة موريشيوس"، ليحكي عنها، وعن أنهارها وجبالها وسهولها وأشجارها، وسكانها من بشر وحيوانات، بنثرٍ شاعريّ يجعل من الرواية أنشودةً في محبّة المكان وماضيه.





دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE

ISBN 978-9933-540-91-3

